قلادة العهد

III

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، وهذا الكتاب مُسجّل باسم المؤلف لدى الجهات الرسمية، ولا يجوز تبادله جزئيًا أو كليًا بطريقة غير شرعية؛ سواء كان ذلك من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب أو تبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن مسبق منه.

"عَجَبًا لِصُهْيُوْنَا مَنْ يَعْشَقُ الحَرْبَ مَنْ يَهْوَى مَحْرَقَةً تَلِدُ النَّارُ نِيرَانَا
مَا عَرَفَ يَوْمًا بَنُو صُهْيُوْنَ سِلمًا وَلوْنُ الدَّمِ يُحْيِي لَهُم أرْوَاحًا وَأبْدَانَا
إنِّي وَفِي عِزَّة أبْكِي عَلَى غَزَّة أبْكِيكَ دُرَّةَ دَمًا وَهُدَى وَيَاسِينَا
أبْكِي عَلَى قُدْسٍ بِالأمْسِ صَارَت ذِكْرَى سَبْعُونَ عَامًا قد مَضَتْ تَرْوِي مآسِينَا."

-1-

باب رَتْسُونَائيل

(نوفمبر - ٢٠٠٣ م)

قضى الله في إحدى ليالي الخريف الراعدة، تمام الساعة العاشرةِ مساءً، حيث الظلام يُغَلِّف جسدَ السماء، وعِواء الذئابِ يقْتلع القلوب، أن كان لي موعدٌ مع رحلةٍ عجيبة، أخذتني إلى مَراكش، وسط المملكة المغربية، ثم صعدت بي طرقًا وعِرة بين جبالٍ خَطِرة، وأجواءٌ مناخية قاسية؛ لأصل مُجْهدًا إلى قرية نائية عند تخوم بلدة شاردة يُقال لها إمليل. كان الخوف بداخلي يقودني إلى أبوابِ مغارةٍ كنت أعلم أنها محفوفةٌ بالأهوال، فيما فرص الرجوع تنقطع، ولكن حرصي على الهدف الذي جئت لأجله أعماني عن خطورة وحقيقة ما أنا مقدِمٌ عليه. نزلتُ عن بغلي الذي اتخذتُه ركوبةً في طريقي إلى تلك القرية الرعويَّة العالية بعد مسيرةٍ استغرقت ساعتين ونصف الساعة، واجهتُ فيها مصاعبَ جمَّة، أقساها أن كان البرد القارص يشتد كلما واصلتُ اللهث إلى قمة جبل توبقال العجيب. مُستنِدًا على عصا هشّة مُحاذِرًا الانزلاق فوق التربة الحصويَّة المُتَخَضَّبة بالثلوج كقطع قطنٍ منثور تتواثبُ خُطايَّ بحذر نحو الطريق الغامض إلى أعظم ملوك الجان السبعة، وعند مقامه الركن المهيب حيث العودة لم تعد ممكنة. بدت القريةُ النائية راسخةَ القِدَم وتنبضُ بالحياة مع توافدِ الزوَّار عليها من مختلف الأصقاع، فتجد محلات لبيع الملابس،

والعصائر، والمأكولات، إلى جانب النذور المالية، والقرابين التي تُهدى إلى ذي البأس مُعَظَّمُ الثريا. كانت المغارةُ الغريبةُ شاحبةً تُسَرْبلها خيوطٌ من العجائبية والغموض، رأيت حولها مسجدًا، وتعجبت عند النظر إلى تلك اليافطة المخطوطة بكلماتٍ تشير إلى أنه مكانٌ خاصٌ بالمسلمين؛ فالأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، ولم يكن هذا هو العجيب، وإنَّما كان من غير المفهوم لي أن يُسجد لله بحضرة مهيب الركن من عشائر بني الجان، وهنالك شاهدتُ أعلاها رايات خضراء مرفرفة من تلك التي تشابه أعلاما متصوِّفة.

كانت بوابة الغار مسدودةً بصخرة ضخمة، لا تُفتح إلا يومًا واحدًا في السنة، في حين يدخلها الراغبون في تعلُّم السحر القبَّالي من كل الأصقاع، مصطحبين معهم مؤونة سنة كاملة، من طعامٍ، وشراب. وقفنا على مقربة من الممر المؤدي إلى مدخلها، حيث يصْطَفُّ عددٌ غفيرٌ من المرضى الطامحين بالشفاء الروحاني، جنبًا إلى جنب مع ذوي الطموح الدنيوي، ولقد خَالَني للوهلة الأولى أنَّ جُلَّ المرتادين كانوا من هوية مسلمة، ورغم ذلك خاب ظني عندما تدافع لجانبي عددٌ من جنسيات غربية، إن هذا ما كانت تعبِّر عنه هيئاتهم الأجنبية اللافتة، وإنَّني ما إن سَمِعْتُ نعيقَ أسراب الغِرْبان المُوحِش، فتشاءمت لا إدراكيًا، وصرختُ عابسًا في هلعٍ شديد:

- سيحيق بنا الكرب العظيم .

كان هنالك صديقٌ مُقرَّبٌ لسام ينتظرنا عند مدخل الكهف، كنتُ أعرفه في مرحلة سابقة من شبابي من قبل حتى معرفتي بسام، ثم توطدت علاقتي به في وقتٍ لاحق، مع ذلك فكنت أراه رجلًا غامضًا، خشن الملامح، حاد الطباع، صعب المراس، أبسطَ ما يمكن أن يُقال عنه أنَّه متهورٌ. ما كان أحدا غيري أنا وسام يعلم بهويته الحقيقية، وصلته الوثيقة بجهاز الاستخبارات الإسرائيلي؛ فقد كان يحمل جواز سفر أمريكي ذا هوية مزيفة، ومنذ البداية عرفته باسم جاد كوهين، فيما لم ألتق به منذ نهاية السبعينيات سوى مرتين، إحداهما كانت في مصر بعد حرب الخليج الثانية ضمن مؤتمر سياحي دولي انعقد في إحدى الفنادق العالمية على ضفاف النيل، حيث تستر في هوية رجل أعمال أمريكي يدير شركة سياحية كبرى تمتلك عدة فنادق ومنتجعات فاخرة حول العالم، ذلك الأمر الذي سمح لي بمقابلته على هامش المؤتمر، وقد كنت أعمل حينئذ في وزارة الآثار، وأمَّا الثانية فكانت هذه المرة خلال زيارتي للمغرب حيث لم يتغير فيها كثيرا، وقد صار خمسينيا مثلي يغزو الشيب رأسه تقريبا لكن كما هو كهل الهيئة طويل البنية، يبدو أكثر شبابا مني رغم أنه يكبرني بعامين، وهو ما يزال يحتفظ بوسامته على جسدٍ رياضي مفتول، ووجه ذئب منحولٍ لا يعرف مشاعرَ بتعابيرَ قاسيةٍ جافة ومُقَنَّعة.

كان كوهين يفصح عن نفسه بأنه يهوديٌّ أشكنازيٌ نجا والداه من المحرقة بهجرتهما إلى إسرائيل مطلع عام 1950م قبلما يرى النور بعام واحد. إنَّه صهيوني الهوى والولاء، فقد اعتاد ألَّا يكون متهاونا في تعامله مع أي أعداء يهددون بقاء إسرائيل، وربما إن سألته ذات يوم عن الشيء الذي يطمح إليه، فيجيبك قائلا :

- أن تبقى إسرائيل إلى الأبد .

ورتَّب لنا سام لقاءً ودِّيا على مقهى قبل يومين من زيارة الكهف، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها ثلاثتنا، وكم بدا لي خلاله مدى متانة وعمق الصداقة بينهما، في حين كان لا يتحدث إليَّ تقريبا ولم أرغب في توجيه حديثا إليه غير ما دار في فلك الأعمال والمصالح المشتركة، ورغم جفاء تعامله معي الذي يغلب عليه الصلف والتعالي، كانت علاقته بسام أكثر حميمية ودفء، يغمرها الضحك، ولم تخلُ من المزاح، والكلام الجانبي. لم أكن أبالي له كثيرا، ولكن حينئذ كان يرفع صوته وهو يتذكر نسبه إلى هارون من بني إسرائيل الذين خرجوا بقيادة موسى من أرض جوش، تملقته على الرغم من أن سام كان يحب أن يشاكسه، ويسخر من مزاعمه طيلة الوقت قائلا بحسه الفكاهي بأنَّ أصوله الحقيقية ترجع إلى عشيرة تركية استوطنت القوقاز في القرون الأولى من الميلاد ومن ثم تحوَّلت إلى اليهودية في القرن الثامن الميلادي .

- أيها التعس لا تسأم ونحن بدار الملك.

قال ذلك كوهين بعد أن وخزني في صدري بعنف بينما يكاد أن يخلعني من كتفي بقبضة يده اليسرى وهو يدفعني بها إلى الداخل، لكن قدميّ تشبثتا بالأرض، وكأن شيئًا يمنعني عن ذلك، وبعد ذلك، ماذا عساني أن أفعل؟ وقد بِتُّ على بعد خطواتٍ، إمّا من الهلاك الأبدي في الحيوات الأعلى الأخرى، وإمَّا من المجد الأزلي في هذه الحياة الدنيا .

ربتُّ ذراعي على صدري، وتجشأتُ في رعبٍ مع هبوب ريحٍ فجرية باردة، تُعلن عن اقتراب صباحٍ رمادي ممقوت بمذاقٍ قرنفلي لاذع، وقد طوَّحتنا جميعًا إلى داخل الكهف، فطفقتُ أغمضُ عينيّ، وأجرُ أذيال القدر الصامت، في شعورٍ صارم، بأنني لن أنجو البتَّة بعد هذه الليلة العصيبة . انتفض جسدي المتيبِّس، عندما دوَّت صرخةُ امرأة، ثم ارتمت على الأرض في ارتطامٍ

مُفزع، وراحت تُرفِس بأيديها وأرجلها في كل اتجاه . ما زال ينتابني الرعب، كلمّا تذكرت صوتها المتحشرج يتردد بأذني وهو يتغير بين الفينة والأخرى. ومع ذلك كان لافتًا صياح المُرشدُ فينا، دون أن يعيرها أي انتباه، قائلًا بصوتٍ أجش غضوب :

- هيا استمروا ولا تلتفوا إلى الوراء مهما حدث.

كان يجري في منتصف المغارة نبعٌ عذب خلاله صخرات ضخام، على كل منها طلاسم مشفَّرة تضوي بهالةٍ من الإشعاع، وفي تلك اللحظة أخبرنا موجّه الرحلة الذي يرى فوق عصابة على عينه أنَّنا قد أُغلق علينا في عالم روحاني آخر، عندها أيقنتُ أنني فقدتُ ذاكرتي، أو بعضًا منها. فكان من قبيل الأمل أن أتذكر أي شيء له صلة بطفولتي وصباي، فيما تبدَّى في مخيلتي أنني قد دُفعت عائدًا إلى رحمٍ مظلم، و يجب أن أتبع التعليمات حتى يتسنى لي أن أولد من جديد، أو ربما أتلاشى فأصير أثرًا بعد عين، ولا عودة لي بعدها. لا أتذكر أن سام أخبرني لكن عَلِمت أنني سأقضي قرابة عشرة أشهر بهذا العالم المخفي، سأعمل خلالها على تنفيذ كل ما يطلبه الطلسم مني، حتى يتكشَّف لي خادمه من الجان، ويحدثني، وأحدثه، ولكن أولًا علينا أن نقف خاشعين أمام محكمة الجان، حيث سيطَّلع أحد جنوده على ضمائرنا، فيغربل الخبيثَ الغَثَّ من الطيب السمين، حينها كان يسقينا كأسا كأنما حميمًا من نار السَّموم. ارتعدتْ فرائسي؛ انتظارًا لنطق كبيرهم بالحُكم، حتى فَرَز من كان في ضميره ذرة من عدم ثقة به، فاحترق الكثير مُخلِّفين وراءهم ذَرًّا من رماد. جعلت أتلفتُّ حولي، فلم أصدق نفسي أن وجدتني من الناجين، وكان عددنا سبعة من أصل تسعة عشر، أولئك من أُخِذ عليهم العهد والقسم الذي تختلف قوته بحسب قوة كل طلسم يقف أحدنا أمامه، في حين تم إخبارنا بحزمٍ أنَّ كلَّ من يفشل في تحمُّل تلك المعرفة يُشطر جسدُه نصفين بحد السيف، أو يكون جزاؤه أن يَمسَّه صَرَع لا نجاة له منه، فيحبِسه داخل الكهف حتى يلقى حتفه، دون أن يبقى أثرٌ لرُفاتِه في الدنيا. انطفأت فجأة الشعلات وأُضِيء أمامي سراجٌ وهَّاجٌ يَشِعُ من الطلسمِ الموجود فوق الصخرةِ التي أقف عليها، ثم فُكَّت أصفادي، وتحررت يداي من طوقِ النفس. وعندها دخلتُ في خِلوةٍ خاصة؛ لتحضير الجان المختص بتلقيني من بحر الأسرار التي رَغِبتُ فيها، فيكشفها لي شيئًا فشيئًا، وهو مذ تلك اللحظة معلمي وأنا تلميذه النجيب. فبعد معرفتي به لأول مرة في مصر رأس الألفية الثانية أسدى لي سام خدمةً عظيمة عندما أخبرني بأنَّ المغرب يضم أكبر عددٍ من السحرة اليهود المعتمدين ونصحني بأن أشدَّ الرحال إليهم حتى أنول ما أصبو إليه وظل يشغلني كلامه عن الكهف ووصفه لي بأنه بنك كنوز وقلعة أسرار، ما جعلني أظهر حماسًا جارفًا لفكرته فطلبتُ منه أن يرافقني لكنه وافق بعد إلحاح مستميت .

كان على المتعلم أن يكون خاليا من كل فكر آخر، منعزلًا بدرجة كافية عن واقعه المحيط، بكل شوائبه وعبثه، بحيث يُعرِّي نفسه، ويُجهِّز حمامًا باردًا، بماء الملح؛ ليُنقِّي جسده، من رأسه حتى نعله.

- عَليون الذي شكَّلنا خدَّاما له ونحن لا نستحق هذه الصورة الجليلة يا منقذ الشعب عندما صعد خارج أرض جوش إلى البحر العظيم المنفَلِق نقِّنا من الخوف ومن كل عدو لك يحيط بنا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الوَسَخ.

بدأ عملنا بالكهف لمدة ثلاثة أيام بالانغماس كليًا في الماء، ثم أجفف نفسي بمنشفة نظيفة، وأبدأ في قراءة بعض الأذكار، ولمدة ثلاثة أيام متتابعة وأنا أجاهد للامتناع عن أي فكر آخر عدا الإيمان بالسحر، وقوة الأرواح الأخرى الموجودة في العوالم الغيبية، وكان لزاما أن أبدي رباطة جأش في التحكم على الرغبات المتفجرة في نفسي بكل وقت. بالنسبة لي كان من الجنون أن أفكر يومًا أنَّه بإمكاني السيطرة على شيطاني أمامي بأقل القليل من الإثارة، لكن بدا لي أن الامتناع عن الطيّبات من الطعام يُطفئ نار الشهوة؛ لذا تعلمت الصوم عن الطعام دون الشراب حتى أتفقه عند تلاوة الصلوات الخاصَّة: مرة في الصباح، ثم مرتيْن وقت الظهيرة، وثلاث بعدها عصرًا، وأربعة في المساء، وأخيرًا خمس مرات عند الاضطجاع للنوم . كان القمر في حالة هلال يسعى للبدر الجوُهادئٌ ومرتاح دون عاصفة وبعد الثلاثِ ليالٍ بالتمام أدركت أنَّنا ربما لم نعد على سطح الأرض ولم أشغل بالي بالكيفية التي انتقلنا بها إلى ذاك القفر الشاسع الأمرُ لم يكن مفاجئًا فكل شيءٍ بالكهف لا يبدو طبيعيًا لا هضاب لا تلال لا سحاب لا شيء بالأفق سوى القمر الساحق والشمس الحمراء كاللهيب دائمًا وصوت الكون كأنَّما مزمار .

- نحن على سطح المريخ.

صاح كوهين بابتهاج.

أخبرنا السيد ذو العصابة إذ نحن بعالم آخرَ محجوب قائلا :- إن فهم كيفية عمل السحر ليس ضروريًّا للشخص البارع به ولكنَّه أساسي للمبتدئ ودرجة ذلك مرتبطة بدرجة إيمانه الروحاني.

خلال الأيام الثلاثة الأولى، أحضر ذو العصابة خفَّاشًا حيًا، وتلا عليه تعويذة تطرد الأرواح، ثم تناول إبرة، وثقب الخفَّاش في عرقه الأيمن فتجمَّع الدم في محبرة، وبالسكين يجزُّ قلمًا خاصًا رفعه من صحن نحاسٍ، به منقوع نبات الزوفا مع الملح، فعطّره بتوابل فوّاحة، ثم علّقه جانبًا في قماش من حرير. وأمَّا بعد انقضاء الثلاثة أيامٍ الأولى، وضع على رأسه تاجًا من ورقة عذراء، والمكتوب عليها بقلم الدم الحروف: ي ه و ه على الجبهة، وآدوناي على الخلف، وآل على اليمين، وألوهيم على

اليسار. شُكِّلنا فريقًا من سبعة أشخاص غيره، فأخذ علينا العهد، لنعمل ما يطلبه منا، وأن نكون فطنين، وحذرنا أنَّه من الجائز التعرض لكثير من الأخطار، والأهوال، والآلام، خلال فترة الاعتكاف من أرواح أخرى أقوى تترصدنا لتوقع بنا الموت. عندها علمتُ أنَّه لن ينجو الجميع، فكان يتساقط بعضهم تلو الآخر كأوراق الخريف، حتى لم ينجُ سوانا نحن الثلاثة. كنت أرتدي ملابس كتَّانية بيضاء ونظيفة، ومن فوقها أخرى من حرير أحمر منسوج من قب شابة بِكْر، وفي قدمي وضعت حذاءً من جلدٍ أبيض، وهذا يعني أنَّني سأصوم لعشرة أيام وتسع ليالٍ متتالية، وأفطر مرةً على الخبز، والملح، والماء، غير الليلة الأخيرة التي بقيت خلالها بلا طعامٍ تقريبًا حتى مغيب الشمس. كنت منعزلا في صومعةٍ خاصة أثناء ذلك، بينما أطلب أمنيتي بصوتٍ خفيض مهموس، وقلب مرتجفٍ لائذٍ بالخلاص، من سجن الفقر المُضنِي إلى براح جنان الأرض الرحباء، بينما أضع على رأسي قرطاس من ورقةٍ عذراء بعدما عطَّرتُها، فيما يمرُّ علينا السيد في غرفنا، ويحضر إليَّ بانتظام ليرشُّني بمنقوع الزوفا، وهو يتلو فوقي بعض المزامير.

مضت الليالي التسع، فقادنا إلى خلاء فسيح عند منتصف الليلة العاشرة، وصنع لنا حمَّامًا من مِلح ذي كثافة عالية، ثم أعطى لكل منا حفنة من حبوب الملح المُطهِّرة، وأمرنا أن نباركه:- أيها الملح المخلوق فلتخرج منك جميع الخبائث وليدخلك الجيدون لأنه لا حياة بدونك.

قذفت نفسي في بركة الملح ذي الكثافة العالية لأباركها، بعدما أخذت أردد ثلاثًا في استعجالٍ ولجاج قائلا:- يا سيدي قد صرت خالصا كالملح كما تحب أن تراني أنجز لي ما أريد يا حي إلى أبد الآبدين .

تقاسمت بيننا المهام، فبينما كان ذو العصابة يحمل صولجانًا من ذهبٍ خالص، حمَّلني المبخرة مع شمعة من نار، في حين حمل سام الكتاب وأقلام الحبر مع شمعة، وحمل كوهين أدوات فن السحر من: الحبال، والسكين مع مقبض أبيض، وآخر مع مقبض أسود، إلى جانب المنجل، السيف، الخنجر، الرمح، وآلات أخرى، في حين كانت لكل واحدٍ منا شمعةٌ يسترشد بنورها، وبعد أن دخلنا إلى الخلاء الفسيح، رصَّ السيد أربع شمعات نحو المشرق ثم الجنوب، ثم الغرب، فالشمال، فأزالت عنا الظلام، وقد أُضِيء لنا جانبٌ من المعرفة، بينما يقول:- اسمع وكن مستعدًا وفي أي جزء من الكون تكون أطع صوت الله الهائل الواحد وأسماء الخالق ونحن نعلمك بها اقترب .

عندما وصلنا إلى المكان المكفهر قمنا بتنسيق الأشياء بترتيبها الصحيح، ثم أخذ السيد الأداة السحرية من الفولاذ المكرَّسة لتشكيل الدائرة، فأحضر بوقًا من خشب جديد، مكتوبًا على جانبه : بسم الله ألوهيم جيبوراه. وجعل ينفخ في الأركان الأربعة كما الترتيب، ثم دخل إلى مربع الكون، حاملًا البخور بإحدى يديْه، وباليد الأخرى حمل سيف السحر، وقام بإلصاقه بالمركز، ثم أحضر الحبل وحدد محيط الدائرة بداخل مربع الكون، ثم نقش رموزًا على حدود الدائرة بالسكين ذي المقبض الأسود، بعدها أوقد روائح طيِّبة بحطبٍ خاص من أشجار الأرز لأرواح المريخ، بينما وقف كلًا مِنَّا متسمِّرًا في مكانه المخصص عند زوايا المربع والدائرة، ومع كل واحدٍ منَّا سيفه الخاص، يرفعه بيده عاريًا كما وُلد. وقف السيد في مركز الكون، بينما يقول لنا :- رفاق إننا نقترب من النهاية لذلك فلنعمل كل شيء ونبنِه بشكله الصحيح لانتظار الملوك والأباطرة واستجلابهم بكل أنواع الموسيقى فأنشدوا معي بلا رقص يا سيدنا اسمعنا نحن هنا عارون نحن عارون أمامك .

وأمِرنا واحدًا تلو الآخر بأن ندخل ضمن الدائرة السحرية، بينما نبخرها بالأرباع الأربعة، وبعد أن نصدح بالبوق، تناشدنا الأرواح إذا اقتضت الضرورة، ثم تأذن لمن تقبله بالمغادرة، أمّا من ترفض، فيصير رمادًا، كأنه لم يكن. أحضر الذبيحة من ذكر قطٍ بالغ، فجزَّ عنقه بسيف السحر المسنون، مناشدًا الأرواح القدوم من أجل الخدمة وتلبية الرغبات، وإذ به يقول :- أناشدكَ بخالق الأشياء جميعها آل شديد بقوته أن أسلخ هذا الحيوان لأكتب عليه اسمك فتكون له مزية سحرية آمين.

ثم سلخه بقوة مرة واحدة، فكبّرنا ثلاثًا جهارا : هَالولويا هَالولويا هَالولويا.

إن السيد يفرك الجلد المسلوخ بالملح المطهَّر، ويُترك صباحًا في الشمس؛ كي يتشرَّبه يومًا كاملًا، ثم أحضر صحنًا طينيًا مزججًا، ووضع رقًا آخر جاهزًا فوقه فبَخَّره، وأخذ يقَشَّط عنه الكلس لثلاث ليالٍ متتالية، وبعد أن تشرَّب الملح أحضر أحجارًا صغيرة، وأعلن على الرق وهويقول :- يا قوي بمزية هذه الكلمات أدعوكَ أن تشد بالأحجار رقَ الكتابة ليحصل به السحر.

عندئذ أعْلِنَ أنَّ ما لدينا من رُقوق باتت جاهزةً للشروع بكتابة العمل المرغوب. نظرت إلى القمر السحيق حيث لكلٍ منَّا أمنيتان يكتبهما بقلم السحر ويشهد عليه جان. أخذني السيد من صومعتي ووضعني في غرفة حجارة، واستحلفني بالختم الأكبر لإله إسرائيل وبقلادة العهد الإبراهيمي من أول إسرائيل إلى إسرائيل الأخر وبسر التوراة وطُرقها. عاد الهامس أقوى مما كان، عاد يبشرني وصداه يكرر:

- قد أجيبَت مسألتكَ حان موعد عودتكَ إلى الأرض.

كان اليوم الأخير يوم السبت، الساعة الثانية عشرة عند انتصاف الليل، حيث القمر في منزل الدلو. تزلزلت أركان الكهف الموحَل في الغرابة، بينما تتفتَّح الأبواب.

***

هناك سحرة من نوعٍ خاص يُقيمون داخل أرقى الأحياء بالدار البيضاء، ويتفردون باستخراج الكنوز، وهؤلاء يتربعون على هرم السلطة الدينية، إنهم الحكماء الحاخامات فاحشو الثراء أسياد سوق العرّاكات. وفي هذا السوق يتواتر حُجّاج أثرياء من عربٍ وإسرائيليين وممن لديهم طموحات سياسية أو جلب الثروات بأيسر الطرق وأسرعها. وَجدت أكبر عدد من السحرةِ مجتمعين في مكانٍ واحد، والأمرُ الشائع حتى اليوم أن السحرَ أمرٌ مخصوصٌ بالمغاربة، منذ ألف ليلة وليلة، وترجماتها، وحكاية الدرويش المغربي القادر على خرق الطبيعة. وهناك في زنقة العرَّاكات كانت غالبية الزوّار من النساء؛ فأحِيطَتْ بنا هالة من الريبة والفضول. كانت تُعرض جميع مستحضرات السحر على واجهات الدكاكين، حيواناتٌ محنَّطةٌ من طيورٍ وريشِها، قنافذُ، جلودُ أفاعٍ، أعشابٌ، معادنُ، بخورٌ، شموعٌ، في حين يُعَدُّ الضبعُ من أكثرِ الحيوانات المستخدمة انتشارا وطلبًا حسبما أخبرني سام خاصةً من قِبَلِ أشخاصٍ يسعون للمناصب.

استوقفنا فقيهٌ عرّيف أمام أحد الخانات العتيقة، حيث وقفنا نتأمل المعروضات المُرعبة المعروضة في الواجهة الزجاجية، بينما تحمل بالأعلى ما يشبه يافطة تشير إلى اسم دكّان العشّاب أبو يونس المغربي، وقد هُنْدِسَت حروفِه من قطعٍ صغيرة من جزوعِ نخلةٍ مُقطّعة من ساقٍ رفيعة، وصُفِّفَت أركان دُكّانه بسعفٍ، جَريدُهُ مُتَلِّيف، تُشعرك أليافها المهترئة البالية بعبقِ قِدَمِها. تَفحَّصنا العشّابُ بنظراتٍ مريبة، ودعانا للدخول. للوهلة الأولى تُجبرك الحانة على الشعور بالقداسة والرهبة، وتدفعك دفعًا لاستشعار التميّز والتفرّد دونما أي متجرٍ آخر. دكانٌ مكدسةٌ أرجاؤه بأصنافٍ مختلفة من الحيوانات الحيَّة والمحنَّطة، وبكميات كبيرة من المواد الغريبة، تُعْرَضُ حسب الطلب. أجلسنا الرجلُ في ترحابٍ وضيافةٍ بهيّة، في الوقت الذي لم تبرحْ سهامُ نظراتِه الحادة المتلصصة إلى أعماقنا الخفيّة، كما لو يبغي أن يقول لنا إنه يعرفنا وربما أكثر مما نعرفُ أنفسنا .

سحب العشّاب طرف الحديثِ وقال بدارجة مغربيةٍ فصيحةٍ نوعًا ما :

- نوَّرتُما بزّاف ضيوفنا الكرام جِئتما من الولايات المتحدة أليس كذلك؟

ارتجف لساني قليلًا وانحبس بفمي، فأجابه سام في استرخاء بلكنة عربية متكسِّرة:

- لا هه في الواقع أنا أمريكي لكن هذا صديقي ممدوح زيدان وهو مصري.

لم يلتف العشّاب له، لكنه أردف يقول في ثقة:

- إخواني أنتما تبحثان عن أحشاءِ ذئبٍ منقوعةٍ في دماء طيرِ الهدهدِ بعمر تسعةِ أشهر فما رأيكما؟

التفت لي سام، فوجدني مُتنحِّيًا عن الإجابة مُبحلِقًا في اندهاش، فاستبق الردَ بقوله:

- عجبًا إنه تمامًا ما أتينا لأجله فكيف عرفتَ؟

أومأ العشّاب في استخفاف مبين وقال مُبتسمًا:- جئتما إلى فقيهٍ عليم وتستغربان أن أستبين من هيئتِكما المرموقة من تكونان؟ رجاءً لا تفكرا في الأمر كثيرًا ها أخبراني إذن هل تقصدان كاهنًا معروفًا بالمدينة؟ أم ترغبان في أن أدُلَّكما على أحدهم ممن يجيب مسألةَ صديقكَ الواجم هذا؟

زجرني سام بضغطةٍ من طرف أصبعه على ركبتي لأجيب فانتبهتُ، وقد كنتُ أسرحُ في خيالٍ بعيد. أجبتُ متلعثمًا :

- أأحضرت معي وصفةً كتبها لي الحَبر الروحاني الشهير ها هي تفضل.

فصاح العشّاب قائلًا :

- إلياهو عميد سَحَرتنا العظيم يا مراحب بكما .

وانتفض من مجلسه، وجعل يلملم من أركان دكّانه ما وجده مكتوبًا لديه وهو يقول:- أحشاء ضبعٍ بالغ أظافر هدهد صدّاح وأووه نعم نسيتُ إنه موجود جلبتُها مؤخرًا من صحراء غرب إفريقيا آه عينُ نسرٍ حارسة محنَّطةٍ بعناية لا داعي للقلق كل شيء موجود هنا بعكس أي مكانٍ آخر.

ثم استطرد مُتعجبًا :- لكن برنامج إلياهو اليومي مزدحم يتوزع على الاهتمام بالمقابر والمعابد اليهودية واستقبال الزبائن الذي يفدون عليه من عدة مناطق في مثل هذه الأيام خلال أعياد الفصح إنَّ هناك من يجعلونه في الرتبة الأولى ضمن قائمة

انشغالاتهم حينما يأتون إلى المهرجان على كلٍ أعلم أنه يخصص أوقاتًا لبعض زبائنه المرموقين أمثالكما فهل حددتما موعدًا مسبقًا معه؟ أم هو من أفسح من جدوله ساعةً لأجلكما؟

أسرع سام ليجيب في زهوٍ ضاحكًا:

- بالطبع لسنا بزبائن اعتياديين ربما يفسح لنا يومًا كاملًا .

لكن الشيخ أومأ في غير رضا وقال :

- إذن سيكون من المحتم عليكما أن تغدقا عليه بالهدايا القيِّمة نعم أعلم كم يحب إلياهو الهدايا .

كان أبو يونس يقف أمامنا لوهلةٍ مُفْرِكًا لحيته المهيبة بينما يقول وقد لمعت عيْناه المخفيَّتان تحت حاجبين كثيفين مشيبين:- وكم نبدو نحن العرّافين البسطاء أقزامًا بجواره إنه محترفٌ من عالمٍ آخر يصرف ملوك الجان لخدمته فيأسر القلوب ويسكن الأبدان ويعلن حروبًا مفتوحة جنودها خدّامُ الخواتيم بينما يقبع هو على عرشه مُزْدانًا بالتاج المرصّع بكنوز العلم المخفي وَمَن مثله؟ يطير ويختفي في رمش العين ومن يدنو من عتبته؟ وقد سيطر على العوالم الغيبية كما لم يتسنَ لغيره أن يفعل.

برقت عينا الشيخ حتى تلألأتا في وهجٍ مخيف، واستطرد هامسًا بصوتٍ مبحوح :- في سرِّكما إنه يمتلك مفتاح أخطر باب يفصل بين مملكتَيْ الإنس والجان، إنه ساحرٌ بديع يأتي بأمورٍ خارقة لا يصدقها عقل ماذا أقول وأنا في حضرة الحاكم الحاخام الكبير إلياهو لاسمك مددٌ في الآفاق مدد يا سيدنا مددٌ يا مبارك مدد.

ثم التوى على نفسه فجأةً بحركة أفعوانية خاطفة، وجعل يقهقه في صخبٍ عالٍ.

صعد العشّاب درجًا إلى إحدى حجرات دكّانه العلويّة حتى اختفى تمامًا عن أعيننا؛ ليجمع لنا حاجياتنا، لكن لم يختفِ أثرُ صوتِه، الذي استرسل في غرابة، ويثرثر بعجائبية في ذكريات لا تعنينا، حاكيًا بصوتٍ مسموع :- أنا لا أشتغل عشّابًا وحسب بل ومعالجٌ روحاني منذ بداية طفولتي أتاني الجان وحيّاني وكلَّفني بأوامر أنفذها فما كان مني إلّا أن أطعتُه حتى أملاني طلاسمَ لها قوة ومعرفةً باطنيةً ليست لأحدٍ آخرَ في المدينة كلها .

قاطعه سام وهو يتجشأ :

- ويالها من معرفة يا رجل.

ثم ضربني بكف يده على صدري وكررها متضاحكًا. كنت مطأطئ الرأس حيرانا، فقلت بصوتٍ واضح :

- وهل أفشى لكَ سرا ؟

في غمضة عين رفعتُ بصري فوجدتُه واقفًا عند رأسي دونما أي حسٍّ أو أثرٍ لنزوله عن الدرج. ملتُ برأسي فنظرتُ بشرودٍ إلى سام ورأيته غير مبالٍ كأنه لم يلحظ عجبًا. حتى فاجأني الشيخ وقد اسودّ وجهه فجأةً وهو يقول :

- أخبرني يا سيد زيدان ألا تؤمن ببني الجان ؟

تنحنحتُ مجيبًا :

- همم بل أؤمن.

فعقَّب قائلا في اعتراض :

- لم يكن هذا سؤالي أنا أسألكَ هل تؤمن أن للملك العظيم قدرات استثنائية تفوق قدرات البشر؟

ثم أمسك بتلابيبي مرة واحدة وهو يصيح بي كمن تلبّس قائلا :- انهض أيها الجسد الأرضي الهالك تالله ما جئتَ إلّا لأمرِ دنيا وأنا أعطيكَ ما تريد خذ حاجتكَ وأقْرِئ سيدكَ مني السلام.

خضخضني سام وقال :

- أبشر يا رجل هذه إشارة عظيمة من الملك لإجابة مسألتكَ.

أعطانا الشيخ ظهره، لكنه استدار ببطء وهو ينتفض :

- وإن لم تجد مسألتكَ فقد عَرَفتَ عنواني إيّاكَ أن تتردد في العودة .

قام سام على الفور في ثبات بينما أصابني تنميل شديد، وما إن هممتُ بالوقوف حتى ارتعشتْ مفاصلي، فأسرع سام يسنّدني، ثم أخرجتُ من جيبي حفنة دولارات لا أعلم مقدارها، ودفعتُ بها إلى يد العرّاف الذي لم ينظر إليها، لكن حدقة عينه اتسعت، وابتسم وهو يقول :- صديقُكَ الأجنبي هذا سيكون لكَ فتحًا عظيمًا شرَّفتماني بزَّاف .

كانت أرجلي ثقيلة على نحوٍ مفاجئ، وتصلبت على غير عادة، وخطر إلى بالي سؤالٌ أقعدني مجددًا، وكأنما لن أقوى على القيام :- أيها الشيخ سَمِعتُ أن النبي دانيال التقى أحد مردة الشياطين فدار بينهما صراع حاد حول الإيمان بالله والإلحاد به فانقهر الشيطان ومات دُفن هنا في هذه المدينة المُوحِلة في فنون السحر.

كان واقفًا فجلس، وأخذ أبو يونس يتأفف على أريكته الخشبية، ويقول :- انظر ما زال ينقصك الكثير من المعرفة حتى تتفتح لك الكنوز أعلم أنكَ ترغب في ذلك وإن كنت صادقًا وذا همة ثابتة فإن كل مراد خفي سيأتي خاشعًا تحت قدميك ليس بالضرورة أن تجد ما تبحث عنه عند إلياهو الساحر فما جميع الفقهاء على علمٍ واحد .

جرجرتُ قدميّ، متوجهًا إلى خارج الدكّان، حتى إذ ما وصلتُ عتبتَه، التفتُّ إليه وسألته قائلا:

- أيها الفقيه هل لكَ أن تخبرني أين يمكنني أخذ المعرفة؟

برقت عيناه بشدة، ثم تقدم نحوي بخطوات مُمَهَّلة، حتى إذ دنا من أذني، همس بها كالفحيح قائلًا:

- بقلعة الأسرار عند قبر الملك العارف فلتشد إليه الرحال .

وما إن خرجنا من الدّكان حتى جاء رجلٌ يهرول فَزِعًا بينما يصرخ في فرح قائلًا:- يا أيها الشيخ المبارك هليلويا ما أعظم حكمتكَ إن المسئول النافذ قد ترك زوجتي لحالها بعد أن قطع الملك قضيبه ليلًا وما إن استفاق حتى وجد الدماء تملأ فراشه باركَ الله فيكَ أيها الحكيم فلتأخذ كل ما أملك ولتسأل الملك أن يبارك لي في زوجتي.

نظرتُ مصعوقًا إلى سام الذي قهقه وضرب بخفةٍ على كتفي وهو يردد قائلا :

- مُباركٌ عليك.

-2-

باب باتِّسْيُون

في قلب الدار البيضاء أخذني سام إلى شارع المسيرة الخضراء، حيث منزل ساحر يهودي مرموق، ممسوح العين اليُسرى، كأنها عِنبةٌ لبنيةٌ طافية، يُقيم به منذ سنوات عديدة، بينما يستقبل زبائنه الميسورين، من الأجانب، والخليجيين، الذين يَفِدون إليه، بمنتهى الكتمان والسريةيوميًا، باستثناء ليلة الجمعة، ويوم السبت، حيث يتزعم فيهما قداس الشابات، في المعبد اليهودي القريب. إن الوصول إلى منزله سهلٌ للغاية، فجميع سكان هذا الحي الراقي يعرفونه، حيث يثير وجوده بتلك العمارة الهادئة صخبًا غير عادي. بينما كنا نهمُّ بدخول العمارة، إذ طالعنا صندوق بريد، كتب فيه الساحر اليهودي اسمه بالفرنسية، ورقم شقته بالطابق الأول .كانت أشبه بعيادة بابها مفتوح، بينما عُلقت به عبارة تسترعي الانتباه والدهشة :- الحاكم الحاخام الفقيه إلياهو، وأسفلها اسمه مرة أخرى بالفرنسية.

رائحة بخور غريبة ومختلفة تنبعث من شقة هذا الساحر اليهودي.لقد أسَرَت معالم الرهبة والقداسة المستوحَشة لُبِّي، فتصلّبت مفاصلي جَزَعًا عند باب المنزل، وإن أول ما يطالعك عند الباب سنجاب محنط وُضع فوق خزانة كبيرة، بجانبها كراسي انتظار جلست فيها امرأتان وشاب، وفوق الكراسي عُلقت صور لرجال دين يهود وزعماء صهاينة عليها عبارات باللغة العبرية .إنه شيءٌ من الجلبة يصدر من داخل الشقة التي استغل إلياهو كل شبر فيها. عند الباب جلس أحد مساعدي الرابي، وهو الذي حال بيننا وبين الدخول. أول ما رآنا حجزنا بيده، ثم صاح في وجهنا:

- يجب أن تتصلا بالحاخام حتى تأخذا موعدًا هذا رقم هاتفه المحمول.

قال لنا هذا المساعدُ وهو ينهمك في قضم ساندويتش شاورما وعينه تحدق بالباب. ربَّطنا الاتصال بالحاكم الحاخام لحجز موعد معه، لم يجب إلا بعد معاودة الاتصال، فمن عادته أنه لا يجيب لأول مرة حسب ما أوضحه مساعده لمَّا استطرد قائلا :

- أعد الاتصال سيجيبك بالتأكيد.

أعدنا الاتصال فأجاب الحاخام قائلا :

- ألو من معي ؟

- أنا شاب أريد مقابلتك .

- من الذي أرسلك؟

- أخذت رقم هاتفك من مساعدك

- عندك مشكل؟

- نعم لكنها تبدو رغبة أكثر من كونها مشكلة .

- أين أنت الآن ؟

- بالقرب من شقتك.

- عد إلي غدًا.

كانت له لكنة غريبة غير واضحة، الكلمات الدارجة استعصت شيئًا ما في حلقه فزحمتها أخرى عبرية غير مفهومة، وعندما رجعنا إليه كان باب شقته مغلقًا. اتصلنا به ثانيًة، فخبطتنا رسالة صوتية مسجّلة تقول:

- أعتذر يمكنك أن تأتي بعد العيد فقد سافرت لحضور مراسيم دينية .

عدتُ إليه مجددًا تحت ضغطٍ من سام الذي أصر على أن صيته قد بلغ الآفاق. كان من العجيب أنه لم يشترط مالًا مقابل إجراء جِلسةٍ معه، رغم أنه كان من المعتاد أن يتقاضى من زبائنه مقابلاً، قد يصل في كثير من الأحيان إلى الآلاف من الدراهم، مُبررًا موقفه النبيل، أنه اسْتَشَفَ بحَدَسٍ قويم لا يشوبه أي عَوار أنني ما جئتُ إليه إلّا لخير، وهذا أعظم ما أثار في ريبةٍ دهشتي، لكن عوضًا عن ذلك طلبَ مني التوجه إلى الزَنقة؛ بحثا عن لوازم السحر التي خطَّها لي على ورقةٍ بيضاء، فدسستها بجيبي، من دون أي استفسار أو رغبة في استبيان، ثم راح يباركني بلمساتٍ دافئة فوق جبيني، وأمرنا أن ننصرف على الفور.

- ومن يتعلم السر عليه كل صلاة أن يقول استحلفك يا الله أن تشدَّ بي لأرغب في علومك.

قال إلياهو ذلك بينما أوقد نارَ فحمٍ في إناء طين مُزَجَّج حديثًا. وضعَ عليه التوابل المُعطَّرة بالمسكِ والصبّار، والمخلوطة جيدًا بصمغِ بنيامين؛ لطرد الأرواح السيئة، واستجلاب الأرواح الخيّرة كيفما يعتقد فيها. تقرّب إليّ بينما أخذ يقول بعربيةٍ مبينة ماسحًا بالزيت على جبيني :- الله إله إبراهيم إله إسحاق إله يعقوب باسمك الأعظم بارك هذا المخلوق وباسمك القدوس كرّسه بمِنحتِك إلى أولئك الذين يُعلّمون الأسرار آمين.

تعطَّر الهواء بفيحات البخور المقدسة، واصطبغ المجلس بغيمةٍ رمادية غشت كل الوجود. اختفى أثرُ من حولي تمامًا وسط الضباب الكثيف. كنتُ أشعر أنني قد سموتُ بنفسي إلى أفقٍ بعيد غير مرئي ولا محدود، ولكني أدركُ أن جسدي لا يزال قابعًا على أريكة بالية بغرفة إلياهو الخاصة. انقشع الغمام فجأةً، فإذ بي أرى أسنانه تلمعُ خلف ابتسامةٍ مريبة، ثم رتَّل قائلا :

- لتحبوا الرب إلهكم وتلتصقوا به.

اعتدل إلياهو، وعقَّب للتوضيح قائلا :- ولكن الالتصاق هنا لا يعني الخضوع له أو الفناء فيه وإنما يعني التوحد به وهو توحد يؤدي إلى معرفة الإنسان سر الإله وطبيعته بحيث يمكن التأثير في الإله والتحكم الإمبريالي في الكون جُلّه ليس هناك تقشف في القبالاه فالقبَّالي يجب أن يعيش حياته.

تفتق ذهن سام إلى سؤالٍ غريب، دفع به خارجًا من فيه، باتزانٍ لم أعهده منه قال :- أيُّها العالمُ المُبَجَّل إن سيد زيدان لم يسبق له أن زار دارك المهيب هذا لكني على يقينٍ تام بأنه سيكون مدينًا بكثيرٍ من الفضل لكَ على ما ستفتح له من كنوز معارفك الهائلة التي لا يضاهيك أحدٌ فيها.

رشَّ إلياهو المزيد من التوابل العطِرة فوق الإناء، بينما يتلو من كتابٍ مقدس، بنبرة مجروحة لرجلٍ هَرِم، فتبتل قارئًا :- ولتعلم أن المتوكلين على الرب مثل جبل صهيون الذي لا يتزعزع بل يسكن إلى الدهر.

فصرخ سام بهيستيريا قائلا :- اسمع يا الله صراخي واصغ إلى صلاتي من أقصى الأرض أدعوك إذا غشي على قلبي إلى صخرةٍ فارفعها عني لتهديني.

ثم رسم صليبًا على صدره، وهو يزفر هواءه بخشوع. في الأثناء أسهمني إلياهو بنظرات ارتعش لها جفني ريبةً، وقد أثار وجومي المبالغ فيه حفيظته، فتساءل في مكرٍ وعيناه تضيقان وهو يقول:

- هل أنتَ على ما يرام سيد زيدان ؟

استجمعت قواي، فأجبته في صرامة قائلا :

- بالطبع أنا بخير في حضرتكِ أيها الفقيه .

تنهد إلياهو بعمق بينما يقول :- أتمنى ذلك أراك مرتبكًا إلى حدٍ بعيد دعني أخبركَ أمرًا إنَّك على أبواب معارف ثقيلة وما تزال في أول الطريق وتحتاج إلى الصبر فإن كنت تشعر بأنك لن تقوى على حمل العلوم فإنِّي أحذِّرك من التقدم ولو خطوة نحو كهف الملح .

***

كان حدس إلياهو صائبًا، فلا أعرف تفسيرًا للخوف الذي يخنق صدري مذ أول لحظة وطأتْ فيها قدمي عتبة داره. وقبلها لمَّا نزلت من الفندق بصحبة سام رفيق الرحلة وجدنا سيارة أجرة بانتظارنا عند مدخل الفندق ذي الخمس نجوم. كنا في طريقنا إلى منزله في ليلةٍ قمرية منيرة، وقد لاحظتُ السائق يتابعني باكتراث عبر مرآة سيارته. ظل السائق يتجاذب أطراف الحديث مع صديقي الجالس إلى جانبه، لكنه في الأثناء لم يتوانَ عن حدجي بنظرات ساهمة من خلف نظارة سميكة فوق وجهٍ رفيع حليق. حاولتُ قدر الإمكان درء فضوله عني، لكن فيما يبدو أنه قد أزعجه طول صمتي وتأملي، بينما استنشقُ عبيرَ الخريف المنساب عبر شُرَّاعة ضئيلة من النافذة. قطع السائق استغراقي بينما يصيح بدارجةٍ مغربية قائلًا:

هاي خويا سامحني مانبغاش نمشي طايش مزروب كيفاش راك صامت ترقاق تتأمل اشنو وقع معك؟ عسى ما يكون باس أم ولفت حبس هدره؟ هادك الشيء يبان ليا أنو قرمك حنش هاهاها خويا لا باس ؟[1]

بصعوبة بالغة تفهَّمتُ ما يعني، بيْد أنه ظهر جليًا أن سام قد عَنى بما يقصده السائق؛ ذلك أنهما تبادلا ثمة قهقهاتٍ غير لطيفةٍ؛ فانتابني بعض إحراج، اعتاد سام على زيارة المغرب وسماع الدارجة المغربية رُغم إحاطته بقليل من المصطلحات العربية. تبسّمتُ على حنقٍ، وأسرعتُ مجيبًا:

- مرحبًا بكِ أيها الكريم أنا بخير.

عقَّب السائق بإنجليزية ركيكة قائلا :

- أنتما ذاهبان إلى دار إلياهو الساحر أليس كذلك؟

ضحك سام ثملًا، والكلمات تتدحرج من فمه إذ قال :

- بلى أظن أنه ليس حدسًا بقدر ما هو اعتياد من زبائنك السيّاح الذين يأتون إلى هنا بانتظام.

أجاب السائق وهو يتابع إلى الطريق قائلا :- أجل يا رجل ففي هذه المدينة التي تبدو لأول وهلةٍ هادئة لكنها تخفي ضجيجًا تحت الرماد يتوافد الكثير من البشر من الأجانب لزيارته فقد درجت العادة على أن اليهود المغاربة أكثر براعةً وإلمامًا بشتى فنون السحر ويكاد لا يضاهيهم أحد في هذه البلد .

- ولقد اقتنع الرأي العام العالمي بميل اليهود إلى السحر وقد كانت فكرة منتشرة في القرون الوسطى وكان الناس ولا يزالون يقدّرون اليهود كسحرةٍ ممتازين.

قالها سام وهو يرسم بأصابعه بينما يستدير برأسه غامزًا لي وقال مستطردا: - أما الصفقات الكبرى التي تدر الملايين هه بالطبع يختص بها الحاخامات البارعين من بإمكانهم استخراج الخزائن والكنوز المدفونة في الأراضي والدور المهجورة .

امتعض السائق وأكَّد على كلامه قائلا :- أخر قصة حدثت قبل أشهر قليلة بذاك المنزل أشيع أنه مسكون وتحت بلاطه كنز ثمين مُلّاكُ الدار استدعوا سحرة من شيوخ وفقهاء لاستخراجه تعاقدوا مع ثلاثة منهم مقابل ملايين الدراهم فضَّلا عن حصة من الكنز غير أنهم جميعًا عجزوا عن استخراجه بل خرّ أحدهم ميتًا فور دخوله الدار وفرَّ منه الآخران.

---

[1] مرحبًا أخي، اعذرني، لا أحب القيادة بتهورٍ واستعجال، لكنني أراكَ صامتًا هكذا لا تحكي، فقط، تراقب الناس في صمت وتتأمل، ماذا حدث معك؟ !أتمنى أن تكون بخير !أم إنكَ اعتدت على الصمت كثيرًا !تبدو لي كما لو أن ثعبانًا لسعك !هاها ..أخي، هل أنت بخير؟

لوَّح سام بيده في احتقار قائلاً :

- هؤلاء ليسوا بفقهاء على أي حال إنهم مشعوذون يدّعون معرفة الأسرار.

ارتبكتُ قليلًا، لكنني تجاوزتُ ذلك عندما تبادر إلى ذهني ردٌ ساذج فقلت :- إن لكل شيخٍ طريقة وبالتالي ذلك يبرر اختلاف الطرق وتعدد الوصفات المطلوبة لكل عمل مرغوب.

هدأت نبرة السائق، بينما يسهب قائلًا:- يكفي أن تعلم أن من الأعمال القميئة التي يقوم بها إلياهو أنه يشترط على بعض النساء إحضار مني يهودي لعمل السحر ولمَّا تتفاجأ المرأة يعرض عليها الجنس والحصول على منيه ثم يتقاضى منها مبلغًا ماليًا مقابل شرائه أي أنه يبيع منيه.

يحكي السائق ذلك وقد زاحمت ضحكة جُمله.

ثم إن أعلى درجات السحر هو الذي يتم بدم الإنسان كما نعرف جيدًا أخبار الصبية من غير اليهود الذين ذهبوا ضحيةً على أيدي بعضهم في طقوسهم الدموية.

قالها السائق المغربي مُستزيدًا. وكان تعليقه مثيرًا لاهتمامي بشدة، حتى إنني شعرتُ بالحماسة لأن أقطع صمتي قائلا :- إن كنتَ محقًا فمن أين جاءوا بتلك البراعة الفائقة في تصورك؟

أجاب السائق المغربي الفصيح بذهنٍ صافٍ ولسانٍ بسيطٍ قائلا : - هذا السر القديم يرجع إلى كتاب الزوهار ولا يزال مقنعًا أن اليهود ربما تأثروا بفنون السحرعن قدماء المصريين بعد خروجهم من أرض جوش ثم استغلوا معرفتهم السابقة به لاستجداء المال خلال فترة السبي .

حدَّج السائق سام بنظرة ريبة مُقْحَمة، بينما يختم بقوله :- القبّالاه كتابٌ ترتعد له فرائص الشياطين والعلوم المشئومة تتسرب إلى خارج صفحاته كسم ثعبان زعّاف.

ثم استطرد فقال :- ولكنَّ التقوى عند ابن ميمون القرطبي تشبه النهج الذي اتبعه المتصوفة المسلمون ويمثِّل تقليدا نبويا يصدرعن قلبٍ مؤمنٍ بإلهٍ يتجاوز الإنسان والطبيعة والتاريخ ومن ثم يؤمن بثنائيات الوجود وعندما يقوم الإنسان بكبح جماح جسده فإن ذلك تعبير عن حبه للإله وعن محاولته التقرب منه شريطة أن يعرف مسبقًا استحالة الوصول إليه أو التوحد معه يا مسلم إن الحلول الإلهي يتنافى مع الرؤية التوحيدية في الإسلام واليهودية بل إنها أفكار انتهت إلى العدمية والسفسطة.

اجترع سام زجاجة جعة بنَهم، ثم جعل يدبُّ بيده على ركبته، بينما امتنع في تعالٍ عن النظر إليه وهو يقول ضاجرا :- صه بل الإله يحل في الطبيعة والإنسان والتاريخ ويندمج فيها ويمكن التحكم بالعالم من خلال معرفته الهدف ليس تطويع الذات وإنما الوصول إليه ليصبح المتصوفُ عرفانَ بالأسرار الإلهية إنَّه اتحاد سيؤدي إلى وحدة الأرض.

نهره السائق وعقَّب على حديثه قائلا :- إنَّ هذا أقرب للعلمنة لأنه يسعى بالنهاية لتعظيم الإنسان وتأليهه بدلا من تكريس عبوديته لله الخالق والحقيقة هي أنها فكرة تطورت إلى الاتحاد بالشيطان نفسه كإله أرضي من خلال صنوف السحر الذي يقود لعوالم طيفية عبر بوابة الكهف السحرية.

تمطّق سام شطيرة غير مختمر، فجعجع وهو يقول:- على كلٍ يمكننا الجزم بأنَّ الفقهاء اليهود والحكّام الحاخامات هم الأروع والأبرع في فنون السحر وأنَّهم اليهود يقفون كوسيط بين الإله والعالم لذا فنهاية التاريخ يجب أن تشهد علو إسرائيل وهلاك أعدائها .

ترك السائق الطريق، واستدار بنظره إلى سام بتطرفٍ نوعا ما، وصمت قبل أن يستنكر كلامه ويقول متجهمًا :- شفتك واثق من راسك بزّاف تبدو صهيونيا أكثر من اليهود أنفسهم لكني أظن أن الشيطان عند حضوره الكوكب الأرضي إنما يحضر متقمصًا الزي الصهيوني وأقطع فوق ذلك بحضوره منتسبًا إلى التصوُّف القبالي فإنه أقصر جسر يربط بين المرء الضال والشيطان إنه جسرٌ مبتور لا رجعة منه.

ثم قهقه بتقطّعٍ كأنما أراد أن يمازحنا قائلا :- إنه بقرية يقطن حبر يهودي يُدعى الحكيم شبتاي قد انصرف عن أمور السحر مع ذلك يمتلك إلياهو صيتًا عابرًا على الرغم من أن شبتاي هذا كان ساحرًا مدهشًا ينحني له إلياهو بشكل خشوع وكنتُ في طريقي يوما لأوصله إلى كوخه البعيد وكان جالسًا بالخلف مكانك ولمّا سألته عن سر رحيله أخبرني بأنَّ إلياهو لا

يسمح بمهاجمته من أي رابٍ ينتقد لاهوته لقد قال لي بالحرف إنَّه يعلم ما قد يستهدفه من تنكيل لأنه تجرأ على عملٍ ممنوع في رأي الحاخامات.

ثم عاود ضحكه ثانيةً وهو ينظر إلى سام في استخفاف وتابع قائلا :- حتى تردد في المدينة قَدْح إلياهو له بقوله عنه خومار مشناوي[2] إلياهو كثيرًا ما يوبخ الفقهاء اليهود المدافعين عن الشريعة ويصفها بمقبرة موسى مع ذلك فالمكانة التي يحظى بها هنا وصلت إلى درجة تقديسه وعبادته.

أسرعتُ مُستفسِرًا بفضولٍ بريء :

- وماذا كان ذاك العمل يا ترى ؟

أومأ السائق ممتنعًا فيما بدا عن الإجابة، وكادت نظرات سام تسحق وجهه، فاتّسع ثغره بضحكة، ثم استدار إليّ قائلا:- ودَّها في راسك ها قد وصلنا ما تقول لإلياهو إني وريتك متفقى رحلة هنية نورتما المغرب مية درهم من فضلك[3].

***

استقبلنا إلياهو حاملًا قمقمًا من قنينة جعل فيها ماء الزهر أو نحوه، وراح يرش منها علينا مُضيّفًا لنا ومرحِّبًا بنا. ثم تنحنح في إعجابٍ إذ يقول :- أنا أدريٌ مبين حدسيٌ أكتسب معارفي بالإدراك الداخل وبالفراسة وأهتدي للحقيقة بالبصيرة والفطرة والإلهام والوحي.

كالعظماء قاطعًا فمه بإصبعه قالها مَزْهوًّا، بينما يتكئ على وسادةٍ من ريش نعام، وقد أجلسنا قُباله. اقترب إلياهو على حين غرّة من الطاولة، وهو يُظهر في يده أنموذجًا مضيئًا كفانوس، وأكمل قائلا : - تصورمار زيدان أن الذات الإلهية كبنيان سداسي من عشرة طوابق مثل هذا وفي مقدرة الإنسان الوصول إلى عين صوف بالأعلى هنا بعد تجاوز هذه الدرجات العشر ويمكنه سحب هذا الدفق منه .

صاح سام وكأنما تذكَّر ربه قائلا :- كما في السماء كذلك في الأرض كما في الداخل كذلك في الخارج.

ثم رسم صليبا في الهواء. تعجبت فتنهدت قائلا :- يبدو الأمرُ وكأنكَ تمتلك المعرفة الشيطانية يُدهشني ما يقولونه عنكم أيها اليهود بأنكم ضالون وأنَّ الشيطان نفسه يتقلد زيًا يهوديًا وتاجًا من شمعدان.

سخر مني إلياهو حين أجاب قائلا:- وما المانع يا حبيبي طالما كنا شعبه المختار؟ فنحن نأخذ عن الملك الأرضي تجليات النور والظلام بانفصلاهما صار الظلام قوى شريرة كانفصال شجرتي الحياة والمعرفة تذكَّرمثل النفاية التي تبقى بعد تنقية الذهب أو التُفل الذي يبقى بعد عصرِ الخمرةِ الجيدة وبعودتِنا أسفل صهيون يتوحد هيكل الرب هكذا يا حبيبي يعم الرخاء والازدهار على الأرض.

تحمَّس سام فأضاف قائلا : - وكان جزاء الخطيئة الأولى الانفصال الأول وقتما فرَّ آل كوهين من أرض جُوش ونحن نصلي يا مولانا من أجل ألَّا يقعوا في الخروج الثاني.

ثم انحنى برأسه بتعظيم إذ يقول :

- هكذا تعلمنا منك أيها المبارك .

عند مقامه عظيم الركن ازدهى إلياهو بمعرفته، فأسهب بفطنة قائلًا :- في مصر حيث منفانا الأول غربًا عند واحةٍ بِكر منذ حينها لا تطأها الأرواح الشريرة هناك عند المعبد كانت فنون السحر تتجلى على كهنة آمون البارعين كانت منارة الحكمة التي شاعت ضياءً في العالمين .

اعتدل إلياهو وأردف قائلا :- وكادت أن تندثر قبل أن يتعلمها موسى فكرَّس الوقت الكثير من سنواته الأربعين للتعمق في هذا العلم ثم تناقلها الآباء هذا مكَّنه من حل الكثير من الصعوبات التي ظهرت أثناء قيادته لشعبنا.

---

[2] حمار مشناوي :تحريف بغرض الذم للعبارة العبرية» حموري همشناه«، وحموري تعني فقيه عظيم وحاخام الحاخامات، بينما المشناة هي التوراة المكررة، أما الجمارا فهي التوراة المكملة، وهما جزأي التلمود الرئيسين.

[3] قال» :أبقِها في رأسك، لقد وصلنا .لا تقُل لإلياهو أني علمّتك ما لا تفقهه !رحلة سعيدة !نوّرتما المغرب كثيرًا !حسابي مئة درهم من فضلك«

ثم تنهَّد وهو يمرّر عصاه على لوحات زيتية معلقة لشخصيات دينية ويقول في خنوع مسرحي :- كم أشعر بالتضاؤل حينما أذكر الآباء المعلّمين ولا أدّعى أنني أفضل منهم أبدًا فهم الأفضل على الإطلاق وما أنا إلّا مسافر مُبحر ضاقت به السبل في يمٍ محدود من لجةٍ في محيط ابن ميمون وإني لأبي حصيرة لتلميذٌ نجيب وأعوذ بالله أن أدّعى عظمةً تفوق قدراتك أيها النبي نوستراداموس أو حتى علمًا أدهى منك أيها المعلم ميراندولا وَتالله ما التمستُ فوق نبوءاتك صيتا أيها الأب الجليل تسيفي .

باليد اليسرى أمسك بحجرٍ، ثم قرّبه إلى صدره قائلًا :- الراحلون بسلام والمرتاحون بسلام ليأتي حكم مصيرهم يوم القيامة الآباء الخالدون في الملكوت قولوا آمين.

تلاشى الغسق في الآفاق، فكان اليوم الأول من تشرين الأول، وقتما هبطت علينا ليلة عيد الفصح الأولى، فنهض الحاخام في ثباتٍ، حتى أمسك ببوقٍ عظيم، من قرن كبشٍ، وجعل ينفخ فيه بعزم، ثم راح يردد تواشيحَ كاللعنات. قدَّم لنا إلياهو التفاح المغموس بالعسل، وفتّش في الخبز للتأكد من أن الفطير لا يحوي أي نوع من الخميرة أو المِلح؛ تذكيرًا بأنهم عند خرجوهم مع موسى من أرض جوش لم يكن لديهم وقت للتأنق في الخبر. جلب لنا كأسًا ذهبيةً من خليطٍ كالدم أحمر قانٍ، ثم راح يخلطه بعجين ويدسّه في اللهب، في حين يخرج فطيرةً أخرى نضجت للتو في المحرق. تجمَّع ثمة صغار خارج الدار، وأخذوا يلطخون باب الدار المنفتح بدماء حَمَلٍ مذبوح في بهجة العيد، حتى صاح الحاخام وهو يرفع كأسًا آخر من نبيذٍ أبيضٍ صاف بعدما صبّ لنا منه :

- مباركٌ علينا ليلة العيد.

ثم دعانا لتناول العشاء السحري على طاولة المنارة السرّية، عليها وُضعت شمعدان المينوراه ذات السُرُج السبعة. حضر صبي يهودي، وقام برش الطاولة بالدم، ثم أمرنا إلياهوبالجلوس وهو يقعقع قائلا :

- لا تخافا هه هذي دماء ديك هه تفضلا ادْخُلا .

- إن هذه الدماء فعّالة للغاية في بعض الأعمال السحرية وهي تبدد الظلمات وتخرج الإنسان من الجهالة إلى نور العلم والحضارة وهو طهور لنا للنجاة من العقاب الأخروي .

قالها إلياهو مسهبا بينما ترتجفُ ركبتي، فأصدرت أزيزًا صاخبًا عند جلوسي.

صمت سام بينما يقدّم لي إلياهو بيضةً مسلوقة، ثم دعاني لكي أغمسها بصحنٍ من رماد؛ مع ذلك خشيت أن أتردد أمامه، فقال لي مُباركًا :- لا يجوز الجزع أمام الرب وأنت على طاولة عشاء ليلة العيد وأنت الآن تعلم أن من يعرف اسم الإله الأعظم يتحكم في الكون فالإله يحلّ في الإنسان وتصبح إرادة الإنسان من إرادته والوصول إلى الصيغة السحرية أمرًا متاحًا تفضَّلا بالمناولة ليتقرب لكما الرب آمين.

رفع سام كأسه؛ لتصطك بكأس إلياهو، فأصدرت قعقعة عالية، وبصخب قال :

- فلنجترع كأس مجدنا دامت لكَ الصحة أيها العليم.

إن أريج البخور الفوّاحة، المنتقاة بعناية؛ ليعمل في النفس كل عجيب، فيفتح شهيتكِ ليس فقط للطعام بل للمعرفة كذلك، بمجرد أن تسلل عبيُره إلى خياشيمي ارتجفتُ كما المتجشِّم لأشد المهام، والمُسرع نحو الدروب المنحدرة. احتسيتُ كأسي على مهلٍ ثم تجشأت، وانخدر ظهري فتراخى إلى الوراء. كنت شاردا سارحا فيما تبقى عالقًا بقعره، أموّج رواسبه يمينًا ويسارًا مراتٍ عدة بغير اكتراث، في حين قلت بتقطّع في صوت متهدج :- تقولون إن التوراة كُتبت بنار سوداء على بيضاء وأن النص الحقيقي هو المكتوب بالنار البيضاء ما يعني أن التوراة الحقيقية مختفية على الصفحات البيضاء ولا تدركها العيون ؟

انتفشت لحيته الكثة كأنه يبتسم، ودون أن يبيّن قواطعه قال :- ومن هنا تأتي أهمية المعرفة الخفية للنار السوداء أنت محق مار زيدان مباركٌ عليك بصحتك.

رفعتُ كأسي منتفضًا بحركة مباغتة وقرعتها بكأس إلياهو، ثم للحظاتٍ كما لو أغرق في تفكير ما أبقيتها مقلوبة تقطر في فمي حتى الثمالة، ثم أطحتُ بها على الطاولة، ونظرتُ للحاخام وقلت :- إذن تتفقون معي على أن ذيوع تلك المعرفة في الحضارتين الغربية والعربية ليس مجرد تعبير عن تهويد المسيحية أو الإسلام وإنما عن عنصر أكثر بنيوية وهو غلبة الفكر الحلولي على الفلسفة الصهيونية التي تدور في إطار رأسمالي يستعمل البشر باعتبارهم مادة تكمن فيها الطبيعة التي يتوحد معها الإله ليبقى العالم المادي وحده وقوانين الطبيعة والإله الكامنة فيه .

ولمَّا فهمتها صِحت قائلا :- إنه إطارٌ لا هو باليهودي ولا هو بالمسيحي أو الإسلامي وإنما إطارٌ إستعماريٌ معرفيٌ علمانيٌ مُعادٍ لمبدأ توحيد الألوهية والربوبية ومُعادٍ للإله المنزه حتى يمكن للأديان السماوية والأرضية أن تنصهر لتحقيق وحدة بداخل هذا الدين التصوري الذي يبتعد عن الفردوس ويتجه نحو الجحيم.

تجشأ إلياهومعترضًا :- ليس صحيحًا أنها إطارات معادية لصلب التوحيد الديني وليس بالضرورة أن ننصهر جميعًا عن اقتناع ولكنه سيحدث في جميع الأحوال شئنا أم أبينا لقد قضى آدوناي ودان ولا راد لقضائه بعد أن كان قُضِيَ الأمر يا حبيبي .

رفعتُ رأسي فاستبد بي طائفٌ من سحر شحذ همتي وجيّش عاطفتي وسلبني التبصّر، ذلك حينما أعطاني كرة من علكة بيضاء، فارتبكت وقلت:

- ما هذا أيها العليم ؟

طرق إلياهو على كتفي ثلاثًا وقال :

- كنت أحسبكَ ترغب منها ؟

اضطرب لساني وأنا أقول :

- لكني لم آكله منذ زمن بعيد مخدر؟ فطر سحري ؟

انتشى إلياهو وضحك ضحكاتٍ متقطعة قائلا : - هاها إكرامًا لصديقكَ مستر سام تناولها من يدي ولا تردّها ستكون أفضل أنت حللت ضيفًا كريمًا مار زيدان.

ثم انفجر في ضحكٍ كالسعال.

أَسَرَتْنِي كلماتٌ بلوحة على يساري فوق رأس إلياهو، إن أول ما يقر بعقيدتك عند قراءة تلك السطور هو تمكن عقلك اللا واعي منك بأنك قد جئت في الزمان والمكان المناسبين عند من يملك مفاتيح آمالك. تلفَّت فوقي فوقعت بعيني على صورة قديمة لهرتسل، تذكَّرت فأردت أن أحاججه بقولي ساخرا :- ألم تقم الصهيونية على مبدأ تخليص أوروبا من اليهود؟ ألم يقل زعيمها هرتسل بأنَّ المعادين للسامية سيكونون أفضل الأصدقاء يوما ما؟ ألم يصف صديقه الكتابَ المقدَّس بالطفولية وفلسفته بالمقززة؟ بل هل كان مؤسسو الصهيونية مؤمنينِ باليهودية بالأساس؟ وإن لم يكونوا كذلك فمن يكون إذًا اليهودي؟ ومن يبقى إذًا الإسرائيلي؟ ومن يرحل إذًا الصهيوني؟

لكنَّ سام برق لي بغيرراحة، فتنهدتُ بعمق وزفرتُ نفسًا حفيفًا انطفأت له الشمعة الوسطى العالية بالمينوراه أمامي. مددتُ يدي، فزحزحتها قليلًا جهة الجنوب شرق، وكنت سكرانا فقصدت إحراجه حين قلت:

- أظن أنه هكذا يكون وضعها المناسب.

أبدى إلياهو امتعاضًا لافتًا لفعلتي، فأسرع بالرد قائلا :

- لكني أراها بالمنتصف أفضل.

مستنكرًا طلبه قلتُ غامزًا :- قد يقول قائل إنَّ اتخاذ موسى لعادة الختان المصرية وتوصية قومه بها دليلٌ قاطعٌ على أنه استقي التعاليم التي بشَّر بها قومه من الديانة المصرية القديمة وآخر قد يذهب أبعد من ذلك بأن يقول إنَّ إخناتون نفسه قد تأثر بالتوحيد الموسوي فيما بعد خروجكم من أرض جوش.

عبس إلياهو وضمّ حاجبيه في ضجر، وتنكّر لي وهو يقول :- بل ترمز إلى أيام الأسبوع التي خلق فيها الخلق ثلاثة من هنا وثلاثة من هنا والسبت في المنتصف كما كانت سيد زيدان.

ارتدَّ بصري إليه، فسارعت بالتعقيب قائلا : - غير أن ذلك يناقض الترتيب الزمني للخلق التوراتي في سفر التكوين.

غمس إلياهو قضمة من خبزٍ في الرماد، ثم تناولها وهو يقول:- لا ضيْر يا سيدي أن استمداد المينوراه من الشمس أي من الإله المصري تفضّل بتناول طعامك.

لكني كنت أتحسّس نجمةً بارزةً فوق الشمعدان متسائلا بالقول :- أتفهمُ كم أثّرت التجربة المؤلمة بأرض جُوش في جزر المجتمعات اليهودية لكنَّ علم أنساب الحمض النووي لم يثبت يهود إسرائيل لآل كوهين من سبط هارون وهذا ينسف قيام الدولة على أساس عرقي .

بدأ جسمي يتململ وأنا مصمم على التساؤل بقولي:- ألا يبدو هذا تضليلًا لحقائق العلم الحديث؟ إذ ثبت بأن العرب واليهود يتشاركون في ذات المجموعة فهي إذ وجدت لدى هارون فإنها توجد عند إبراهيم وإبراهيم هو جدٌ مشترك للعرب عبر إسماعيل من زوجته المصرية .

تناولت نفسي لبرهة، وسحبت سيجارة أشعلتها بقلق فسعلت وأكملت قائلا :

- وربما اجتمعنا أنا وأنت على نفس السلف المشترك.

زفرتُ نفسًا وتابعتُ وأنا أحسُ قلبي يجدّف بعيدًا حين قلت :- ولولا أنَّ إسرائيل قامت على أساسي العرق والدين فإن تلاشى العرق الواحد بقي الدين وإذا استثناياه باعتبار أغلبية الإسرائيليين ليسوا مؤمنين فماذا يبقى لدينا؟

دبّ المخدر في شراييني، وبدأ حِسّي يتراجع، لكني استمررتُ بجديّةٍ في ازدراد الأسئلة قائلا :- والسؤال على أي أساس اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم وإقامة دولتيْن يهوديةٌ وعربية؟ وقد لاقى قرار تصدير اليهود الأوروبيينَ واستيطانهم في إسرائيل كثيرًا من المعارضين وحجتهم الرئيسة أنَّ الأشكيناز ليسوا أحفادًا حقيقيين لأسباط بني إسرائيل الاثني عشر ولا يجوزاعتبار انتقالهم للاستيطان في أرض فلسطين شرعيًا.

استلقى إلياهو بظهره البارزة فقراته إلى الوراء، ثم رفع قدمًا دبيبة عن الأرض وقوّس ركبته أمامنا وهو يتأوه. ركضت في حديثي قائلا : - وهنا يتجلى وجه آخر وجه على نحوٍ مغاير لا علاقة حقيقية له باليهودية بل هو امتداد للسلطة الاستعمارية بالمنطقة.

صمت إلياهو طويلًا دون أن يقاطعني بينما عيناه لم تنفكا ترمشا، فرأيته يُحلِّق بكرة عينه إلى الأعلى والأسفل بسرعة على نحو مضطرب، ثم رأيتهما تتسمّران في الأرض. وتعمدتُ الاسترسال هذيانًا أقول:- ومن شجرة الحياة إلى نجمة داوود يبدو أنكم تميلون طيلة الوقت إلى تهويد التراث الإنساني في حين أن موسى تأثر بالتعاليم من كهنة آمون المصريين كما قلت سيدي.

رأيته متضعضعًا منفعلاً غير مرتاح مستقيمًا ومشدودًا، وكأنما اكتشف ما عليه قوله وهو يحتفّ لحيته الشيباء قال:

- صحيح أن موسى عندما تعلَّم تلك الحكمة ابتداءً من كهنة آمون إلا أن ذلك من قبيل أموالنا رُدَّت إلينا نظرًا لأنهم تناولوها أصلا عن إفرايم.

تحشرج صوت سام لمَّا تعلق الطعام في حنجرته، فشهق واجترع شرفة نبيذ. مسح بالمنشفة ما تساقط من كأسه على سرواله بينما يقول:- تبًا للعرب ألم تحدثني ذات يوم بأنك تؤمن بأنَّ الإله قد أنفذ إلى اليهود بوعده بتدمير الأمم ليُبقي على إسرائيل في العلا فجمع شملهم من الشتات وفتح لهم من الكنوز؟

- لكن وإن كان ذلك تمَّ فما احتاجوا لمخلصٍ إذًا وما احتاجوا لاستنساخ المخلص اليهودي عبر الأزمنة المتعاقبة.

قلتها متعجبا بصوتٍ متململٍ مُصنّطَك. ثم عدتُ ببصري إلى إلياهو مستغربًا إذ أقول : - لمَّا كان عيسى بن مريم يشيّد مملكة الأخلاق الفاضلة فما كان ذلك هو المسيح الذي صوّرتموه لأنفسكم لأنه لم يؤت سعة من المال ولم ينتقم من أمم الأرض وها قد تبدى لكم مشيحًا ضخمًا متشعبًا في الآفاق كالأخطبوط يدعي إسرائيل .

شرعت في انتقاء الطعام بينما أتابع بجسد مسترخٍ ولسان جارٍ قائلا :- والعجيب أنكم معشر اليهود تتناسخون جيلًا بعد جيل كما تناسخ تسيفي من الأصفهاني وإذ أن الأصفهاني تصوّر أنه يحكم فلسطين فلم يخطئ وصار مُلكًا لكم ابتداءً من القدس.

خبط إلياهو على كتفي مرات وهمسني بصوت متقنّعٍ بالنصح قائلا : - أخبركَ ألّا مفر من السلام الذي يكفل الرخاء فما عاد ممكنا تغيير الأمر الواقع عليكم في غفلة ساذجة منكم ولكنَّما يلجون كهفَ الكنوز المرصَّع بالمِلح أولئك الملتحفون بالسلام الدافئ مع أبناء عمومتهم من أي بابٍ شاءوا دون أي شوائب تعتري العلاقة للأبد وإن كان ولا بد منه فمؤكد أنَّه سيتاح للصفوة منكم أن يرتعوا طويلًا فوق بنك الذهب المتصل بالسماء وإن لم يظهر كذلك فلا يهم طالما تزحفون إلينا طلبًا الوسيلة ومرامكم الوصول إلى كهف الملح كما أنت تروم سيدي .

باب هَاكِسِّف

أنا ابن الإله الذي يرعاني في كل حين كان يسير معي في الظلمة الموحشة يُضيء لي القمر إذا ما كنتُ في قفر موحل في السواد، يربت على قلبي في وقت الجزع، ويمسح دمعي في أوقات الألم. أنا أشعر به في الليالي الكاحلة يصاحبني في الأوقات الصاخبة وأسمعه فوق الربوة الصمَّاء حينما ضللتُ طريقي وسط الظلام المخضب بالسواد المخيف مع الخيط الأشد قتامة قبل بزوغ الفجر تعطلت قدماي أسفل عمود نور وحيد في منتصف طريق زراعي معتم عادةً لا أخشى السير في الشوارع المظلمة لكن الرعب المتساقط على جبيني قد قيَّد أطرافي فتصلبت مع نزول الصقيع المفاجئ على جسدي المغطى بقميصٍ صيفي خفيف مرت نصف ساعة كاملة دون أن تدب أي مركبة عابرة الأمل في صدري للعودة إلى حيث إقامتي، على جانبي الطريق قضم عرير صرصور الحقل أذني فتقازفني الرعب وتلاطمني الفزع بيْد ألَّا شيء هنا غيري أنا وصرصور الليل والقمر المضيء وعمود النور الوحيد في الطريق على بعد خمسة كيلومترات إلى حيث وسط المدينة ما زال الوقت يمضي دون أن يتذكرني أحد أو يُقْبل أحد لنجدتي من خوفي ومن يأسي بدأ اليأس ينسلُّ من رأسي رويدًا رويدًا حتى أقعدني على قارعة الطريق فجعلت أردِّد دعاء يونس في بطن الحوت وما إن انتهيت حتى تجلَّى من خلفي شاب مغربي يمتطي دراجة بخارية ثم أمرني بلا مقدمات قائلًا:

- اركب.

سبقتني قدمي متسلقةً إلى الخلف منه، وطار بي حيث أنزلني أمام إقامتي، ثم خضخض يدي في سلام حار، ورحل في هدوء.

***

أعادنا سائق الأجرة المغربي إلى الفندق، تمامًا عند منتصف الليل، بعد سهرةِ علمٍ لا أعلمه في بيت الساحر اليهودي. كان إلياهو رجلًا خمري الوجه ذا شحوب. إن هيئته المُبجلَة قد أضفت عليه صبغة رهبانية لكن غامضة ومريبة نوعًا ما، أصابتني بزلزلة غريبة. كان سام مرهقا فصعد إلى غرفته، بينما أنا ترددت في الصعود، وأخبرته بأنني بحاجة إلى هواءٍ عليل. أمرت السائق بالطيران، ظل صامتًا حتى سألني قائلا :

- إلى أين أنت ذاهب يا مصري؟

***

- إنهم كاذبون يا سيد زيدان لا يمكنك تصديق أي شيء الحقيقةُ مغلَّفةٌ بغشاءٍ أسود سميك رائحته منتنة ومحتواه كسم ثعبان زعاف ولا يمكن لكم أن تنجوا عرفتم الحقيقة أم لم تعرفوا لن تنجو يا عربي لأنكم تخسرون كل شيء تعيشون كالبهائم وتموتون كالحمير تتناسلون بلا انقطاع وتتوارثون الجهل والخيبات وتعملون كالعبيد في كدٍّ وإخلاص إنهم يعدُّونكم كأبناء غير شرعيين للشيطان ولقد شاء القدير أن يعطي الملك له بعضا من الوقت وهم له طائعون يا حبيبي هه لوسيفر أم شدَّاي؟ تبدأ المعركة عمَّا قريب حتى تسود الحروب العالم وينتشر الفقر والمرض والجوع والمهدي إلى صراطه المستقيم منتصرٌ يسجد له الجميع بدون استثناء.

قالها الحبرشبتاي بعد ربع ساعة من الصمت صائد الأرواح منذ أن فتح لي بابه على مصراعيه. ثم دعاني للتفضل فجلست على الأرض متخذا جانبًا إلى جوار الحائط. كان الكوخ باليًا وشحيحًا إلا من بعض أمتعة بسيطة، ومفارش أرضية، وأثاثٍ وضيع. أوقد الحكيم حطبًا من خشب الزيتون، من أجل التدفئة، ثم جعل يسخِّن برّادًا من شاي فوق الحطب المتَّقد. كانت الأمطار تتساقط بغزارة فوق السقف المصمم من سعف النخيل المهترئ. تسللت عدة قطرات ثقيلة إلى رأس الحبر، فرأيته يخلع قلنسوته، بينما أخذ يمسح بها على لحيته الكثَّة هائلة المشيب إلا قليلاً من شعرات مخضّبةٍ ومستورةٍ بالحناء. وتمتم قائلا :- مباركات مباركات رب الغيث بكل مكان فليبارك لنا إنه واحدٌ أحد ربُ كل شيء ومليكه محرّكُ السحاب بُوركَت أسماؤك اهيا يهوه ألوهيم شدّاي آدوناي ذوالملكوت بكل شفراتك التي تحب أناديك إلهًا واحدًا دائمًا أبدًا وبسر اسمك الأعظم اجعلني كخاتم على قلبك كخاتم على ساعدك لأن المحبة قوية كالموت والغيرة قاسية كالهاوية لهيبها لظى الرب ليس كمثلك شيء ولا شبيه لك ولست بجسم وأنت نور من نور من نور وأنت تسمع وترى وأنت تغضب وترحم آمين.

منذ أن وقع بصري عليه، لم ينظر لي مطلقًا، لكنه أكمل حديثه قائلًا:- إنهم يحرقون غصن الزيتون الأخيرويسيرون بحماس طبقًا لما وُضع لهم كما ارتأى الرعيل الأول لا يحيدون عن الدرب مهما كانت الظروف المستجدة بيدهم كل شيء ولكن إلى حين الربانيون الحالمون عبر عقود بصهيون قد عادوا إليه وملكوا الوعد المقدس كما شاء الرب لهم حتى حين.

فار البرَّاد فاستكمل الحديث، بينما يصب لنا الشاي ويقول : - أرى عينك تتعجب من تقشفي تبدو مثلهم أن تقول بائسٌ ضلَّ الطريق لكني بعد أن وضعت الحقيقة بين حاجبيَّ قررتُ أن أسلك درب الآباء الأسينيين لأنك لست بباقٍ إلى الأبد ولا الثروة بباقية ولا السلطة ولا أرواح أعدائك وإنما تبقى العدالة التي ينشدها المضطهدون حول العالم.

تتابع صمتي الغارق في التفكير حتى تساءلت بتشتتٍ حزين قائلا :- لكني عندما أسمع هذا الكلام ازداد شوقًا إلى الحكمة المليئة بالأسرار فقد رأيت أن جميع ما يكتبه الناس هو عقيم وبلا جدوى فأردت سر الأسرار منطلقًا من فنون السيادة على الكون بمعرفة أسراره.

ظل الحكيم صامتًا لا ينبس ببنت شفة، بينما استمر متجافيًا عن النظر إليَّ، فيما أشعرني ذلك بأنه يهيم في عالمه الخاص الذي لا يرغب بالسماح لأحد أن يخترقه أو يزيح ستاره. ثم عاد من شتات الصمت وهو يبتهل في تضرع قائلا :- إلى متى نبقى في هذه الحياة؟ الأيام قليلة والدائن مستعجل والمنادي ينادي بصوتٍ عالٍ باب المغفرة مفتوح يا الله ضع يدك عليهم لأنهم أفسدوا قانونك القانون الأعلى.

نهض وكأنما أن يلهيني حين ظل يرتب أوراق بحثٍ غير مبالٍ بما في صدري من تساؤلات محيّرة، بينما يقول بصوتٍ مرتبك غير منظم:

- إذا أنا كشفت السر مشكلة والمشكلة الأكبر إذا لم أكشفه يا الله دبّرني.

ثم بَقْبَقَ وهو يتَحسّى شربةَ ماءٍ من جرّة فخّار تناولها حتى قال:- افهمني يا مصري لقد كتبتُ تجاربي في هذا الكتاب وبهذا الطريق المشفَّرة أخفيت جميع أسراره وأخشى أن يسقط في يد الأشرار بعد أن أرقد مع آبائي وكم سيكون ندمي عظيمًا حينئذ فلن أتحمل تبعات هذا في الملكوت.

عاد كاتب الحبر من الخارج، وكان غلام ابنته الوحيدة فأخذ شبتاي يُملي عليه ويقول :- يا بني لا تنس شريعتي بل ليحفظ قلبك وصاياي فإنها تزيدك طول أيام وسني حياة وسلامة لا تدع الرحمة والحق يتركانك تقلَّدهما على عنقك اكتبهما على لوح قلبك.

اجترعت زجاجة براندي صغيرة كالمشط. انتشيتُ في شعورٍ بالعدم، ورحت أمسك برأسي كأنما أحوم في فلك دوَّامة تدور في هرولة لا تنقطع، ومسترسلًا باستفهامٍ لعين قلت :

- إن كانت أسرارك التي تكتبها تؤدي إلى السلام فلماذا تتعمد إخفاءها وتكتفي بغطاء الحكمة الملوث؟ لماذا تتهرب وتغض الطرف عني؟ أجبني لما؟

قطع شبتاي حديثي في اشتباكٍ مستتر، فأحدث صدمةً بداخلي إذ قال :

- أنتَ مضطرب يا رجل ما زالت تنقصكَ الفطنة الكافية.

ثارت ثائرتي من جديد، فاحتدت في وجهه قائلا :

- أنت مخادعٌ بمئة وجه ولا يمكنك خداعي لأنني قد عرفت الطريق التي تفضل ألَّا يعرفها غيرك أنت دجَّالٌ يبيع الوهم ويسترزق عليه.

ابتهل الغلام مردِّدًا بقوله :- الظلام حولنا يعيقنا أن نتصل بسيدنا أوه ارحمنا يا ربنا نحن ضعفاء وخائفون بدون معرفة لا تتركنا في الظلام بلا معرفة.

أخذتُ أتضاحك كبرا بهستيريا وأقول :- في الظلام؟ أين يقول غلامك؟ لا شيء هناك أيها الصبي لا شيء يستمع إلى رثائك أنت تتأمل في لا مبالاتك الخاصة هه.

مضى مَلِيٌّ من الليل البهيم، فصدح الربي الحكيم رافعًا يده إلى السماء وهو يدعو بيقين قائلا :

- ربنا ارحمنا واغفر لنا وتجاوز عن إساءاتنا أنت هنا أنت معنا هنا.

صحت به مستهزئًا أقول : - حياتي كلها بحثٌ بلا معنى لم تكن بدون ألم لكني أريد أن قهر الخوف بداخلي وألا أدع له مجالًا لاختراق عقلي.

ترجاني الحكيم لأهدأ، فسخرت منه. ثم عقّب بلُبِّ أريب حصيف، وصوت كالخريف قائلا : - أعرفُ أنك تتساءل عن الإله وأنا أجيبك بأنَّ الله هو كل شيء ومجموعُ كل شيء لا حدود له وهو المعروف بأفعاله وصفاته وهو الرحيم والباطش وهو النافع والضَّار وهو يعاقب ويثيب وهو الميزان في كل شيء وهو المنزّه عن الأضداد والأنداد كلها وهو النور المطلق الذي لا تدركه الأبصار وإنَّ أفضل ما تتعلمه أن تعرف بأنَّ الاتصال بين الله والعالم المخلوق ليس اتصالاً مباشرًا وإنَّما هو انعكاس لنوره كما تعكس المرآة النور إذا كان الله لا يحده مكان ولا زمان فكيف يخلق عالمًا محدود المكان والزمان؟ إذا كان الله لا حدود له فكيف أن يعرفه الإنسان ويستوعبه عقله؟ أتظن أنني لا أستقرئ ما جاء بك إلى هنا؟ لا ضير أن تخطئ واعلم بأنَّ الرب ينظر إلى مثقال ذرة من إيمان قبل جَرّةٍ من صلاةٍ خَرِبة ولبئس الهيكل الخَرِب.

ربما كنت أحلم رغم أن الواقع لا يشي بذلك. ما زالت الآمال تتضارب في صدري، لكن الأوهام تزيدني عنفًا وبغضًا. انقطعت العاصفة فتوقف المطر، وانقشعت سحابة غمام كشفت عن بدر ذي وجهٍ ضخم منير، من شقٍ في السقف المتهالك رأيته كاملًا، وتسرب نوره إلى داخل الكوخ المستضاء بلهيب حطب برتقالي، حتى تمازج السرسوب الأبيض اللامع مع خفوت إضاءة الكوخ. كفكف الحبر رماد الحطب المتبقي بسعف نخيل بالٍ، ثم ردمه بحفنة من الرمل والحصى. تبدَّل الضوء نورًا، وقد غزا وهج القمر أركان الكوخ. أصابتني دفقةٌ من لا إدراك، في حين تبدّى لي الحكيم وغلامه كما هالاتين رماديتين أو كائنين هلاميين غير واضحي المعالم، وكالظل سمعته يقول بصوتٍ هادرٍ:

- لكيلا يصل العالم إلا من خلال أسراره وكم من الأسرار ليست منزلة على الملائكة المقربين.

مدّ الغلام يده لي مقدِّمًا خبزًا باردًا لأتناوله. تفصَّد العرق من جبيني بشدة، بينما امتنعت عن تناوله ملوّحًا برأسي بالرفض. ارتعش جسدي في انتفاضة وشعور بالبرودة. تناولتُ سترتي حتى التحفت بها دون جزءٍ بائسٍ من وجهي. اقتربت غمامة ثقيلة، فحجبت ضوء القمر، واختفى ظل الحبر، لكني سمعته يقول :- وما أردت غير تنبيه الأغيار حتى لا يقعوا في الفخاخ التي ينصبها لهم إلياهو ليلقوهم في الحجب بصورة لا يستطيع أن يراها أحد إلا من تكون المبادئ القبَّالية جرت في عروقه وها أنا أنبذ السحر ويدي ترتجف وتأخذني القشعريرة من مجرد تذكُّر تلك المشاهد التي لا تتطهر إلَّا بإظهار السر.

انقطع صوت الحكيم، واستمر الغلام يتهدَّج بينما يبتهل من كتاب قائلا :- وعلى اليهودي أن ينتظر في صبر وأناة حتى يأتي المشيح المخلص فيقود شعبه إلى صهيون وذلك في نهاية التاريخ ومن يحاول أن يستوطن بنفسه فقد سقط في رذيلة التعجيل بالنهاية.

***

ساد الظلام على نحوٍ مخيف في حين انسدلت شبورة بكثافة من شقوق الجدار فتكتَّلت أمام ناظري، ثم خطفتني بعيدًا بعيدًا إلى حيث تداهمني الذكريات فتعيدني حنينا إلى الماضي لمَّا كنت غلامًا غِرًّا لم تعرُكه التّجارب يتعثر حياءً وخجلًا في ظله يتلعثم حينما يتحدث ويكاد لا يقوى على مواجهة الكثير من المواقف يتوارى عن الأنظار هروبًا إلى خيال يسرح به في تأملات وأحلام يقظة ثم تسبح به في عوالم مبهجة وسارة ثم تعرج به الأيام إلى حيث نما الغلام فشارف على سن البلوغ وشرع في التمرد على جُفوله ونضا عنه ما كان يعتريه من قيود هذه الحالة. كنت مضطرًا للعمل في تلك المرحلة المتقدمة من العمر، والتي لم أنعم خلالها بطفولة حانية هادئة. تدهور بنا الحال كثيرًا بعدما تمكَّن تاجر يهودي مصري من إقناع الحكومة باستثمار مربح، وقد أشهر للتو إسلامه مع أسرته، وهو تاجر أنتيكات وصاحب أملاك يدعى إبرهام عناني قبل أن يغيره لاحقا إلى إبراهيم محمد. كان إبراهام هذا من أسرة يهودية عريقة وثرية وكان له من البنات سبع وقد قرر عدم الهجرة. تسبب التاجر في تهجير أسرتي قسريًا من بنايتنا القديمة في حارة اليهود بالجمالية مطلع الستينيات زعما بأنَّها آيلة للسقوط، وأقام مبنى حديث على أنقاضها، ولم يدفع لنا مليمًا واحدًا كتعويض مستحق عما لحق بنا من ضرر. وكنت أتمِّم العاشرة من عمري ليلة أن عاد أبي وليس معه الشموع التي اتفقنا علينا، كان حزين الصوت مهموما يجرُّ أقدامه ويخبرنا أنَّه لم ينجح في الحصول من الحكومة على سكنٍ بديل.

كان أبي في الثلاثين من عمره ولم يكن متعلما، لكنَّه احترف مهنة صناعة الأحذية، وكان يعمل في ورشة خاصة لحساب محلات عناني. كان عاملا ماهرا ومتقنا أراد أن يستقل بنفسه فادَّخر حتى تحوَّش على رأسمال اشترى به ماكينة لخياطة الجلود، واستأجر محلا لصالحه، وترك العمل معه قبل أن يضطر لبيع الماكينة والعودة إلى الورشة. كان أبي سليم البنية عزيزا قويا ذا حضور، ولأول مرة أراه منكسرا بهذه الصورة. وبعد فترة عثرنا على منزل للإيجارعلى بعد خطواتٍ من بيتنا القديم لكنه بمبلغ شاق، فتحمل أبي مسئولية نفقات الأسرة وحمَّلني الإيجار. دفعني للعمل في ورشةٍ لصيانة السيارات، وارتأى

أن صبيَّه البكر عليه الاستعداد مبكرا لتحمل المسئولية إلى جانبه. كانت أمي ربة منزل ذات حكمة وحنان وتدعى روحية، لم تكن قادرةً على النقاش مع والدي بشأن عملي في سنٍ صغيرة، لكنها اقتنعت مع الوقت بالحاجة لتقبُّل الوضع الجديد والحاجة لأن أتحمل نفقاتي المدرسية خصيصًا مع إصرارها على أن أستمر بالدراسة، وهي على وشك وضع مولودٍ جديد بينما كان أخي الصغير أشرف يستعد لأول يوم له في المدرسة .

لكنَّ الأيام الثقال مرَّت وصرت في مرحلة المراهقة، وانغمستُ في حال من السعي لإثبات الذات. أضحيت فتًى يافعًا وسيمًا، ومحطًّا للأنظار، يتحدث عنه مجتمعه الصغير في الجامعة. لكن هذا الشاب لم يبق بمنأى عن أي مشاعر تزين له النرجسية، وتُحبّب إليه الأنانية، ما لم يعْلمه حينها أن مثل تلك الأشياء ضارة تُسقِط عن صاحبها الاعتبار، وتقوده من حيث لا يدري إلى مهالك الغرور والإعجاب الزائف بالنفس، لكن ذاك المجتمع الجامعي الصغير لم يمنح فرصةً لي كي أُبقي على شيءٍ من براءة الصبا. محيطي إلى الاعتزاز بنفسي أكثر واستجداء مزيدٍ من الإصرار على التحدي والشغف الطَمُوح. وفي مرحلة لاحقة من الشباب بالسنة الأخيرة، وقبيل التخرج في كلية الآثار جامعة القاهرة، بدأتُ أطَّلع على سهام مسمومة من حفنة سيئة الصيت، إلى حد أن تكسَّرت النصال على النصال، فبدا لي أنه لا مفر من مواجهة السهام بصدرٍ عارٍ. لم تكن الحياة تعني لي الكثير في بادئ الأمر، لكني اكتشفتُ لاحقًا أنه لا مفر من سنِّ الأسلحة والتجهّز للقتال، حيث الصراع البشري على المستقبل لن يمنحني مزيدًا من الوقت للتفكّر في فلسفة الحياة.

ذات نهار كنتُ أجلس متواريًا خلف سيارة أستذكر مراجعاتي النهائية قبيل الدخول إلى لجنة الامتحان، تصادف وقوف صديق لي مع آخر من عائلة ثرية، ويتكئان على الجانب الآخر، ولم يتمكنا من ملاحظتي بينما تسنى لي أن أقتنص السمع لحوارٍ دار بينهما :

- من الواضح أنك راجَعت جيدا تبدو واثقًا من حالك

- هه أيُ امتحانٍ ذاك؟ أنا ضامنٌ النجاح مئة المئة انْظُر ماذا أحضرتُ معي؟

- أبويا ما هذا؟ يخرب بيتك ستوردنا المصائب هل أحدٌ يرانا؟

- صه لا تكون جبانًا لا أحد يجترأ أن يكلمكَ وأنتَ معي.

- هذا الكلام الذي يعدل المزاج تعرف أني لا أشربُ سوى معكَ أبي لاحظني أخر مرة وأنا عائدٌ لكن مرَّت أخبرني من أين لكَ هذا؟

- لا لا تماسك ولا تكون خِرعًا كيْلا يلاحظ أحدٌ شيئًا علينا أنا وجدتها في مكتب أبي فأخذتها من ورائه .

- يا دين النبي يبدو عليه رجلا صاحب مزاج عالٍ .

- طبعًا يا إكسلانس حتى أن أمي في كل مرة تضبطه مع امرأة شَكْل إشّي مرة فلاحة ومرة بنت ذوات.

- أظنهن يتمنين أباكَ الباشا أكبرُ تاجر أقمشة في وسط البلد هذا بخلاف الأطيان والعقارات التي يمتلكها خُذ لم أعد أرى أمامي شهِّل حان أوانُ دخول اللجنة.

- أتطير الدنيا ؟ أخبرني هل تملأ يدك من الواد ممدوح ذاك ؟

- لا تحمل همًا لقد أكدت عليه.

- أنا أحمل همّك أنت إنما أنا أعرف كيف أقضي أموري لكنكَ لم تجد غير ذاك المعدوم يغششنا ؟

- ممدوح أنجب زميلٌ في الدفعة.

- إنما عيل كحيان ويرى نفسه هل يعتقد أنَّ بإمكانه أن يصير معيدًا ؟

- ولمَ لا يا برنس؟ الثورة أزالت كل الفروق بين الناس وبات بإمكان الفقير أن يعيش كريمًا.

- إنما ذاك الرخيص من أسرة وضيعة إنه مذرٍ ومثيرٌ للشفقة.

- ربما لأنه يشقى بعد الجامعة؟

ثم هرعا نحو بوابة الجامعة على عجل.

وثبتُ من مكاني، وأنا أشعر بثقل الضغينة، وقد عزمتُ النية على ألَّا أساعد صديقي في الامتحان. لقد أضحت نفسي تعجُّ بيقينٍ تام أنَّه من الحماقة ألَّا أسعى سوى لتقدير ذاتي؛ لأثبت للجميع بأنَّ الفقير المعدوم رثّ الهيئة الذي تزدريه أعينهم سوف يكون له شأنٌ عظيمٌ شاءوا ذلك أم لا.

وبعد التخرج منتصف السبعينيات بدا لي المستقبل ضبابيًا ومخيفًا، وما إن انتهت الحرب حتى عدتُ من الجبهة، حيث تم استدعائي وتكليفي بأعمال كتابية ذات طابع عسكري. وذات ليلة صيفية ساخنة أشارت عليَّ ابنة التاجر اليهودي وزميلة أخي أشرف بالجامعة بالسفر إلى ميناء مدينة بورسعيد؛ بحثًا عن وسيلة للخروج من مصر. كانت سارة فتاة ذكية ذات حُسنٍ فريد، وقد وقع أشرف في غرامها، وفي الوقت الذي قررتُ فيه الانتقام لم يأخذها أخي العاشق بجريرة أبيها؛ رغم علمه بما فعله معنا، لكنه كان لا يزال صغيرا لم يتسن له أن يدرك المعاناة التي لحقت بنا في ذاك الوقت. لقد أنساه الولع بها كل شيء، وأسقطه الوجد في شباكها، وأركعه الشغف تحت قدميها. بالنهاية هجرته وسقطت في شباك عشقي التي ألقيت بها إليها لاختراق قلبها، واستدراجها بمهلٍ، حتى وقعت في غرامي، فيما كنتُ عزمت النية لأن أمكر بها وبأبيها أشد المكر، وبرغم ذلك غفر لها أشرف ما فعلته بحقه، وظل قلبه متعلقًا بها، في الوقت الذي بقيّ معاديًا لي أمد الدهر. حاولتُ التستّر خلف هوية مغايرة؛ دون أن تدرك سارة أن أشرف المفتتن بها هو أخي. لم أكن أعرف كيف سيكون لي أن أنتقم، لكنني اتخذتها وسيلة لغايتي، حتى تمكنتُ من الوصول إلى عدة مقتنيات ووثائق يهودية تخصُّ أسرتها، بالرغم من قلة وعيي بأهميتها أو حتى فيما كان ينبغي أن أستغلها. عملت بنصيحة سارة، ورتَّبت مع صديق جامعة مسيحي هاجر إلى المنصورة مع من هُجِّروا عن بورسعيد إبَّان غزو إسرائيل لسيناء المصرية، لكنه بعث لي في وقت لاحق بخطاب يخبرني فيه بأنَّه قد عاد إلى موطنه المدمَّر تقريبًا، فعزمت على طلب إجازة بدون راتب من الجامعة، حيث كنتُ أعمل محاضِرًا.

ديسمبر1974م، صافرة القطار القادم من القاهرة تعلن وصوله إلى رصيف المحطة الأخيرة، التي كانت تعجُّ بالمتقاطرين العائدين من التهجير؛ تمهيدًا لإعادة الإعمار. كان لقاءً حميميًا مع ذلك لم أعلم أنه كان مقدَّرا لي عهدٌ جديدٌ بعده. استقبلني صديقي مراد نبيل أمام محطة القطار، حيث كان لافتًا أن مظاهر الحياة بعد عام واحد من حرب أكتوبربدأت للتو تعود لتدب في قلب المدينة التي كادت أن تكون وكرًا للأشباح. مضى بي مراد أولًا إلى بيته القريب؛ لترك أمتعتي، لقد قُدِّر له أن ينجو من القصف، مع ذلك فقد جاءت عليه شظايا القذائف فأهلكت جدرانه وأوقعت به دمارًا طفيفًا . كان الخراب يطل برأسه على وجه المدينة، كل ركنٍ فيها لا يكاد يخلو من آثار أنقاض حتى بالحي الإفرنجي. أخبرني مراد أنه بعد الانقلاب سُمح للعرب أن يحلوا بمساكن الفرنجة الراقية ويتملكوها، فاشترى والده دارًا بحارة اليهود بعد أن خروجهم. كنا خارجين إلى الشوارع ولم ينفك يحدِّثني بأن كل شيء بمسقط رأسه قد تبدَّل، حتى الشوارع خلعت عنها وجهها الاستعماري المنصرم وأبدلته بآخر جمهوري، احتفاءً وتبركًا بالثورة المجيدة التي ما أورثت مصر إلا نكستها. وقال بأنَّ اليهود كانوا من أكبر الجاليات ببورسعيد، وقد بُني لهم بالحارة معبدًا تكفَّل بمصاريفه أحد يهود عدن ويدعى مناحم الذي أهداه للجمعية الإسرائيلية، ثم حذا حذوه تاجر يهودي آخر جاء من اليمن ويدعى بنين، وكان يتاجر بادئ الأمرفي الأقمشة الشعبية لكن سرعان ما كوَّن ثروة طائلة، وبات يمتلك محلات للتحف بجوار فندق أكري. ذكر لي بأنَّ بنين هذا أسهم في إنشاء نادي الشبيبة والذي أضحى ملتقى لهم يتجمعون به حيث تدار مسابقات مناقشات في قبو خاص بحثوا خلالها شئون الاستعداد السري لعودتهم إلى صهيون.

اصطحبني إلى أول شارع فلسطين المطل شرقًا على مجرى القناة بحثا عن السجائر، وقد بدر إلى ذهني أنَّه بالرغم من أن فلسطين لم تعد سوى مجرد اسمٍ قائمٍ في ذاكرة العرب وحدهم، ومع أنه أطلعني على اسم الرصيف القديم الذي حمل اسم فرانسوا جوزيف؛ لكن ربما شيئًا كثيرًا لم يتغير، فالشارع الذي كان يحمل في السابق اسمًا لمستوطِن أجنبي بات اليوم يحمل اسمًا لأرضٍ أمست مستوطَنة إسرائيلية بالكامل. وضعت الحرب أوزارها لكن المدينة الجميلة حديثة العمران لم تعد لسابق عهدها بعد، فما إن دخلنا إلى محلات سيمون آرزت لشراء الدخان حتى وجدناها خربةً تقريبًا ومغلقةً أبوابها بسلاسل من حديد. كنا نمضي في شارع فلسطين حين صعدنا شمالًا عند نقطة التقائه بشارع كيتشنر الذي صار اسمه 23 يوليو. وكانت مياه المتوسط تغمره تقريبًا عند افتتاح القناة أمام الملاحة العالمية يوم أن ذهب والده للحفل عند رصيف أوجيني لرؤية الإمبراطورة الفرنسية الفاتنة التي عشقها الخديو إسماعيل. كانت معالم الشارع تبدأ بكازينو بالاس، وعلى مقربة من رصيف ديليسبس رأينا الجرافات تستعد لهدمه. لم يكن مراد مغبطًا بذلك الإحلال الجديد، فعاودته الذكريات القديمة حين قال :- إنهم يسلخون عن المدينة تاريخها بكل ما فيه من سلبيات وإيجابيات متذرعين بما في صدورهم من غضب دفين على عهد السخرة والاستعمار ولا نعلم هل انخلع هذا من النفوس؟ أم نهرول من العبودية البائدة إلى حيث نصطدم بالعبودية الحديثة.

ثم أضاف في فخر قائلا :- لم يمض زمنٌ بعيدٌ عندما حدَّثني والدي بأنَّ هذا الأثر نزل به سعد زغلول في جناح كامل قبل نفيه إلى مالطا وبه نزل حافظ إبراهيم في ذكرى افتتاح أول مدرسة للبنات حيث ألقى قصيدته العصماء الأم مدرسة وبه أحيت كوكب الشرق أم كلثوم حفلا وغيرهم من الشخصيات العالمية لكن ذلك سيبقى خبرًا في الذاكرة فقط.

وجدنا سجائر بكشكٍ صغير إلى جوار الفندق. جذبني مراد فعرجنا إلى شارع الجمهورية الموازي لشارع فلسطين، حتى وصلنا إلى مقهى جيانولا الذي كان مقرًا لعلية القوم من المصريين والأجانب على حدٍ سواء، فيما لم يخلُ يومًا في السابق من المرتادين، وما إن وجدناه فاتحًا شراعيْه للزبائن حتى جعلنا نستريح من عناء المشي. كنا نجلس على طاولة عند ناصية أمام واجهة المحل فيما لم يكن من سوانا يحتسي الشاي هناك، لقد خلا الشارع من المارة تقريبًا، عدا بعض المركبات الحربية التي تعبر أمامنا بين الفينة والأخرى، سكت مراد عن الكلام لبرهة مراد حتى مددت يدي إليه بسيجارة، فتناولها وخرج عن صمته، بينما أشعل له عود كبريت. نفث الدخان في الهواء وقال :- بدأت المدينة بجزيرة تسمى تنيس ولم تزل عامرة حتى جاء إليها نحو أربعين مركبًا من الفرنج فحاصروا أهلها فلما اشتد بهم البأس هربوا إلى ثغر دمياط فاستولى عليها الفرنج ونهبوا ما فيها حتى ألقوا فيها النار واحترقت وتركوها خرابًا من يومها وحتى عادوا لاحتلالها مع افتتاح القناة.

تنهدتُ وعلَّقت على كلامه قائلا :- وقد عادت خرابًا يراودني حنينٌ دافئٌ إلى الماضي كلما نظرت إلى أنقاض المدينة تذكرتُ أطلال منزلنا القديم بحي الجمالية حيث لم تغب تلك المشاهد عن خاطري لحظةً كنت صغيرًا تغمرني مشاعر فيّاضة إلى البيت الذي شهد نعومة أظافري لم يفتني يوم حتى أذهب إليه أجلس أمامه ودمعي يذهب عن وجهي وداعة الطفولة حتى أقام عليه تاجر أنتيكات يهودي فندقًا فاخرًا فتبددت مشاعري البريئة واحتالت شلالًا من غضب فكرّست تفكيري نحو الثأر لكنني أعتقد بأنَّ هذا الشعور الطاغي ليس إلَّا حماقةً وطيشًا.

أخرجت ما بجعبتي من قلادة، وتأملتها بها بلا اكتراث، انتبه مراد إليها، فبرقت عيناه، وصاح بدهشةٍ قائلا:

- يسوعَ ما هذه القلادة؟ أتسمح لي بفحصها؟

فكذبت عليه بغير مبالاة قائلا :

- تبدوعادية وجدتها في القطار.

لم أكد أنتهي حتى باغتني بانتزاعها من يدي، وأخذ ينظر حوله في قلق، كأنما يخشى أن يراه أحد تعجبتُ من ردة فعله، لكنه ألحّ عليَّ لأتركها له. في البداية امتنعتُ ثم حاصرني شعور بعدم جدواها، فتركتها له مقابل أن يُعينني على إيجاد أي فرصة عمل بالميناء، ربما فحَّامًا أو شيَّالًا، لا يهم، فلمَّا علم برغبتي في الرحيل عن مصر، وعدني بإيجاد وسيلة للصعود إلى متن إحدى البواخر التجارية المتجهة إلى أوروبا. سقط علينا الظلام، وتلونت السماء بالغسق المنسدل، فقام مراد لمحاسبة النادل، ثم نهضتُ من مجلسي، وسرنا في طريق العودة إلى منزله المجاور للمعبد اليهودي.

نزل بي إلى الطابق الأرضي، وذهب لإحضار العشاء. كان الجو عاصفًا بشكل مفاجئ، ما جعل النوافذ المرتطمة تصدر صريرًا مفزعا، فأسرعتُ لأوصد الشيش العالي بإحكام. عاد صديقي ومعه صحنٌ من جبن وفول، فافترشنا الجرائد على الطاولة، ثم ارتدَّ مراد على عقبيه لإحضار بعضٍ من الزيتون الأسود. جاء كلب يعتني به مراد إلى الغرفة، فبرك لجانبي في هدوء تام. مضت لحظات طويلة لم يعد مراد خلالها، ثم هبَّت رياح شديدة انسابت بقوة من خلال النافذة الموصدة، فدوَّى صوت رعد انخلع له صدري. استطولت غياب صديقي فنهضت، وجعلت أطوف بأنحاء الغرفة متأملًا أثاثها العتيق، وبينما كنت أجول بين محتويات الغرفة سقطت كرتونة صغيرة من فوق رفٍ عالٍ، فهممتُ برفعها إلى مكانها، ثم وجدتُها تكشف لي عمَّا بداخلها من صندوقٍ كلاسيكي للموسيقى. تناولته بكلتا يديّ فرحًا، وقمتُ في بهجة طفلٍ بتشغيله، فصدح بموسيقى عذبة نقيَّة أخفق لها فؤادي؛ ذلك حينما تذكرتُ تلك اللعبة التي كنت محتفظًا بها في غرفتي لزمن. غمرتني مشاعر جيَّاشة نقلتني لأيام الصبا، عندما كنتُ أذهب كل صباح إلى أطلال بيتنا القديم حتى عثرت على لعبتي المحببة والتي لطالما تعلقتُ بها، حتى جاء يومٌ بينما كنتُ عائدًا إلى المنزل وجدتُها مهشَّمة إربًا. جن جنوني صارخا بهستيريا مبالغ فيها أسأل عمَّن تسبب في ذلك، حتى خرج أشرف من غرفته معتذرًا بلا أدنى مسئولية مبررا بعدم قصده. لم أستطع تمالك أعصابي حين رأيتها ذكرياتي مدغدغة، فرحتُ أطيح بكل شيء حولي كثور هائج، حتى صاحت أمي في ذهول قائلة :

- يا خرابي يا ممدوح كل هذا من لعبة أنت لم تعد صغيرًا.

عندها أمسكتُ بتلابيب أخي، مُعنِّفًا إياه بغلظة بينما أقول :

- بأي حقٍ لكَ تقتحم دولابي؟ وتفتش فيه؟
- هدِّئ أعصابك ياخويا كل ما هنالك أنِّي كنت أبحث عن قميصٍ لديك لألبسه فهل ارتكبت جناية؟
- تريد أخذ ملابسي التي أشقى لشرائها وتذهب فيها لمواعدة بنت الصهيوني.

زجرته أمي بقلق عظيم قائلة :- أشرف انطق يا واد صحيح ما يقوله أخوك؟

- البيه الولهان واقعٌ في غرام المحروسة سارة ونسي ما فعله بنا أبوها والحب أعماه عن المر الذي ذاقه أبوه لأجل أن يكبَّره ويُدخِله الجامعة حتى صار أفنديًّا قد الدنيا لم يكن يعلم بأنَّه سيأتي اليوم الذي اسم النبي حارسه يكون كروديا يجري خلف النساء وليس أي نساء بل وراء فتاة تدين باليهودية.

بغتني أشرف بدفعة قوية في صدري قائلا:- لن أسمح لكَ أن تُسْمِعني مرة أخرى كلامًا عن فتاةٍ مفترض أنها ستصير زوجتي وللمرة الأخيرة يا ممدوح أحذِّرك إيَّاك والتدخل في أموري ثانية.

- الحقي يامَّا إنَّه يقول بأنَّه سيتزوجها أتتزوج مَنْ أبوها رمى بنا في العراء؟
- تعلم أنها لم تعد يهودية واليوم أذهب لمصارحتها بحبي.
- وكم يهودي في الحي صار مسلمًا بالاسم؟ أنت أناني ولا يهمك سوى مصلحتك تريد التنعم بأموال أبيها تظنه ذاك البخيل من يموت على القرش أن يرضى بكَ أنتَ يا كحيان؟

نظرت إلى كفي في غمرة من الماضي، لكن الرعد عاد من جديد وأرعد فرائسي، فإذ بالكلب يستقيم في ذعرٍ، ولم ينفك ينبح بضجيج مبالغ فيه، ثم نهشني من بنطالي وجعل يشدني منه بضراوة أدركت لها أن الكلب يبغي اقتيادي لمكان ما، حتى استوقفني عند سجادة مُتْرَبة فأنحيتها جانبًا، فكشفت لي عن غطاء حديدي مثبت فوق الأرض. رفعته ووجدت سلمًا، فنزلت عليه إلى مخزن أرضي فسيح . كان الظلام دامسًا بالداخل، لكنني اهتديت إلى ثمة شموع على الجدران، أشعلت واحدةً فأضاءت ما حولي، وسرت بداخله حتى تأذَّت أنفي برائحة نتنة لم تتمالك نفسي لها فكدت أن أختنق. مضيت حتى تلمَّست ممرًا طويلا قادني إلى سرداب مُقْذِرًا. فجأة باغتني صراخ عارم وشديد، فسمعت مراد يصيح باحثًا عني. احتدَّت الرائحة فكانت كالبيض الفاسد، فامتلأ صدري بأول أكسيد الكربون الكريه وتناقص الأكسجين بدمي، وسقطت على وجهي. أخذت أشهق بقوة عندما بلَّل مراد أنفي بقطرات ماء. ثم وضع يده على فمي وما إن هدأ روعي حتى تبدد الظلام من حولي. وأقسم عليَّ بأن أهدأ، لكن أفزعته عيني الجاحظة من هول المنظر، فقال :

- اهدأ أرجوك لا داعي للجزع.

فتأتأتُ مُستفسرا بالقول :

- أين نكون بربك؟

أسند مراد ظهره على الحائط لجانبي، ثم قال بهدوء :

- نحن في قبو الجحيم.

انتابني الفزع من جديد، فتلفتُّ وأنا أقول :

- ما هذا الصوت الذي يصرخ في أذني كالرعد؟
- إنَّه إنَّه صراخُ البريء في بوق الحرية.

أجاب مراد بذلك قبل أن يسهب قائلا :- علم الناس بما جرى من قتل غلام على يد اليهود لكن الجرائد الأوروبية حذفت الخبر كان هناك طفلٌ من حي العرب يدعى عبد القدير له ست سنوات كان والده يعمل قبطانًا لمركب قبرصي ظل يبحث عنه دون جدوى وذهبت أمه إلى الشرطة واتهمت اليهود لديها فأرسل الحكمدار قوة فوجدوا جثة مرمية في بئر فاحت رائحة تفسخها فنزلوا إليها وانتشلوها ثم أحضروا طبيبًا لفحص الجثة وكتب في التقرير أن الطفل وقع عندما كان يلعب بجانبه وبعد سنة أُلقي القبض على أصحاب الأرض فأقروا بأنه حضر إليهم في ليلة فقدان الطفل نفرٌ من اليهود معهم كيس ورموه في البئر مدعين أنه سقط خطأ طلب أهل الطفل إعادة التشريح وعند التشريح كان على طرف اليد اليمنى جرح عرضي بجانب ثقب واصل إلى العرق ومنه استنزف الدم وبعد رحيلهم أسرع الأهل إلى الحارة ونبشوا بكل شبر فكانت المفاجأة هنا حيث تمكنوا من اكتشاف عشرات الجثث لأطفالٍ أُعلن عن اختفائهم.

***

في العاشرة مساء كل يوم يتقلب على الفراش. ذات صباح يخبره الطبيب باستحالة البقاء، ويرحل موصيًا إياه ألا يسمح للصبر أن يمضي عنه. قرر ألا ينتظر المعجزة، لكن بات ليلته يتضوَّر حزنًا لا ألمًا. ما كفكف دموعًا أبدًا على الراحلة، إذ كان أشد ما يدمى قريحته الندم على ما لم يدركه. في الساعة الأخيرة، تذكر يوم مولده، وهو يصرخ تكفيرًا عمَّا لم يجنِه. زلةُ موطئ في رحمٍ بائس، انقضى عذابًا في سنينه الأخيرة، وقضت أمه مطلع التسعينيات بورم خبيث في القولون بينما مضت هيكلًا بلا

روح يتلمس طريقًا للنهاية. في مذكرته راح يكتب الثواني الأخيرة بتراصٍ عجيب، وعند منتصف كل ثانية سجّل هذه الكلمات:- هنا تذكرت لم أمض طلبًا للراحة إلا وأخفقت لذا ربما أنا أجسر إنسان بالموت لأنني أظنه حياة أخرى. في رعشة طفيفة ارتجفت يده، وارتمى القلم. اتصل به الطبيب بعد الموت قائلًا:- كيف حالك اليوم؟ لكنه لم يجب. حاول الاتصال به مجددًا عبر شبكة الروح المنقطعة منذ مئة ألف عام، لكنه لم يجب. اضطر للذهاب إلى أسرته للاطمئنان على حاله، فوجد ورقة موضوعة على باب المنزل كتب عليها :- خرجنا إلى السوق بحثًا عن الورود.

عاد الطبيب في صباح اليوم التالي ومعه باقة وردٍ ذابل. بعد عدة طرقات لم يستجب له أحد، فانصرف متأسِّفًا، وظل على تلك الحالة دوام أسبوع كامل لا تنصرم همته ساعيًا في الرد. حتى كانت مرة حينما أدار ظهره مغادرًا انفتح الباب. نظر فلم يجد أحدًا، فدفعه وحسب البيت خاليًا من أهله. وكان صاعدا إلى الطابق العلوي لمَّا وجد ربطة عنق مُخضَّبة بالدم على الدرج، ظن أنها من قيء دم مريضه المفقود فألقى بها أرضًا. ثم بحث لهم عن أي أثر، فما وجد غير مكانٍ مهجورٍ منذ زمن تتخلله حبائل العناكب المتصلة ببعضها، وتتعشش بأسقفه الخفافيش، وكأنما مضى دهرٌ حتى عفا عليه الزمن وتركه خربًا. هنالك في أرضيه المنزل التفت الطبيب إلى عبارة كتبت بمداد الدم تقول :- لم يجيَ هنا أحد منذ مئة عام.

(لندن الرابعة عصرًا السبت السابع من نوفمبر - ٢٠٢٠ م)

استيقظ ممدوح زيدان مسعلا على رنين اتصال عبر الماسنجر. أسرج الأباجورة، والتقط هاتفه ثم قال :- من معي؟ فأجابه يحيى قائلا :

- أنا يا أخي طمئنني ءأنت مريضٌ؟ آسف لكن حولي هدير المحتفلين بفوز بايدن ومعي كارمن هل تسمعني؟

لكن الشبكة كانت سيئة، وانتابت ممدوح نوبة سعال شديدة؛ فانطوى على نفسه وتمتم قائلا :- اللعنة على السعال مواعيده دقيقة كل صباح. ثم استلقى على ظهره، وأخذ عددًا من الشهقات حتى انتفخت شراينه من جهد السعال. في اللحظة التالية فجع من صراخ مليكة بينما كانت نائمة إلى جانبه :

- يا إلهي حبيبي ماذا أصابك؟

أشاحت اللحافَ عنه، فانصعق لمَّا رأى غزارة الدماء التي لطَّخت فراشه. وثب في هلع، وأخذ يسعل بحدة من جديد، لكنه ما إن رفع يده عن فمه حتى وجد مخاطًا مخضبًا بالدم يملأ كفيْه . كبست مليكة على جرسٍ إلى جوارها، فهرع على الفورالحرس الخاص إلى داخل الغرفة، فيما أسرعت بطلب الإسعاف، لكنه استدار، وانتشل الهاتف من يدها، وأغلقه بينما يقول بألم :

- لا داعي للإسعاف انتهى مفعول الدواء سأكون على ما يرام.

-4-

باب هَاتِمَنُوْن

حبسوني بعد استجوابي طوال الليل، اتهموني بالتجسس لصالح السوفييت، ثم لصالح منظمة التحرير الفلسطينية، وعندما لم يجدوا شيئًا اتهموني بالتجسس لصالح المخابرات المصرية. عزلوني لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن أحصل على إطلاق سراحي لعدم وجود أية أدلة تدينني. وكان قد أوجد لي مراد عملا على متن باخرة كحمَّال للبضائع نظيرغرفة وطعام وشراب، حتى رست السفينة في قبرص ميناء لارناكا. كنتُ لا أزال يافعًا وطَموحًا، حلمتُ ذات ليلة أن أمتلك قاربًا صغيرًا، لكنني امتلكت بواخر عوضًا عن ذلك. عند الخط الأخضر تم اعتقالي، حيث لم يجدوا معي أوراقًا ثبوتية. كنتُ في طريقي إلى العنوان الذي دسَّته لي سارة ابنة التاجر اليهودي. وعلى متن الباخرة حاولت إخفاء أي معلومات عني قدر الإمكان، لكنها وعدتني بأنَّ ابن خالتها صاحب العنوان سوف يُسَهِّل لي إجراءات الإقامة. وبعد نجاتي من الاعتقال، ذهبتُ إليه بالضبط، فوجدته فندقًا فاخرًا، وعندما سألتُ عن الاسم المكتوب لدي في الورقة نظرت لي موظفة الاستقبال بريبة، وسألتني أن أنتظر. بعد لحظات نادت عليَّ مستدعيةً أحد العاملين ليصعد بي إلى الغرفة. استقبلني رجل أعمال بحفاوة مبالغ فيها، وتحدث إليَّ بكثير من الود، فيما أخبرني أنَّه متحمس لمساعدتي على إيجاد عملٍ وسكنٍ بالمدينة، لكنِّي ما إن رأيت ذاك الرجل حتى تملَّكني إحساس بأنَّه ليس هو المقصود، مع ذلك دعاني لتناول الغداء بمنزله في اليوم التالي. وبينما كنا نجلس أنا وكوهين على الطاولة هبّت علينا نسائمك لمّا أقبلتِ علينا، فالتقيتُ بكِ لأول مرة مليكة أما زِلتِ تتذكرين ذلك يا عزيزتي؟

أجابته مليكة نعوم بشيء من القلق قائلة :- أجل يا حبيبي أذكر كل شيء لكن هوِّن عليك أنا قلقة بشأنك كنتَ ثملًا للغاية البارحة أخشى أن تكون حالتك تدهورت وقرحة معدتك متأذية بشدة حاولت منعك عن الإفراط بالشرب فنهرتني وجعلتَ تتجرع المزيد من البراندي على متن العوَّامة ولكن بعد خروجنا وعند عبورنا جسر البرج أمرت السائق بالتوقف عند إحدى ضفاف النهر وأخذتَ تستفرغ وتنتحب بتشنُّجٍ وما إن هدأتَ حتى أشعلتَ سيجارًا ثم سِرتَ لجانبي في وهنٍ شديد وأخذتَ تحكي معي كثيرًا حتى أعياك فرط الكلام فعدنا على الفور.

عقَّب ممدوح زيدان بينما يتناول حبَّة دواء قائلا :- في الحقيقة لستُ على أفضل حال المرض يشتد بجسدي كلما استيقظت وصرت أنسى الأحداث القريبة حتى أنني لا أذكر شيئًا مما تقولين.

- ألف لا بأس عليك الطبيب أخبرني بمجيئه هذا المساء.
- لا أعرف ماذا يصير معي؟ كل شيء يزعجني لا أستطيع النوم دونما منوِّم رأسي تؤلمني عقلي مشتت لا أعرف لماذا تراودني الخواطر اللعينة وتتدفق في رأسي لتزيد حياتي تعاسة.
- ممدوح لا عليك أنا بجانبك تحدَّث كما شئت أخبرني.
- لم يعد بقائي ذا معنى الشيء الوحيد الذي يشعرني بالسعادة هو تذكُّر يوم رأيتك فيه كأنما حدث بالأمس.

مسحت مليكة على شعره وهي تقول :- أنا أحبكَ يا ممدوح وأحب تفاصيلك وأحاديثك تملأ فراغي. ثم ضحكت برقة وقالت مُسهبة :- عجبًا من يراك حينها لا يراك اليوم كنت رثَّ الهيئة نحيلًا ووسيمًا رغم ذلك أوه ولا أبالغ حين أقول بأنَّكَ ما زلت كذلك وما إن وقعت عينُك عليَّ لأول مرة حتى أسهمتني بنظرات ساحرة من عينيك الجذابتين.

استمسك ممدوح بخصرها وهي تساعده على الوقوف وقال :- هه ماذا كان بوسعي أن أفعل يا جميلة الجميلات ما زلت عند رأيي بأنَّكِ فاتنةٌ كفنانات هوليوود بل أنتِ أروع منهن وما إن وقعت عيني عليكِ حتى نسيتُ ما جئتُ لأجله.

- مغازلٌ جريء وزائغ العينيْن كذلك أخبرني أنك تبالغ أنت كما أنت ممدوح الذي عرفته منذ زمن بعيد لا تزال دنجوانًا وفاتنًا ولقد قضينا لحظات رائعة في قبرص.
- سحرني ذكاؤكِ وفطنتكِ منقطعة النظيرأعلم أنه من اليسير للمرء أن يضغط على زر الرجوع بالحاسوب لاستعادة ما كان لكن عقلي ليس به هذا الزر الآن لكن مضى العمر سريعًا ولم أعرف مثلكِ في حياتي قاطبة.
- وأنا أكنُّ لك بكل مشاعر الحب والصداقة.

فعلى عكس أسرتها التي انتقلت للعيش في إسرائيل هاجرت مليكة إلى ألمانيا الغربية أواخر الستينيات بناءً على رغبة والدها. بعدها سافرت إلى الولايات المتحدة، وحصلت على دورة مكثفة لمدة ثلاثة أشهر في جمع المعلومات. كانت فتاة بارعة وذكية تم تدريبها على تمالك الأعصاب، واكتسبت قدرة فائقة تمكنها من التحكم بنفسها إذا ما وقعت تحت جهاز كشف الكذب، عن طريق قيامها بعملية تنويم مغناطيسي لنفسها، فتبدو ضربات قلبها اعتيادية. تدربت على ضرورة أن يكون ردها خلال أي استجوابات محتملة ليس بالتلقائي السريع المعبّر عن قوة الذاكرة، وليس بالمتردد المتلجلج، الأهم أن يبدو كما لو كان طبيعيًا وغير مريب. خلال الدورة وبزمنٍ قياسي أبدت مهارة في التحدث بالألمانية بطلاقة لافتة، فعملوا لها محاكاة للحياة والثقافة الألمانية، وكل ما كان مطلوبًا منها أن تقوم به. اجتازت كل الاختبارات الصعبة بشكل فائقٍ، وبعد الانتهاء صارت كما لو أنها عاشت طفولتها في ألمانيا. أظهرت جاهزية تامة للعودة إلى برلين الغربية، وهناك تم استدعائها إلى منزل أحد الشخصيات البارزة. كانت زيارة مقتضبة، فبعد أن قدَّم لها كأسًا من نبيذ دعاها للانصراف على نحوٍ سريعٍ، وأمرها أن تزوره بمكتبه مساءً في اليوم التالي. ذهبت في الموعد المحدد، وفوجئت به يقابلها بوجهٍ آخر صارمٍ، وكان جالسًا منهمكًا في الكثير من الأوراق. ظلت جالسة أمامه لدقائق في صمتٍ دون أن ينظر إليها، ثم رفع سماعة التليفون، وجعل يتحدث بالألمانية بصوتٍ خفيض. استشفت ما يقوله عبر قراءة الشفاة، فوضع كوهين السماعة بلطفٍ بينما ينظر لها بحدة. ابتسمت له وحينئذ أدرك على الفورأنها فهمت ما كان يقوله في التليفون. اندفع ثلاثة رجال من قيادات المخابرات الأمريكية. في تلك الجلسة الفارقة تم إطلاعها للمرة الأولى على المهمة المكلَّفة بها، وخلالها طُلب منها جمع قائمة معلومات دقيقة عن عملاء السوفييت في ألمانيا الغربية، وهو ما قد نجحت في تنفيذه ببراعة، فتمت مكافأتها بأن قلدوها رتبة أعلى، وبقيت هناك تحت المراقبة، تعمل مراسلةً لدى وكالة أنباء عالمية، إلى حين يتم استدعائها مرة أخرى استعدادًا لمهمة أصعب من سابقتها.

***

(يناير – ١٩٧٥ م)

اصطحبتني مليكة إلى منزلها في برلين الغربية، وظلت تغدق عليَّ بسخاء، حتى وقعنا في علاقة غرامية متوارية عن الأنظار، وكنت لا أخرج من البيت ولم أكن أمتلك أي أموال أنفق بها على نفسي، ومع الوقت تظاهرت لي بأنها لم يعد بمقدورها الإنفاق علي أكثر من ذلك، وطلبت أن أصغي إليها بإمعان. دفعتني إلى غرفة النوم، وأظهرت رغبة في الجنس. استمالتني إليها فانجرفت وراءها، ثم أبلغتني بأنَّها ترغب في الإفشاء إليَّ بسرٍ مكنون. صارحتني بأنَّ ولائها الأول والأخير لدولة إسرائيل، فهي تمثل لها الوطن المفقود والحلم القديم، وأنَّ عليها مساعدتها في أي مكان بالعالم. فاجأتها بأنَّني أبدي تعاطفًا خاصًا مع اليهود وأتأسف كثيرًا لما يحدث معهم. كنت ذكيا ومخادعا اعتقدت بوجود كاميرات بالغرفة، وغمرتني غبطة شديدة حينما سمعت منها أنَّها مستعدة لمساعدتي على العمل بمقابل خيالي خدمة لإسرائيل. بعد أيام اتصل بي رجل وأبلغني بأنَّ جاد كوهين على استعداد لمقابلتي بشركته السياحية في قبرص، فعدت إليها. في البداية راح يثرثر في حديثٍ لا طائل منه عن كفاحه والظلم الذي تعرض له أبواه، وشركات دانيال التابعة له، والرائدة في أعمال السياحة والفندقة، ثم قفز بالحديث إلى الظلم الذي تعرَّض له أبواه. أردت اختصار الوقت عليه فأخبرته بأنِّني على استعداد تام للعمل معه.

اندهش كوهين من تلقائيتي، وأوجس في نفسه خيفةً أن أكون مدسوسًا عليه. عمد إلى تغيير مسار الكلام حتى انتهت المقابلة. بقيتَ بعدها شهرًا كاملًا تحت المراقبة، إلى أن سُنحت الفرصة ليستدعيني مرة أخرى على طاولة فطور. وبالمطعم ألقى أمامي جواز سفر صادرًا من تل أبيب بهويةِ فلسطيني من عرب ٤٨ مولود في حيفا ومقيم في قبرص ويعمل بالشركة القبرصية لأعمال النقل البحري. وأبلغني أن قد تمت الموافقة على سفري العاجل إلى تل أبيب في زيارة عمل كمندوب للوكيل الملاحي القبرصي. انتبه كوهين إلى تغيُّر ملامحي المفاجئ، فحدَّثني بلهجة صارمة بأنَّه غير مسموح لي منذ اللحظة التفكير في أي أمر يُطلب مني، وفي نفس الوقت أغروني بحقيبة ممتلئة بالدولارات ما إن رأيتَها حتى جفَّ حلقي، وعندما استفسرت منه عن مليكة أخبرني بأنَّها يجب أن تبقى في برلين لاحتياجهم لها .

وبعد نحو أسبوع مع الصُّبحة كنتَ على متن طائرة قبرصية متجهة إلى مطار بن غوريون تحت أعين عملاء كوهين، وبعد خروجي من صالة الوصول تلقَّفني أحد الأشخاص، واقتادني إلى حيث كانت سيارة جيب سوداء بانتظاري. وفي طريق الخروج من القدس انطلقت السيارة بسرعة خاطفة في يومٍ ربيعي ماطر وبديع. على مدار أكثر من نصف ساعة لم يقطع الصمت المريع سوى بضع نظرات من السائق في المرآة من خلف نظارة قاتمة السواد. حاولت التهرب من نظراته متجولًا ببصري في شوارع ما صارت تعرف بإسرائيل، وكنت أحاذر أن تبوح نظراتي بأن كل ما حولي ليس سوى أمر تقع عيني عليه لأول مرة. التقطت نظرةً إلى يافطة عابرة على الطريق السريع بين حيفا وتل أبيب، حيث هدَّأ السائق فجأةً من السرعة، ثم انحرف إلى محطة لتموين السيارات بالبنزين. انتظرت لحظات ثم سألني النزول، وقادني إلى مطعم صغير مرفق بالمحطة، وقد طابت لكَ فكرة أن كوهين يستدرجني لا كي أتعاون معه أو أسدي له معروفًا بل كي يساعدني على تحقيق ما أصبو إليه .

مطعمٌ متواضع تملكه أسرة عربية بسيطة لكنَّ الذي تحمله جدرانه من صور ومقتنيات أبعد ما يكون عن البساطة. تركني السائق عائدًا إلى سيارته. لحظاتٌ وصبَّ لي النادل فنجانًا من القهوة من دون طلب، ومعه ثمة سكاكر إضافية، ومكعب صغير من شيكولاتة حليب برازيلية. مضت دقائق حتى سحب رجل أربعيني بمعطفٍ أسود وقبعة سوداء المقعدَ الذي أمامي، وحيَّاني بوجهٍ بشوش. خلع الرجل قبعته، ووضعها إلى جانبه على الطاولة، ثم أخرج سيجارًا كوبيًّا فاخرًا، وأمدَّه إليَّ في تعارف ودود. كان حديثه المرح بالعربية يدور حول أمور عملٍ مختلفة، مع ذلك متناقضة، لم تخلُ من الجد حينًا، والهزل أحيانًا أخرى كثيرة، وبعد كلمات موجزة دسَّ بضعة شيكيلات أسفل صحن فنجان القهوة، ثم وثب عن مقعده، وصافحني بحميمية مبالغة، ورحل، تاركًا خلفه أسئلة عديدة لهبت حيرتي، ولم أكد أجد لها من أجوبة. عاد بي السائق إلى سيارته، ثم توجَّنا مباشرةً مع الغروب إلى هرتسيليا حيث إقامتي بفندق الريتزكارلتون على شاطئ البحر. بقيت بداخل الغرفة طيلة ثلاث ليالٍ كاملة، دون أن أخطو خطوة واحدة خارجها، بينما كانت الغرفة مجهَّزة بكل احتياجاتي من طعام وشراب، يكفي بالضبط للثلاثة أيام. وفي نهار اليوم الرابع تلقَّيتَ اتصالًا عبر تليفون الفندق الداخلي حوَّلني إلى أحد الأشخاص الذي بدوره أخبرني بأنَّني مدعوٌ بعد العشاء على طاولة للشراب بصالة الفندق المخصصة للرقص.

وفي تمام الثامنة مساءً تقلَّدتَ بذلة سوداء أنيقة كانت قد أهدتنيها مليكة في عيد ميلادي. طلبتَ المصعد، وهبط بي إلى الطابق الأرضي. وفي مدخل البهو عبث بي أحد الحرَّاس ثم دفعني للعبور. كان لدي شعور بقلق تباطأت له خطواتي بينما كانت قرقعات حذائي تُحدث شعورًا مريعًا بالزمن. وكأي ضيفٍ مرموق قادني النادل إلى طاولة محجوزة باسمي. بعد كأسين من نبيذٍ مرٍّ تطوَّعت فتاة حسناء للجلوس معي، فرحَّبت بها دون تردد. تبادلت الفتاةُ الشرابَ معي في نشوةٍ غامرة، فيما قد ثَمِلت قليلًا، حتى أنساني مذاق النبيذ الحار أي موعدٍ قد جئتَ لأجله؟ انتهت السهرة وما زالت الأسئلة تحوم برأسي، وعدتَ إلى غرفتي، وخلعت البذلة، لكن بمجرد أن هَمَمت بوضعها على شمَّاعتها لاحظتَ بأنَّه قد سقطت منها على الأرض ورقةً، رفعتها فوجدتها مكتوب عليها هذه العبارة :- شارع بن يهودا أمام مكتب شركة السياحة الواحدة ظهرًا.

وكم أحب الحرص على مواعيدي، ففي الزمان والمكان المحددين كنت في الانتظار، ولم تمض ثوانٍ حتى وقف أمامي سائقٌ خالعًا قبعته في تحية مهيبة، ثم انحنى مُشْرعًا لي باب سيارته. وصل السائق بنا أمام أيقونة شالوم مائير بشارع هرتسل. عند البوابة أخرجت جواز سفري المزوَّر، فأشار إلي فرد الأمن بالجلوس، والتقط هاتفًا لاسلكيًا، وأنا ألاحظه يمرر نظراته المريبة لي، بينما يُملي بياناتي إلى أحد رؤسائه. عاد فسمح لي بالعبور، وأخبرني بأنَّه بالإمكان استرداد جواز السفر مع الخروج، ثم طلب لي عاملًا رفعني عبر المصعد الفسيح عكس جاذبية الأرض حتى الطابق الثلاثين. دخلت إلى مكتبٍ ذي أثاث فخم وجدران زجاجية شفافة تكشف عن مشهد بديع، يطل على المدينة بأكملها. بسرعة خاطفة انفتح الباب فظهر أمامي رجلٌ خمسيني الهيئة يرتدي سترة وبجانبه مسدس. ارتشفت الماء بارتجافة قليلة، ثم ما إن تمالكت نفسي حتى استبدَّ بي شعورغير مألوف. وفي ذاك اللقاء الصَّريم أدركت بأنَّني قد تورطت فعليا ودون خطوة واحدة إلى الوراء في تجهيزي لتنفيذ عملية اغتيال. الأمر الصادم وقع على مسامعي كقنبلة تفجَّرت فأصمَّتني للحظات. مكثتَ في تل أبيب قرابة الأسبوعيْن، تلقَّيت خلالهما تدريبات خاصة على الخطة. سقطت في شباكٍ آلية دقيقة لغسيل الدماغ، وتم تمهيدي خلالها لتحويلي بشكل تدريجي إلى عميل خاص على مستوى مدني من دون الكشف عن طبيعة الدور المنوط بي، احتسابًا للمرحلة المستجدة والمختلفة جذريًا عن نوعية العمل السري المعهود ببروتوكول جهاز الاستخبارات الإسرائيلي قبيل حرب أكتوبر.

ولمَّا أوشكت الاستعدادات على النهاية إذا بي أعود إلى نيقوسيا. مكثت خلال ثلاثة أشهر بجناح فخم بفندق كينيدي القريب من وسط المدينة، حتى جاء موعد التنفيذ. كان المستهدف عضو بارز في العمل الفلسطيني بالداخل التابع لمنظمة التحرير. كان يشتغل عميلًا سرّيًا مزدوجًا لكن أمر ازدواجية عِمالته قد انكشف للمخابرات الإسرائيلية، فيما قُضي قرار اغتياله من أعلى رتبة في القيادة، لكن الأمر كان ينبغي له أن يبقى بمنأى عن أي محاولة لإثبات تورط الموساد بتلك العملية. كانت الخطة الموضوعة تقضي بأن أقوم بإهدائه سيجارًا مُصنَّعا خصيصًا، مدسوسًا به عدة ميكروغرامات ضئيلة من سم مادة البولونيوم المشعِّة، تكفي لأن تصل إلى الدم، وتتراكم في الكبد حتى تعمل إشعاعات ألفا التي تطلقها على تدمير الخلايا وحمضها النووي، وقد تم تنظيم هذا الاجتماع الودِّي على هامش لقاء عملٍ جمعني به، ورُتّبَ له بمنتهى الدقة. تم تقديمي له على أني من سوف أساعده في الإعداد لتموين سفينة الحرية التي تحمل عددًا من نشطاء السلام حول العالم سيقومون بالإبحار إلى غزة؛ تذكيرًا للعالم بمعاناة الشعب الفلسطيني. نفّذت العملية على أتم وأنجح ما يكون، وبتواطؤ وتسهيل من أحد صنَّاع القرار القبرصيين دون أن يعيقها أي عائق. وقضيتَ مدة خمسة أعوام كاملة في قبرص، لم نلتقِ خلالها سوى مرة واحدة. حدث هذا خلال سهرة جمعتنا على متن قارب سياحي صغير في ميناء البندقية، بعدما أتيحت لي فرصة إنشاء شركة خاصة لشحن وتموين السفن تكفَّلت برأس مالها كاملًا تلك القبرصية الشمطاء فاحشة الثراء . أقنعوني بفكرة الزواج منها، فتزوجتها حتى قضت نحبها سريعًا، وبعدها بقليل عدت إلى القاهرة مطلع الثمانينيات .

***

كان ممدوح يشعر بأنَّه معتل البدن سقيم الروح مهلهلٌ لدرجة أنَّه لم يكن بمقدوره الضغط على قدميّه. سأل مليكة أن تشغِّل التلفاز. وعلى إحدى القنوات الإخبارية شاهدا الرئيس الأمريكي السابق يدلي بتصريحاته بشأن نبأ فوز نائبه السابق واصفًا ذلك بالحدث التاريخي الكبير. طلب منها البحث عن محطة جديدة، فتنقَّلت بين القوائم حتى صاح بها، فتوقفت لدى محطة إخبارية بريطانية تذيع تقريرًا ظهرت خلاله صورة له. انتزع جهاز التحكم من يدها، ورفع حجم الصوت؛ رغبة في الاستماع للتقرير الذي كان يحقق في شأن تورطه في أكبر شبكة لتهريب الآثار المصرية للخارج. يذكر التقرير بأنه لا توجد أدلة كافية تثبت وجود تواطؤ من أجل إخراج الأموال من مصر عقب اندلاع الثورة، لكن تقرير الاستثمار العالمي أشار إلى أن حجم الأموال التي دخلت إلى إسرائيل في نفس الفترة عبر وسطاء أبرزهم وزير الآثار الأسبق ممدوح زيدان والمقيم حاليًا بالمملكة المتحدة. ومما جاء فيه أنه بينما كان النظام يتساقط كان زيدان في طريقه للهروب إلى وجهة غير معلومة قبيل الخطاب الأخير، بعدما قام بتحويل جزء من أمواله إلى أحد البنوك القبرصية، والجزء الأكبر منها إلى أحد البنوك السويسرية، لكن النائب العام أمر بتجميد أرصدته في البنوك على الفور. مع ذلك فالقرار جاء متأخرًا، إذ كان قد تمكن من تهريب أمواله مطلع الأسبوع الثاني. أصدرت المحكمة عليه لاحقا حكمًا غيابيًا بالسجن خمس سنوات بتهمة التربح غير المشروع من تجارة الآثار عبر بواخره التجارية التي ترفع العلم القبرصي معتمدا على حصانته الدبلوماسية. تم تغريمه خمسة ملايين جنيه، وطُلب منه دفعهم إلى خزانة الدولة على سبيل التعويض. لكن بعد عام تمَّت تبرئة ذمته من جميع القضايا المُدان فيها، بعدما قُبِلَ النظر في طلبه للتصالح بما يعود بالفائدة على الاقتصاد. وعليه رُفع اسمه من قوائم الترقب بالإنتربول، وأوقف قرار التحفظ على أمواله ببنك سويسرا، ونصحه أحد مستشاريه بعد ذلك باستثمار أمواله في مجال العقارات والفندقة. فأنشأ شركة خاصة للاستثمار العقاري بلندن، وأخرى تدير مجموعة واسعة من الفنادق والمنتجعات السياحية حول العالم. ومنذ ذاك الوقت خفت بريقه السياسي، وانطفأ وهجه الإعلامي، وقرر الاستقرار ما تبقَّى له من عمر متواريًا عن الأنظاربإقامة رجال أعمال.

***

في الأثناء كان يحيى وزوجته كارمن بالسيارة في طريقهما إلى المنزل عندما جاءه اتصال هاتفي من رقم غير مسجل لديه، فأسرع بالرد قائلا :- مرحبًا من معي؟

- ألا زلتَ تتذكر صوتي؟

فأجابه يحيى بقلق وقال :- عفوا سيدي لم أعرف من معي.

- يبدو أنَّك نسيت الصفقة.

فأدار الهاتف إلى الجانب الآخر من أذنه، ثم تهامس مائلًا فمه إلى ميكروفون الهاتف وهو يقول :- أنا أقود سيارتي الآن من فضلك اتصل بي في وقتٍ آخر.

- تَذَكَّر أنَّه بمقدوري قلب حياتك رأسا على عقب لا يستحسن لكَ المراوغة كالذئاب اللعينة أعلم ما قمت به.
- أقسم لكَ بأنني لا أفهم عن أي شيء تتحدث.
- دعنا نتحدث كأصدقاء للمرة الأخيرة لأنك إن لم ترتد عمَّا فعلت فلن أتوانى في قتل زوجتك التي بجانبك.

وأغلق الخط بوجهه. كانت كارمن تنظر في وجوم إليه بينما حملت نظراتها عشرات من علامات الاستفهام، فانتظرت قليلًا، ثم استدارت برأسها نحو النافذة، وسألته قائلة :- هل أغلق الهاتف في وجهك؟ اضطرب يحيى لكنه أسرع بالإجابة قائلا:- ولِما يفعل ذلك؟ الشبكةُ سيئة صوتُه منخفضٌ ولا أكاد أسمعه. فطنت كارمن بأنَّه يكذب عليها عامدًا، فاستجوبته بغضبٍ مردوم ونبرة هادئة قائلة :- عجيبٌ كان صوته واضحًا من يكون ذاك الرجل؟ ولما يكلمك بهذه اللهجة؟

- إنه صديق بالعمل بيد أنه غاضب مني لأمر ما لم أستطع فهمه على كل حال سأتفهم منه لاحقا.

أسهمته كارمن بنظرات مُطوَّلة، فحاول التهرُّب بإلهائها في أمور أخرى. أعادت بصرها إلى الطريق بينما تغرق في صمتٍ وشرود. عاد الزوجان وذهبت كارمن لخلع ملابسها، ولكنَّ يحيى ظل على هيئته. جلس بالصالة، وأضاء التلفاز، وهو لا يرمش جفنه، ماسكًا بالهاتف كأنما يغرق في التفكير. عادت إليه وجلست إلى جانبه، واستفسرت عن سبب عدم تغييره لملابسه، وبدا أنه ينتظر مكالمة ليعود إلى الشارع، لكنه أكد لها بأنه ليس لديه أي مواعيد. ذهبت لجلب قارورة عصير من الثلاجة، ثم سمعها تصرخ بهلع، فهرع إليها وهو يصيح قائلا :

- ماذا حدث ؟
- انظر ماذا وجدت على باب الثلاجة ؟
- من صنع هذا؟
- تسألني أنا من يفترض أن أسأل .
- أنا لا أعرف شيئًا عن هذا .
- رمز مثلث مقلوب مرسوم بالدم على ثلاجتي وتخبرني بأنك لا تعرف شيئا.
- إذًا فلِما أكذب عليكِ؟
- أضحت أمورك غريبة أشعر أنكَ تخفي عني أمرًا هل هكذا تكون علاقتنا؟

صمت يحيى ثم التوي على نفسه مهرولًا بغضب نحو الصالة. أطاح بيده خلفه وهويقول :- أنا آسف. صاحت كارمن من ورائه وهي تقول :- على ماذا؟ انتظر هنا. ثم تبعته بغضب قائلة :- لم أعهدكَ تعرض عني وأنا أكلمك يحيى أجبني. جلس يحيى وأشعل سيجارةً، نفث دخانه ثم قال :- أعرف أنها حماقة مني ألا أخبركِ وأعتذر عن هذا.

- لم أقبل شيئًا.
- أنا آسف للمرة الثانية.
- لا لن أتقبل رؤيتكَ للأمر أبهذا يكون الأمر منتهيًا؟
- هل يتوجب عليَّ التوسل؟ ما الذي فعلته ليكون فظيعًا إلى هذا الحد؟ كذبتُ كيلا أضغط على أعصابكِ وأنت حامل ها ماذا حدث؟ هل توقف العالم عن الدوران؟ آسف.
- ما الذي يجعلك تتأسف؟
- يبدو أنكِ ترغبين بالمشاجرة.
- هل تسمي حديثي معكَ مشاجرة؟
- أنتِ ماذا تريدين الآن؟

- أنتَ تعلم وتتهرب من المواجهة.
- أنا لستُ خصمًا لكِ كي أتهرب.
- إذن أجِبني .
- مثلي مثلك لا أعرف شيئًا بخصوص ذلك الرمز اللعين.
- تبدو كما لو تخفي شيئًا لا ترغب بالإفصاح عنه.
- عزيزتي أنا فقط متعبٌ من المظاهرات .
- هل تريد مداراة الحديث بلا جدوى ؟
- أريد أن أخلد للنوم تصبحين على خير.
- تعال هنا لم أنهِ كلامي أريد معرفة إن كان الرمز متعلق بالشخص الذي كان يتحدث إليك بالسيارة ؟
- صدقيني لا أعرف.
- لكنكَ تعرف بأنَّه لم يكن صديقك بالعمل.
- شككت لكن ليس في بادئ الأمروإنَّما بعد التركيز بالصوت عرفته ولا أرغب في توريطك.
- تقصد من؟
- كنتُ أظن بأنَّ الأمور انتهت عرضَ عليَّ وظيفة محرر بشبكة فوكس الإخبارية بعد نحو شهرين من احتجازنا وأنا قبلت الصفقة مقابل الصمت عن القلادة .
- يحيى هل عاد سام رودريغز إلى حياتنا ؟
- إنه كذلك.
- يا إلهي وماذا يريد ؟
- لا أعرف فلم ألتقِ به مذ ذاك الوقت .
- ولماذا يريد الانتقام ؟ هل قمت بتهديد منصبه ؟
- إطلاقًا أنا تناسيت الأمر برمته.
- كان غاضبًا لهجته شريرة أيكون ذلك بلا داعٍ؟ إنه بارع إذًا على نحو بغيض.
- ومن يمكنه الدخول إلى بيتنا ليلطخ الثلاجة؟ ما الرسالة التي يبغي إيصالها ؟
- ليجعلني على علم بما تود إخفاءه ولو أنك اتهمته بسرقة دمية لمَا قرر الانتقام بعد سبعة أشهر .
- بذلك اعتقدت بأنها فترة ومضت .
- هل أخبرتَ أحدًا بهذا الشأن ؟
- بالطبع لا.
- أوه أرى أنه ربما على الأقل لديكَ شخص واحد تثق فيه .
- ربي من يمكنني أن أخبره بهذا العبث ؟

نهضت كارمن غاضبة بينما تقول :- هل هذا ما كنت تحدثني عنه طيلة الخمس سنوات الماضية ؟ هل لم تعد تثق بي حتى تشاركني خواطرك ؟

انتفض يحيى وصاح بوجهها قائلا :- كفى هراء ألا تشعرين بالملل من تكرار هذا ؟ كظمت كارمن غيظها ورحلت بعد أن قالت له :- لقد انتهى الحوار عند هذه النقطة .

انقشعت فورة السفسطة التي لا تجدي نفعًا بأن أسرعت كارمن إلى غرفة النوم محمومةً بالغضب، وأغلقت الباب وراءها. انكبَّت باكيةً على الفراش، وعلى نحو متزايد انهمرت الدموع على جبينها النَّدِيّ. لعلَّ أشد ما يؤلم المرأة هو فقدانها لشعور الطمأنينة والسكينة، وتبدلهما بالضيق النابع من انحلال ثقتها بزوجها، فما اعتادت على مثل تلك المشاعر تجاهه، لكن رغبتها بالحفاظ على علاقتهما والقلق يحدِّثها بأن خطبًا ما غير اعتيادي يبرز لها في الأفق، ويكشِّر عن أنيابه، في الوقت الذي يجاهد فيه يحيى لإخفائه، خطبٌ يوشك أن يهدد حياتها، وحياة ما تحمله في بطنها. مضت لحظات عسيرة من الألم، وما هدأت حتى بدرت بذهنها فكرة أن تفحص حاسوبه الشخصي. قامت من الفراش مفككَّة الأوصال، يكاد شعورها بخيانته لها يمزّق فؤادها، ويفتته تفتيتًا. جلست أمامه ثم أضاءته، ولمَّا فتح تجزَّأ بصرها إلى عشرات من الصور المتفرقة. وجدت سطح المكتب مليئا بالأيقونات المبعثرة بشكل غريب، لكن عينها الطامحة بفضول إلى ما وراء كل هذا أوقعتها على أيقونة مميزة على شكل بَصَلة. ضغطت عليها، فنقلتها سريعا إلى متصفح به قوائم لعدة مواقع .

جعلت تقلِّب خلالها بلا هدف حتى ضغطت تلقائيًا على أحد هذه الروابط؛ ليُحَمِّل لها موقعًا إلكترونيًا امتداده غريب وغير نمطي. انفتح لها موقع يشبه بدرجة كبيرة صفحات البيع والشراء عبر الإنترنت، مع ذلك لم يكن إطلاقًا على هذا النحو الساذج من الظن، وبخلاف الأشياء القانونية المتاحة للبيع على الشبكة العنكبوتية، ظهرت أمامها أمور عجيبة معروضة للبيع : حسابات بنكية، وإيميلات شخصية، وبطاقات ائتمانية، وأموال مزورة، وأسلحة عديدة، تعرض للبيع بكل يسر. وكأن كل هذا لم يثر بداخلها أي ثائرة، وإنَّما ما أفزعها عروضا لا تُصدَّق لأعضاء بشرية ممزقة إربًا، وعروضا أخرى لاستئجار قتلة مأجورين بأسعار متفاوتة بعملة رقمية . صُعقت كارمن لما تراه، ورغم ذلك لم تعره أي انتباه، إذ راح عقلها يضغط عليها للاستمرار حتى كبست على أحد هذه الروابط، فانبثقت لها رسالة نصية بالإنجليزية مكتوبة برموز صوتية :- أنت معي بأمان مادمت تتبع نظام السلامة لا أسماء ولا أسئلة شخصية عند الموافقة لا مجال للتراجع جرِّب أن تشاهد وإن أعجبك العرض فماذا تنتظر؟

وتحت الرسالة وجدتْ خيارين : موافقة، أو إلغاء. ضغطت على موافقة، فظهرت لها رسالة جديدة مشفَّرة تقول :

- ستبدأ اللعبة بموافقتك على الشروط فهذا يعني أنه لم يعد ممكنًا العودة .

ثم ظهرت لها علامة لكرة أرضية تدور ما لبثت أن توقفت عن الدوران، حتى تبدَّى لها رأس لإشارة ترمز إلى تحديد موقعها بكل دقة. في تلك اللحظة كان يحيى يفتح باب الغرفة، وفي غمضة عين رأته مستقيمًا أمامها، فصاح بوجهها في نَزَقِ الأزواج قائلا :- من سمح لكِ أن بفتح حاسوبي بدون إذن ؟

لبست كارمن بمكانها حائرةً مرتاعة بحالة ذهول. رفعت رأسها بإسهام وفتور، وجعلت تنظر إليه في صمتٍ عارم ممتزج بالصدمة. تعجَّب من أمرها، فأقبل عليها بحث، ثم اشتعل غضبًا وهو يقول :- تبًا لكِ ماذا فعلتِ؟ لكنها لم تنبس ببنت شفة. فعاد ليصيح فيها قائلا :

- لا بد أن تخبريني فورًا لأنكِ إن لم تفعلي سنقع في ورطة لا يمكن تفاديها .

فأخبرته بجدية بما قامت به . نظر إليها غارقًا في التكفير، ما جعلها تعتقد بأنَّها ارتكبت حماقة بالغة. أمسك بتلابيب رأسه في هلع، وصبَّ عليها جام غضبه قائلًا :- أتدركين أي حماقة تلك التي ارتكبتها لِتوّكِ؟ أومأت برأسها نافيةً، ثم دعته للهدوء مُذكِّرةً إياه بأن الغضب مفتاح كل شر. صمت لوهلةٍ قبل أن يخبرها بأنَّها قد دخلت إلى عالم الإنترنت المظلم. لم تفهم كارمن ما الذي قد يعنيه ذلك، وبذات اللحظة صدح رنين رسالتين نصيتين على هاتفيّهما في آنٍ واحد، فارتعبا ونظر كلٌ في هاتفه، فاكتشفا وصول ذات الرسالة المُشفَّرة التي تقول بأنه قد تم تأكيد الطلب، وسيتم إرساله إلى العنوان الظاهر بموقعهما . تردَّد الصوت في حلقها قائلة :- لم أفهم شيئا ما المقصود بهذا الهراء؟ قطب يحيى وتجمدت أطرافه، حتى قالت له باندهاش :- لكني لم أقم بإدخال رقم الهاتف. فأجابها بصوتٍ شاحب :- ومن أخبركِ؟ أنتِ غير مضطرة لفعل ذلك.

سكن عن يحيى الغضب، فحدَّثها بأنَّه سبق وأن تعرَّف على صديق له يعمل في شركة مايكروسوفت. لجأ إليه مستعينًا به لاسترداد حسابه البنكي المسروق، وهو الأمر الذي كان قد أخبرها به آنفًا. لكن ما لم يخبرها به أنَّه من أعاد إليه الحساب؛ ولذا أصرّ على أن يكافئه فأعطاه مبلغا رمزيًا؛ إذ إن المخترق أوشك على سحب جميع الأموال المدخرة لديه. وبعد ذلك بفترة قصيرة طلب منه يحيى أن يعلِّمه الطريقة التي مكَّنته من ذلك، فقال له بأنَّه ما كان لينجح لولا إحاطته الكاملة بعالم الإنترنت الأسود؛ ولذا ألحَّ عليه يميط له اللثام عن هذا العالم السري نظير دولارات، وبالنهاية استجاب الصديق له، وأبلغه مراده.

كانت سيماء الذهول صارخة بوجه كارمن، لكنها فضَّلت الاستماع بكل حواسها، فيما كانت نبرته الخافتة المسترسلة توحي بأنه يحكي الحقيقة بلا تستر، ولمَّا انتهى إذا بكارمن تسأله عن ماهية الإنترنت المظلم الذي عَلِمَ به . أجابها بهدوء بأنَّه عالم خفي توجد به قواعد البيانات لأهم المؤسسات بأغلب حكومات العالم، تلك البيانات لا يمكن تداولها على محرك غوغل الافتراضي سوى لمن يمتلك اسم وكلمة مرور، مع ذلك فإنَّ بإمكان الشخص المحترف أن يخترق تلك الحسابات بسهولة، وأن يسرق منها وقتما كان وأينما يكون. أغارت على كارمن علامات الدهشة، وأخبرته أن ذلك لا يبدو مريبًا فحسب بل يخالها أن ما قامت به أمر ما أكثر وقعًا وخطورة . أومأ إليها مؤكِّدًا صحة ظنها، وحينما ذكرت له بالضبط ما رأته، زعم أنها بذلك لم ترَ شيئًا، إذ يوجد هنالك ما هو أبعد من خيالها البسيط، مما لا يرقى إلى عقلها تصوّره، جازما بأن من بعث إليهما بالرسالة لن يتركهما أبدًا في حالهما، وربما يخطط لقتلهما والتخلص منهما، أو يسوِّمهما سوء الذُّل والعذاب على أقل تقدير، فاستقر في عقيدة كارمن بأنهما وقعا في طامة كبرى لن ينجوا منها أبدًا، وربما لن تعود حياتهما بعدها كما كانت.

أسرع يحيى بالتقاط هاتفها، ثم جعل يفككه، حتى أخرج منه الشريحة وفعل الأمر ذاته مع شريحته. قالت كارمن :- هل تظن بأنَّ ذلك سيفلح؟ أجابها بتنهدٍ قائلا :- أنا لا أظن. فعادت لتتساءل قائلة : - وما عسانا أن فعله؟ فأجابها قائلًا :- من

الأفضل تدمير أي جهاز ذكي لدينا بأسرع وقت. ثم تفتَّق ذهنه عن فكرةٍ، فأخبرها بضرورة تدمير الحاسوب، لكنها أبدت رفضًا قاطعا قائلة :- ولماذا يجب علينا أن نفعل ذلك؟

- إن قراصنة الانترنت الأسود يمكنهم اختراق أي جهاز ذكي وتتبعه ساعة ذكية طابعة ذكيّة شبكة تكييف ذكية تلفاز ذكي كل ذلك يمكن رصده إنها منظومة عالمية ضخمة ونحن تحت أعينهم وهم يراقبون ردود أفعالنا وربما يكونون على علم بما نتحدث به .

قالها يحيى وهو يشعر بالقلق. ألقت كارمن بأهوالها إلى صدره، وانبثت منها فكرة ساذجة بأن يبحثا عن منزل آخر، لكنها ترددت بينما تأتأت قائلة :

- ينبغي علينا الاتصال بالشرطة فورًا.

لم تكد تنهي كلامها حتى وجدا الحاسوب يَؤُزّ ويزأر برنين غريب. اكتسح الصمت لفينةٍ، وعلم يحيى بأنَّ المخترق هو من يقوم بالاتصال، فأصرّت كارمن على إجابته لاستدراجه وفهم ما يخبئه لهما. تردد لثوانٍ، قبل أن يقرر الرد. وبمجرد أن ضغط على قبول الاتصال، انتهت المكالمة فورًا. وفجأة دون أن يعطي أيٌ منهما أمرًا وجدا أمامهما محاولة تحميل لصفحة أخرى. لحظات وكشفت لهما الشاشة عن فيديو يقوم التحميل. انتظرا لبضع ثوانٍ، حتى بدأ بالتشغيل، فظهرت شاشة سوداء لا تعبر عن أي شيء، واستمرت على حالتها لعشر دقائق. ازداد التوتر وساد القلق مما يجهلانه. صرخت كارمن قائلة :

- آنا ؟ هذه صديقتنا آنا ؟

ما إن أمدَّ يحيى بصره إلى الشاشة حتى اختفت الصورة التي شاهدتها كارمن للتو، وعادت لسوادها القاتم المريب. ثم وعلى حين غرة قُرع جرس الباب. جحظت أعينهما بوجوم شديد، فيما جعلا يحدّقان لبعضهما البعض في جمود تام انتابهما، إذ جرجر قدميّه على وهن وهو يخبرها بأنَّه ذاهبٌ ليرى من الطارق، فوثبت خلفه. خطيا على أطراف أصابعهما، وبمجرد وصوله عند الباب اختلس نظرة من العدسة ولم يجد أحدًا. انتزعت منه كارمن نظرةً في فضول قاتل، ثم همست في أذنه قائلة :

- هناك شيء ما فوق عتبة الباب لا يمكنني تحديده.

اندفع يحيى عائدًا بعينه إلى العدسة، وتبين له صحة قوله بأنَّ أحدًا ترك لهما شيئًا ما . انتظر للحظات، ثم جهر بصوته عاليًا يسأل عمَّن بالخارج، لكن أحدًا لم يجب. كررها ثلاثًا، لكن أحدًا لم يجب نهائيًا، فأدار مزلاج الباب ببطءٍ، ثم أمدّ عينيّه خلال نافذة يسيرة من زاوية الباب، فوقعت عينه على باقة ورد أحمر للعزاء، موضوعة أمام العتبة . دون انتظار جثا على ركبتيّه، ثم جعل يسحبها إلى الداخل ببطء وعلى مضض، ثم ردَّ الباب، فانغلق على الفور. أسرع بفتح الباقة التي كان واضحًا أنها من نوع غالي الثمن، وبفحصها وجد بداخلها كتابًا مقدسًا صغيرًا، مقتطعًا وغير كامل، وبداخله وضعت بطاقة إهداء مكتوب عليها :

- لم يتم إرسال الحلوى برجاء استقبال الدعوة تتبع حدْسك فلن يمكنك النجاة إلَّا في حالة عثورك على الشيفرة المطلوبة لحل الأحجية .

صاحت كارمن بفزع :

- إلهي وماذا قد يعني ذلك ؟

فأجابها بأنها لربما تكون رسالة تهديد مشفرة. لم تتمالك أعصابها، فهرعت إلى غرفة نومهما، فركض خلفها قائلًا بأنَّه يكاد يرى أمامه، وذهب لعمل محلول سكر، وبينما كان في المطبخ إذ دوَّت صرخات مفجعة. هرع بأقصى قوته مسقطا الكوب من يده ليتهشم على الأرض. ولمَّا سألها عن سبب صراخها أقسمت له أنها شاهدت آنا تأن وتصرخ طلبًا للمساعدة، بينما رأت وكأن أحدًا يرتدي لثامًا على وجهه، وكان يفتك بها ويكيل لها الضربات، ثم اسْودَّت الشاشة وعادت لسابق عهدها، حتى ظهرت أمامها رسالة جديدة مشفرة. طلب منها يحيى أن تتنحى جانبا، ليجدها رسالة تعريف مذكور بها اسم ورقم مرور مشفرين، وأسفلهما رابط طويل ومشفر كذلك، مليء بالحروف الكثيرة والرموز الغامضة، وبالأسفل قرأ :

- برجاء استخدام الرابط في خلال نصف ساعة عدم دخولك في الوقت ربما يتسبب بمقتلك في منزلك .

كادت كارمن أن تفقد وعيها، وانتحبت وهي تمسك ببطنها في شعور طاغٍ بالتقيؤ، فهرعت إلى الحمام، وجلس يحيى مكانها، وأعطى أمرًا بفتح الرابط الذي نقله إلى متصفح آخر أصدر أمرا غير متحكم فيه بتحميل برنامج لم ير له مثيلا. تتبع التعليمات الصادرة أمامه بحذافيرها دون أدنى وعي حتى انتهى التحميل، ثم جعل ينقر موافقًا على كل أمرٍ تلو الآخر، لكن بمجرد تثبيته طلب منه وضع اسم ورقم المرور الذين سبق له وأن نسخهما، فأدخلهما ونقر على زر التالي. تغيرت واجهة البرنامج وتبدَّلت،

واحتالت واجهةً للعبة غريبة لم يتسنَّ له أن يفهم مغزاها. بدت اللعبة وكأنها لمركبٍ ما صغير يمضي ببطءٍ عبر نهر أبيضَ طويل خلال كهفٍ أبيضَ شاحب الإضاءة، مثبتةً على جانبيه شعلات عديدة متوهجة. حاول يحيى تحريك الشاشة دون طائل. بعد دقائق ظهرت رسالة نصية مكتوب فيها :- نعتذر عن التأخير ذلك لتأمين غرفة المحادثة. ثم انفتحت أمامه واجهة جديدة بلونٍ أزرق فائق الكتلة. صدر أمر تلقائي بتحميل غرفة محادثة وعلى جانبها الأيمن ظهرت أسماء لعشرة أشخاص مجهولين بلون رمادي باهت. حاول كتابة أي نص بصندوق المحادثة، لكن بدا وكأنه غير متاح في هذه اللحظة. وبعد دقيقتين، انبثقت له واجهة أخرى، قرأها :

- برجاء إدخال الشيفرة السابقة.

مرة أخرى تتبع التعليمات واحدة تلو الأخرى، حتى ظهرت له رسالة تهنئة بأنَّه بات قاب قوسين أو أدنى من حلِّ الشيفرة . عادت رسالة أخرى للظهور مكتوب بها :- احذر أن تقع بيد أي شخصٍ آخر حتى زوجتك احتفظ بها في ذاكرتك وتذكَّر أي محاولة للعودة إلى الوراء يعني بأنَّ حياة زوجتك وحملها في خطر حقيقي تتبع التعليمات ولا تسبق خطوة بخطوة ولا تتعجل الرد أنت بأمان معنا. ثم عادت الشاشة للانغلاق. وبعد ثوانٍ عادت للإضاءة وظهرت واجهة المحادثة، وقد تبدَّلت الأسماء باللون الأزرق، فعلم بأنَّه قد صار متاحًا له الكتابة خلال صندوق النص.

أطالت كارمن غيبتها فقلق عليها يحيى، وترك الحاسوب وهرع ليجدها على الأرض مغشيًا عليها. حملها ثم وضعها على السرير، فيما يحاول إفاقتها. ولمَّا استعادت وعيها قالت في ضعف:- أشعر بالخطر علينا إبلاغ الشرطة. فأجابها يحيى قائلا:- علينا أن نبقى وراءهم لنرى ماذا يريدون؟ عاد يحيى إلى حاسوبه ولم يصدق عينيّه، صاح فزعًا، فنهضت إليه كارمن وعندما وقفت لجانبه وجدت آنا تظهر على الشاشة من جديد، وظهر رجلان ملثمان مفتولان عظيما البنيان يمسكان بها في غلظة، ويجرانها بتعنيف وضيع، وهي مكبَّلةُ الأيدي من خلاف معصوبة العينين وقدماها مسلسَلتان بسلاسل سميكة. تبدّى لهما وكأنما ذلك يحدث في صحراء ثم ظهر جبل شاهق بداخله كهف ثم تدحرجت صخرة عملاقة برز عنها باب ضخم فأدخلوها إليه . مضيا بها إلى سرداب جوانبه من الفولاذ، وبأرضيته سجاد أحمر طويل لا تظهر له نهاية. وصلا بها إلى صالة واسعة حمراء. كل شيء كان بلون الدم فكان بها ستائر، ومقاعد، ومفارش حمراء، ومصابيح مضاءة بالأحمر القاني. انتهيا إلى باب آخر، فتوقفا أمامه. مضت دقيقة وانفتح الباب، وظهر منه شاب عشريني نحيف طويل القامة يخرج من غرفة تحكم بها الكثير من شاشات الحواسيب، فيما كان لافتًا أنه يضع لثامًا على وجهه. اقتادها إلى غرفة نوم حمراء مسقَّفة بالإسفنج ومفروشة الأرضيات والحوائط بالإسفنج والمطاط . ألقاها على السرير وجعلها مستلقية على ظهرها وثبَّت أطرافها بطوله وعرضه.

كانت هناك كاميرا مثبتة بالسقف وكأنما كانت آنا تدرك مكانها، أخذت تنظر إلى الكاميرا وهي منهارة من شدة البكاء تستغيث كأنها تعرف أنهما ينظران إليها. ظهرت آنا وهي تحشرج، وتغرغر، فيما تردد نَفَسها وكأنما تنازع الموت. وجَّه لها الشاب لكمة قوية على جبينها، ثم أخذ ينظر في زهوٍ إلى الكاميرا . لحظة وانقطع البث، ثم عاد من جديد، بينما ظهرت على الشاشة رسالة تخبر بأنَّ المرحلة الثانية من اللعبة قد بدأت للتو. عادت صورة آنا ليشاهداه يعتدي عليها بوحشية حتى بدأت تنزف من وجهها، وهي لا تنقطع عن الصراخ الذي يقتلع قلبيهما من الجذور. كانا في حالة صدمة عارمة ولا يكادان يعرفان ما الذي بإمكانهما صنعه لإنقاذها. كانت كارمن تصيح بزوجها قائلة بأن هذا لا يبدو حقيقيًا، مع ذلك كان واثقًا بأنَّ ما يرياه في البث هو فعل واقع. بدا آدم وكأنما يحاول أن يتفنن في النيل من ضحيته، كان يلجأ إلى ابتداع أقسى الطرق لجعلها تتمنى الموت، وكان يتلذذ وهو يدرك بأنه يعمل على إرهاب يحيى وكارمن. نظر من جديد إلى الكاميرا، فظهرت لهما رسالة تقول :

- إن معاقبة الضحايا بالموت المباشر أشبه بأكل الثمار وهي لم تنضج بعد .

وكأنما يقبع بداخل سجن تحت الأرض لمنظمة دولية تحترف القتل والتعذيب الممنهج، تناول عصًا غليظةً وانهال بها على رأسها، فكانت آنا تنظر إليهما ونظراتها المستجيرة تقطر دمًا. صاحت كارمن قائلة :- آنا آه يا حبيبتي هل سنتركها من دون أن نفعل شيئا؟ فكتب يحيى في صندوق المحادثة :- أتحمل المسئولية كاملة لكن من فضلك اتركها هي لا ذنب لها. لم يجب وعوضًا عن ذلك مسكها من رقبتها، وغرز أصابعه في عنقها حتى أوشك أن يقتلع حنجرتها، ثم صفعها ومزق عليها ثيابها. شعر يحيى بوجوب التصرف، فعاد ليكتب صارمًا :

- الآن توقف أخبرك أن تتوقف الآن .

استدار آدم بحركة خاطفة وأخذ يقترب من الكاميرا، حتى توقف أمامها وهو ينظر إليهما بكل غضب. كانتا عيناه الحمراوان تستعران كالجمر المتَّقِد . أدركت كارمن بأنَّ ما يحدث أمام أعينها هو أمر واقع، ولكنها بدت غير مصدقة. انتابها شعور جارف جعلها تخشى أن تتعرض آنا للقتل الوحشي وتمزيق جسدها إربًا. انطفأت الشاشة وظهرت عليها صورة مفاجأة لكارمن وهي

مطعونة بسكين حاد في بطنها . بمجرد أن وقعت عينها عليها صرخت وتكلمت نظراتهما لبعضهما البعض لتقول بأنَّ هذه الصورة تعني بلا شك تهديدًا صريحًا بقتل كارمن. بدأ آدم بالترهيب أولًا؛ وبعد نشره لصورة كارمن استتبعها بأخرى أكثر غموضًا هذه المرة. كانت هي ذاتها التي اكتشفتها على باب الثلاجة، وقد أدمِجت تحت ملف الصورة رسالة جاء بها :

- مرحبًا نحن نبحث عن أشخاص شديدي الفطنة وللوصول إليهم صممنا لعبة هناك رسالة مشفَّرة بين الحروف لتكتشفها وستقودك إلى طريقنا نحن نتطلع لمقابلة أولئك الجديرين بصنع الفارق وتغيير التاريخ حظًا موفقًا .

بعد دقائق اكتشف يحيى أنه عن طريق فتح الملف بواسطة محرر النصوص يمكن إيجاد سلسلة الحروف القابلة للقراءة مدمجة بالصورة. تحتوي السلسلة على شيفرة بارعة تُنْتِج رابطًا لصورة أفعى ضخمة ذات لسان مشقوق وأنياب حادة تبوء بالسم. وعليها رسالة بالإنجليزية تقول بأنَّ اللاعب لا يمكنه أن يكتشف الرسالة بعد . في البداية بدا ذلك نهاية الأحجية ولكن عند استخدام برنامج معين مشار إليه في سياق الرسالة استطاع أن يستخرج معلومات مخبأة ضمن الصورة الأولى التي تقود إلى منتدى إلكتروني يحتوي بدوره على معلومات عن الكتاب الذي كان متضمَنًا داخل باقة الزهور المرسلة. ثم هرع إلى الكتاب وانكبَّ عليه، ثم تفتق خطرت له فكرة أنه باستخدام شيفرة أرقام مظلّلة بدقة من الكتاب يتمكن من إيجاد وسيلة تقود إلى الحل. وبعد الانتهاء من تجميع الأرقام وتركيبها إلى جانب بعضها البعض، استنتج أنها تقود بالنهاية إلى رقم هاتف عند الاتصال به سمع رسالةً صوتية مُسجَّلة تقول :

- لقد أبليت بلاء حسنا هناك ثلاثة أعداد أولية مرتبطة مع الصورة الأساسية ورقم 19 أولها عليك إيجاد العددين الآخرين قم بضرب كل تلك الأعداد ببعضها وأضف إليها دوت كوم تصل إلى المرحلة التالية حظًا سعيدا .

ثم انقطع الصوت.

هاج يحيى قائلا :

- اللعنة متى ينتهي هذا السخف ؟

كان الصباح قد غمر البيت عندما اهتدى يحيى إلى حاسوبه فوجده منغلقا بشكل تلقائي وعندها أدرك بأنَّهم يتحكمون به تمام التحكم. صاحت كارمن وهي ترتعش :- هل تعتقد بأنها ستكون بأمان ؟ فأجابها يحيى بتؤدة قائلا :- كل شيء سيكون على ما يرام. ومع تراكم المشاهد الفظيعة في رأسيهما لم يستطيعا ليلتها أن يخلدا إلى النوم، وما غابت صورة آنا عن مخيلتيهما.

-5-

باب بَامَايْيِم

قبل أسبوع كان يحيى مدعوًا في احتفال بعيد ميلاد رئيس التحريرعلى هامش اجتماع أسبوعي. استأذن العامل للدخول إلى القاعة، وهو يجر إلى أمامه طاولة متحركة، تحمل الكعكة التي تَشارك فيها الزملاء، فوثبوا جميعا مبتهجين ببدء الاحتفال.

قال رئيس التحرير مداعبًا :

- أرجو أن يكون عدد الشموع صحيحًا.

فعمَّ الضحك. ثم طلب من العامل المرور على الزملاء ليلقوا نظرة على الكعكة المعدة خصيصًا لهذا الاحتفال. تجشأ ليقول :

- يسرني أنكم اجتزتم كل الفوارق فعندما يبلغ الرجل هذه المرحلة يرغب في تسليم الأشياء التي نَعِمَ بها إلى الأصدقاء كمكافأة على حسن الصداقات.

فقطع يحيى حديثه قائلًا:- ليس قبل سنوات. ابتسم له رئيس التحرير، ورفع كأسه عاليًا وهو يقول :

- في صحتكم.

عادوا أدراجهم بعد نفث الشموع بينما يقوم عامل بتوزيع أطباق الحلوى . تناول الرئيس قضمة صغيرة بينما يقول :- الأطباء لا يوافقونني الرأي بشأن ولعي بتناول الحلوى كم أحب هذا المذاق الحلو مع النبيذ الأحمر اللذيذ تبًا للأطباء ما أدرى هؤلاء بذلك؟ لا يبدو عمليًا أن أكترث مع ذلك. ثم عاد ليقول :- لقد أنجزنا العديد من المهام خلال الأسبوع المنصرم لكن الرئيس يطمع في المزيد وهو يثق في فريقي ويكنُّ لكم كل التقدير ونحن نثق بأنه سوف يبلغ مدة رئاسية جديدة وعلينا أن نسهم بشكل غير مباشر في العمل قدمًا إلى جانب حملته وهذا ما أعرف أنكم تبلون فيه بلاءً حسنًا.

فصاحوا قائلين :

- بالطبع سيدي الرئيس لا تحمل همًا لذلك .

علَّق يحيى قائلا :

- ما أود قوله هو أننا نحصل على كل شيء لطالما أردناه لا تقلق نهائيا .

امتعض رئيس التحرير من كلامه وأحسَّ منه نفاقًا، فأسرع معقِّبًا بقوله :

- لكنني سمعت بأنك تدعم المرشح الديمقراطي.
- أوه سيدي لا مكان للأيديولوجية الشخصية في إطار العمل إن انتمائي الحزبي لن يربو بأي حال من الأحوال على انتمائي للمكان الذي يمنحني راتبًا شهريًا مميزًا .

أبدى رئيس التحرير إعجابًا بشخصيته فقال :

- يعجبني ذلك منك وأنا معجب بك بغض النظر عن خلفيتك الأجنبية لكن طالما تحاول الادعاء بأنك أمريكي صالح فهذا سيكون محط إعجاب وتقدير من رؤسائك وأنت أحيانًا تبلي بلاءً حسنًا وأحيانًا أخرى لا تفعل.

أسرع يحيى ليقول :- سأفعل ما بوسعي لأحظى بثقتكم سيدي الرئيس.

عاد الرئيس إلى كعكته وموظفيه قائلًا :- استمتعوا بالمعركة اللذيذة .

ثم ترك طبقه على الطاولة ونادى على يحيى. وفي الشرفة بإطلالة على نيويورك عقد ذراعه بذراع يحيى بينما يقترب منه قائلًا :- أنا مهتم للنقاش معكَ في شأن ما بمفردنا. أخرج يحيى سيجارة من علبته، وأهداه واحدةً، ثم تطوع لإشعالها له. زفر الرئيس نفسًا طويلًا، وألقاه بعيدًا في الهواء الطلق ثم قال :- لطالما كان السيد رودريغز يُشكِّر في ذكائك أنا على يقين بذلك وفيما يبدو بأنك انحرفت عن المسار في أخر تقرير لك أعرف أنك قد بذلتَ فيه جهدًا كبيرا لكنه خرج بالشكل الذي لم يرضني وأنا على يقين بأنه لا يرضيك .

- أنا أفعل ما ينبغي عليَّ فعله سيدي الرئيس وفقًا لتوجيهاتكم.
- لكنكَ لم تقم بما عليك.
- أعذرني سيدي ما الذي يدعوك لقول هذا ؟
- تعلم بأنه يرجع فوز الرئيس بالرئاسة إلى أنه كان مرشحًا مخالفًا لأعراف المؤسسة السياسية السائدة.
- أعلم سيدي الرئيس.
- لكن ما لا تعلمه أن تقريرك خرج بمنتهى السوء وقد يؤثر في نتيجة الانتخابات الرؤساء منزعجون منه مع ذلك دافعت عنك كثيرًا.
- اعتقدت بأنني يجب أن أحاول العمل بمهنية وحيادية كما تقول لنا .
- أعلم بأنني وافقت على تحريره رغم أنه لم يبد لي حياديًا لكن لم أر مانعا من نشره لأننا حتى اللحظة لسنا واثقين بفوز الرئيس.
- سأحاول القيام بما يرضيك سيدي الرئيس .
- انظر أنا أثق بكَ لكننا خلال الفترة القادمة سندخل في صمتٍ انتخابي وعليك محاولة تصحيح الخطأ ألا تعلم بأنَّ جمهورنا ينتظرنا في مقدمة الصفوف .
- بلى ولن أدخر جهدًا حتى نكون على العهد .
- عظيم بالمناسبة السيد رودريغز أبدى لي انزعاجًا منك لم يخبرني عن سببه فهل لديك ما تقوله ؟ تعلم أنني أحب أن أكون مطَّلِعًا على كل الأمور وهو صديقٌ رائع ومرشح جمهوري ويستعد لجولة إعادة اقتراع فرعي بولاية جورجيا .
- في الواقع ليس لدي أدنى فكرة بشأن انزعاج السيد رودريغز فعلاقتنا طيبة رغم أننا لم نتحدث منذ زمن ولستُ واثقًا بأنَّ هنالك ما قد يستدعي ذلك .
- على كل حال أنت تحتاج لتحسين علاقتك به .
- وأنا حريص على ذلك بالفعل .
- ممتاز يا لها من أيام عصيبة نحن مقبلون عليها استمتع بيومك .

***

(الاثنين - التاسع من نوفمبر)

صباحًا تم استدعاء سام للمثول أمام القاضي الفيدرالي بمحكمة ولاية نيويورك؛ للاستماع إلى شهادته بشأن دعوى قضائية مرفوعة ضده، تتهمه بشكل مباشر باستغلال نفوذه لاحتجاز مواطنين أمريكيين من أصول أجنبية بشكل غير قانوني، إلى جانب اتهامات سابقة له عن قيامه بالاستيلاء على قلادة أثرية نفيسة مستغلا منصبه لتهريبها من مصر. هذا بالإضافة إلى دعوى قديمة مرفوعة منذ فترة تتهمه بالتورط في تزعم تنظيم سري يقوم على اختطاف الأطفال وبيع أعضائهم. حضر سام الجلسة العلنية بصحبة مستشاره القانوني وهيئة المحامين الموكلة بالدفاع عنه، كما حضر المدعي العام وهيئة المحلفين، إلى جانب عدد من الصحفيين والمصورين، وقد ابتدأ القاضي الفيدرالي التحقيق بسؤاله قائلا :- هل أنت السيد سام رودريغز العضو بالحزب الجمهوري ومالك الأميرة الكبرى؟ فأجابه سام قائلا :- أجل يا سيدي. فقال القاضي :- سيد رودريغز لقد تلقيتَ استدعاءً للتحقيق بشأن حزمة تهم أمامُنا شاهدةٌ جديدة لم ترغب في ذكر اسمها تقول بأنَّك تترأس جمعية مشبوهة تعمل في اختطاف الأطفال المشرَّدين وترحيلهم إلى خارج الولايات المتحدة بخلاف مدَّعية أخرى تقول بأنك احتجزتها وآخرين بشكل غير قانوني وزعمت قيامك بسرقة قلادة تاريخية من مواطنة أمريكية بما يخالف الدستور فهل هذا صحيح ؟

- لا سيدي غير صحيح.
- شَهدتْ أيضا في مقتل المدعو غسان الشريف الذي عُثر على أعضائه مطلع العام مقطَّعة بداخل شنطة سيارة وهي تحسبك المتهم الرئيس في هذه القضية فما ردك على هذه الاتهامات ؟
- أنكرها سيدي الرئيس.
- وما قولك بشأن استيلائك على قلادة تاريخية لا تقدر بثمن ؟
- هذا محض افتراء لا علم لي بهذا الأمر سيدي القاضي.

اقتطف مدعي النيابة جانبًا من التحقيق وسأله قائلا :- سيد رودريغز هل صحيح أن لديك حصصًا غالبة في ثلاثة فنادق مهمة بميامي؟

- ليس صحيحًا أملك أسهما في بعض الفنادق هناك لكنها قليلة.

مال مستشاره إليه فوضع سام يده على الميكروفون، ثم عاد وقال :- كما أملك أسهمًا في عدة شركات سياحية وأُعتبر المالك القانوني للأميرة الكبرى. فقال له القاضي :- سيد رودريغز هل لك أي علاقة بأعمال القمار والدعارة وتجارة المخدرات في نيويورك؟

- أنا أدير فقط ملهى ليليًّا ماسونيًّا ومرخصًا ولا علاقة لي بتلك الأعمال .

اقتحم مستشاره التحقيق قائلًا :- حضرة القاضي يود موكلي أن يدلي بتصريح. فقطع مساعد القاضي حديثه قائلًا : - سيدي الرئيس أعتقد أن هذا التصريح غير قانوني في الوقت الحاضر. أردف المستشار قائلا :- لقد أجاب موكلي بصدق عن أسئلة هذه اللجنة الموقرة ولم يمارس حقه بالصمت وفق المادة الخامسة لذا من العدل سماع تصريحه. مال مدّعي النيابة إلى القاضي مع ذلك وافق له، فقرأ سام من ورقة معدَّة مسبقًا وقال :- على أمل تبرئة اسمي لخدمة وطني في مجلس الشيوخ بكل صدق مثلت أمامكم وتعاونت معكم بقدر الإمكان إنكار التهمة ألحق بي عارا وأريد أن يدوِّن السجل بأنَّه لا يوجد أي دليل يربطني بأي منظمة إجرامية وأتحدى اللجنة في تقديم أي قرينة وإن لم تفعل فأرجو أن يكون لها من اللياقة لتبرئة اسمي بالدعاية الإشهارية ذاتها التي اعتمدتها لتلطيخه .

علَّق القاضي قائلًا:- يعجبني تصريحك سيد رودريغز فيما تعلق بتلطيخ اسمك اللجنة ستجتمع يوم الإثنين القادم. اجترع سام رشفة ماء ليبل ريقه. فيما استطرد القاضي قائلًا :- وفي تلك الأثناء قد تكون عرضة للإدانة بسبب قسمك اليمين الكاذبة مذكرةُ الجلب بحقكَ لا تزال سارية. رفعت الجلسة.

إن سام منفلت الطباع متقلب المزاج ذهب عن القاعة مُغاضبًا. ولم يكن ثمة شيء يُطفئ الثور الهائج في أحشائه سوى أن يطيح نهرًا بكل من حوله، كما النعاج حينما تغضب تصير أسوأ من الذئاب. صرخ في مستشاره وحرَّاسه، وقد لاحت في عبوس وجهه بوادر الثوران. لم ينطلِ عليه ما أسداه إليه مستشاره الداهية الهندي في نصحٍ فاتر لم يؤتِ أُكُلَه في نفسه التي استشرى فيها الغضب. قال له في همهمة حليمة :

- إن الرجل الفاضل ينبغي له أن يتمثل بشجرة الصندل التي عندما تُقطَع تُعطِّر بأريجها الشَّذِي الفأسَ التي تقطعها.

فنهاه سام قائلا :- أيها الهندي الشقي لا أريد أن أسمع مهاتراتك الثقيلة وإلا قطعتُ عنقكَ وجعلتُ منها طعامًا شهيًا لكلاب النواصي يا أيها الوغد الضال لأجعلنَّك تأكل من فضلاتك أيها الجرذ أنا من انتشلتك من بالوعات ماضيك المقزز ورفعت لك قامتك وجعلتُ منك شيئًا يذكر أيها اللعين .ناولني هاتفي بسرعة.

أمسك سام بهاتفه، انتظر حتى أجابه يحيى، فقال له بانفعال صارخ :- أيها العربي اللعين أيخالك أن جنسيتك الأمريكية ستحميك مني؟ وكم في المدينة من مهاجرين أوغاد دخلاء اسمعني ولا تتفوه بكلمة إن أحقر ما قد يتصف المرء به هو نكران الجميل وإني وقد أوردتك النعيم كذلك قادرٌ أن أودعك الجحيم بإشارةٍ يتبدل حالك إلى شقاء وإن جريمة زوجتك لا تغتفر وتكفيني لأطحن رأسك ورأسها حتى لا أبقي منكما شيئًا الآن وليس غدًا لتوكل لها محاميا يذهب للمحكمة ويتقدم بطلب تصديق إقرار بالتنازل عن القضية سمعت؟

- سيد رودريغز أرجوك اهدأ قليلًا.
- أنا لن أهدأ أبدًا إلا وأنتما في السجن ألا تدركان مع من تلعبان أيها النعاج الضالة؟
- سيد رودريغز أقسم إليك بأنه لا علم لي إطلاقًا بما تقول.
- أيها الملعون أنا حذَّرتك أنت واللعينة كارمن تريدني أن أخسر بالانتخابات وأما بالنسبة لآنا فحسابها عندي عسيرًا سأجعلها ترتعد أن تسير بمفردها في الطرقات بيب بيب.
- تبًا آنا ستدمر حياتنا جميعًا بسذاجتها اللعينة.

قالها يحيى بينما التوى على نفسه في ركنٍ بأحد الشوارع الجانبية، وكان في طريقه للعمل. قام يحيى وتوجه إلى إحدى المحطات القريبة لانتظار الحافلة. انثنى باب الحافلة فركب، ثم انزوى في مقعدٍ بأخرها، واستجمع قواه ليفكر مليًا. علم من ساعة هاتفه أنه قد تأخر عن عمله. دَعَك عينه فانفتحت على جحيم ورأى نيرانًا تستعر أمامه، فصرخ فجأة صرخةً مدوية. التفت إليه الركاب بنظرات مريبة تسللت إلى نفسه ففعلت بها الأفاعيل، وبينما يعتذر إليهم يضطرب هاتفه بجيبه من رسالة صوتية مسجلة سمع منها :- كم أعزك يا يحيى وأعتبرك بمثابة ابن لي وليس أخًا تعلم بأنَّ المال لا يشتري عمرًا وأنا أيامي معدودة برأيك ماذا يمكن أن أفعل بكل هاتي الثروة؟ لن تمد عمري ثانية وأنا اخترتك لتكون وريثًا لا يمكنني تركها بيد آدم ولتعرف بأني قد أكون آتيت كل الفساد إلا أن الندم يأكلني والحسرة تنهشني بكل ثانية أطلب منك أن تترحم عليَّ أحتاج لهذا كثيرًا صحيح لم أزك منذ زمن طويل لكني أراك بقلبي وأسمعك وأحسُّ بك وأقلق عليك وأنا قلق عليك الطريق التي تريد السير بها كلها مطبات لن تصل لشيء وستعود خسران لن أكون سعيدًا وأنا أراكَ تدمر حياتك بنفسك سبق وأكدت لي بأنَّك نسيت أمر القلادة وبوصول الخبر للإعلام تكون خالفت عهدك مع سام أعلم من يكون سام رودريغز؟ وكيف له أن يؤذيك؟ والآن وأنا واثق من خطر محدق يتعلق بحياتك فكان عليَّ أن أنبهك حتى تأخذ حذرك أنا لن أضمن أنني سأتمكن من حمايتك تفهمني؟ أنت تورط نفسك فيما لا تحاربه وحده إنما تحاربهم جميعا وجميعهم في صف واحد يدًا بيد فكِّر في مستقبلك وابنك الذي تنتظره ورحمة أبيك الذي تعلَّق بك في أواخر أيامه ورحمة أمك التي أعلم أنها أحب قلبا إليك انس أمر القلادة فربما تكون هذه النصيحة الأخيرة.

وكان قد أنهى عمله وهو يفكَّر لماذا لا يكون العددان المفقودان هما أبعاد الصورة الأصلية. أضاء هاتفه ومن خلال برنامج استخرج قياسات لطولها وعرضها، ثم ضرب الأعداد ووضع اللاحقة دوت كوم، حتى يمكن استخدام النتيجة كرابط. دخل يحيى إلى المتصفح الأسود، ونسخ الرابط لينقله لموقع محدد يتألف من عدّاد تنازلي وصورة المثلث الأحمر المقلوب. انتظر دقائق حتى وصل العدّاد إلى الصفر فتم تحديث الصفحة. كانت تحتوي على عدد من الأرقام المبرمجة بشكل خاص، والتي اتضح أنها إحداثيات، تشير إلى مواقع فعلية حول العالم، وكان عددها عشرة مواقع في سبع دول. شعر أن هذه الشيفرة من عمل منظمة دولية، فإن من يمتلك كل تلك الدوافع والقدرات لصنع لغز بهذا الغموض لا بد له وأن يكون منظمة عالمية لا مركزية. ثم تمهَّل حتى ظهرت له رسالة جديدة تقول :

- انقر على الموقع ذي الإضاءة المرتعشة ستجدنا بانتظارك.

أسرع على قدميه إلى حديقة السنترال بارك القريبة، وتتبَّع الموقع المذكور إلى حيث أحد الجسور عند مطلع حقول الفراولة. وقف فوق الجسر طويلًا دون أن يكتشف أي أثر من حوله. وفي اللحظة التي قرر عندها أنه لا جدوى من هذا العبث لمح إلى جانبه ورقة ملصقة على عمود إضاءة قرأ فيها :- باريس مدينة الأنوار لكن بالقرب من برج إيفل يمكنك قلب النور إلى ظلام ماذا تنتظر؟ إن كانت حياة الآخرين تعنيك فعليك أن تثبت جسارة الأمورُ الجيدةُ لا تأتي دون نَصَب عليك أن تلاحظها كي تكتشفها هل تظن بأننا نعبث بك؟ على أي حال دعك من هذا الهراء وتأمل بداخلك تجد الجواب يمكنك صنع الفارق

ويمكنك إنقاذ الأصدقاء لا تكن أحمقَ كالبعير وإن كنت تخشى المصاعب فأنت تقرّ بأنك غير جدير بالصداقة فإمَّا أن تعيش لنفسك وإمَّا أن تعيش للآخرين خذه الآن وبعد عشرة أيام الخميس التاسع عشر من نوفمبر السابعة صباحًا تحمل أمتعتك وجواز سفرك ستجد كل شيء جاهزًا .

ارتمى يحيى على أريكة في الصالة لكن عقله كان يئن من فرط التفكير. شغَّل التلفازوغفا ولم يفق إلَّا على سمع صوت الباب يتكتك. انتبه إليه فرفع بصره عليه حتى بانت كارمن من خلفه تحييه بجفاء، وذهبت سريعًا إلى غرفتها، ثم عادت لتسأله إذا ما كان قد تناول العشاء، فأخبرها بأنه ينتظر عودتها، فمنذ فترة طويلة لم تتح لهما فرصة تناول الطعام سويا. ذهبت إلى المطبخ لتعد كفتة اللحم مع المكرونة. وجلسا لتناول العشاء . بعد عدة لحظات فاجأها يحيى بقوله:

- سأطير إلى باريس بعد عشرة أيام.
- هكذا دون خبر؟ إذًا ولِمَا تود السفر؟
- أرسلوني في مهمة عمل.
- أنتَ لم تعد قادرًا على قول الحقيقة تريد تركي هنا وحدي وأنا أموت من الرعب ؟
- حبيبتي أنا لست مسافرًا في عملٍ أنا عرفت مكان آنا ولو ترين الموضوع لا يستحق فلن أسافر .
- ومن قال لك بأنها في باريس؟ اليوم ذهبت إليها في مقر عملها سألت عليها ولم أجدها وعرفت بأنها طلبت بنفسها إجازة لزيارة والدها في تل أبيب ثم وجدتني أصمت .
- آنا في باريس يا كارمن وسام يعتقد بأنك من دفعتيها لإتهام سام بالاستيلاء على القلادة.
- إذن تعرفَ بأنَّ سام هو من يفعل بها هذا السخف؟ لكنَّ شيئا من هذا لم يحدث وحتى آنا لا أذكر أنها لا تزال منشغلة بأمرها.
- لكنها فعلت.
- تكلم معي بكل وضوح هل تحدثت إلى الاعلام بشأن القلادة ؟
- دعك من هذا سأسافر إلى باريس وأبقى وراءهم حتى أعرف غرضهم ؟
- أرى بأنكَ تحتاج للتحدث إلى سام لتفهم منه أولًا.
- سام كلمني اليوم وكان منفعلاً بعث عبري برسالة تحذيرلآنا كي تتنازل عن قضية قال بأنها رفعتها عليه لم أفهم منه كان يهدد ولم ينتظر أغلق السكة في وجهي لو كان يعرف بمكانها لما أمرني بإخبارها .
- لكني لن أستطيع على البقاء دقيقة بدونك يا يحيى .
- هل نسيتي بأنك حامل ؟
- لا يهم قدمي على قدمك.
- لقد اتخذت قراري سأسافر وحدي ولا تحكي معي في هذا الأمر .

ومساء الاثنين عبر سكايب حلَّ سام ضيفًا على برنامج تليفزيوني، وكان ممدوح يمر بفترة نقاهة فمكث في منزله استجابة لنصيحة الطبيب. ذهبت مليكة نعوم لزيارته وأيقظته ثم أدارت له التلفاز وذهبت لإعداد القهوة، ولمّا عادت وجدته مستلقيًا يتابع اللقاء . رسمت على خدها ضحكة غامزة وهي تقول : - يبدو أن السهرة الليلة مع صديقك القديم. فلوَّح لها لتُخفِّض صوتها بينما يرفع صوت التلفاز. استهل المذيع حلقته بالتقديم قائلا :- مساء الخير يزداد الشد والجذب في المشهد الأمريكي بين إدارة الرئيس الأمريكي والمرشح المنتخب الذي يَعتبر الحزب الجمهوري يَمر بموقفٍ صعب وأكَّد بأن رفض الرئيس الاعتراف بفوزه لن يُغير شيئًا مُتعهدًا بإعادة الولايات المتحدة إلى مكانتها الدولية فما تأثير ما يجري على الأمن القومي الأمريكي؟ وإلى أين تقود الأمور؟ وللإجابة معنا من نيويورك المرشح عن الحزب الجمهوري العضو البارز السيد سام رودريغز.

- دعنا في البداية نقول بأنَّ المرشح المنتخب ماضٍ بطريقه غير مكترث بتغريدات الرئيس برأيك هل تنقلب النتيجة؟ أم أنها قد حُسمت بالفعل؟
- بكل تأكيد المشهد لم يُحسم ومن قال بأنَّه حُسِم ليس لديه أية خلفية عن كيفية إجراء الانتخابات هناك احتمالية لأن تتدخل المحكمة العليا إذا ما جهَّز الرئيس ملفًا قانونيًا قويًا.
- لكن وسائل الاعلام وعلى رأسها فوكس نيوز أعلنت بأنَّه الفائز ثم انقلب عليها الرئيس ونعتها بالمزيفة فلِمَ لا يزال يشكّك في نزاهة الانتخابات؟

- كما قلتُ لم يتم أي إشراف على النحو اللازم الإشراف على الصناديق يكون والديمقراطيون والجمهوريون ينظرون إليها ولكن الأساليب لم تكن مُؤَمَّنة هه أنا لا أؤمن بنظرية المؤامرة ومع ذلك لا أؤمن بالصدفة وبعدما كان الرئيس متقدمًا تش اختفت الأصوات وهذا مخالف للدستور .
- تعلم بأن وسائل الاعلام تناقلت خبرًا لأمر وزير العدل بفتح تحقيق بشأن احتمالية حدوث تزوير وفيما يبدو أن الرئيس يستنجد بأنصاره بينما يشعر الخذلان .
- بلى هو قال ذلك.
- لكن المرشح المنتخب بات يمارس حياته فعليًا كرئيس .
- أكرر لقد وُجِهنا بنتائج غريبة والرئيس كان متقدمًا ليلة الانتخابات ويتوجب على الأمريكيين الشرفاء الاستمرار بالتبرعات لسداد ديون حملتنا لنواصل الكفاح وأدعو رجال الأعمال الوطنيين لدعمنا وإلَّا فستسرق منا الرئاسة.

صاح ممدوح وطلب منها غلق التلفاز. تهدَّلت مليكة ونزلت عن جواره، وذهبت لإحضار كأس ماء؛ ليأخذ دواءه، ثم عادت قائلة :- هل علمت بما حدث هذا النهار؟ أومأ بلا اهتمام نافيا، فاستطردت قائلة :- الكاتب البريطاني مراد نبيل عُثر عليه منتحرًا ألقى بنفسه من شرفة منزله بإحدى بنايات لندن هذا أمر مروع فيما لا يعرف سبب إقدامه على ذلك بعد. فتنهَّد ممدوح قائلًا :- تحدَّث بشأن القلادة واعترف بأنه أودعها بدير سانت كاترين لقد خدعنا كل تلك المدة حين جعلنا نبحث لسنوات في خربة آمون من دون جدوى.

- هل كان صديقك؟ فقد اتصل بك منذ أيام بينما كنت نائمًا وأخبرني بأنه يبغي لقاءك لأمر مهم.
- ليت لقائي به كان سيجدي نفعًا أو يؤخِّر مصيره

جالت مليكة على المكتبة خاصته، فوقعت يدها على مذكرة صغيرة وقالت :

- يبدو أنكَ تحب كتابة المذكرات سأقرأ منها.

عندما كنت صغيرًا كنتُ أرى الكون بعيونٍ بريئة، كنتُ أحسبُ أن الحياة مليئة بالمغامرات والأحداث المثيرة، كنتُ أتطلع أن أكبر سريعًا حتى توغلت قدماي فمضت السنون بسرعة، وأصبحتُ شابًا يكتظ بالطموح، لكني في تلك المرحلة بدأت أتعرف على معنى التمرد، وكان أول ما تمردتُ عليه هو شعوري البشري بالخوف: الخوف من المخاطرة، الخوف من الحياة، الخوف من الموت، والخوف من الله. قلت لنفسي كم أبدو ساذجًا إن سمحت لنفسي بالخوف أوالتورع عن فعل أي شيء يبغضه الله، إن مضيت كما يمضي البسطاء الذين لا يمتلكون سوى الخوف الذي يقودهم نحو المجهول، ثم يعرج بهم إلى الجحيم، والخوف يمنع عنهم المعرفة التي تنزع عن وجوههم السعادة، وتمنحها لغيرهم ممن لم يعرفوا. رأيتُ الناس يخافون من النهاية، لم أفهم عن أي نهاية يتحدثون، أهي نهايتهم لحظة الموت؟ أم نهاية العالم؟ أم يوم القيامة ؟ ومع ظهور الأشياء الخارقة كيأجوج ومأجوج ومسيح أخر الزمان؟ رأيت أن الخوف صنيعة بشرية، والمعتقدات تؤججه في النفوس. كنت أحسبها بمثابة دعاية ركيكة؛ لرفع معنويات ضحايا الظلم في كل العصور، دعاية هدفها بث الأمل. فكانت مثل تلك التحفيزات تجد طريقها في صدور البائسين. قلت لنفسي :

- لا أريد أن أكون مثلهم لا أريد أن أكون ضحية أتجرع الويلات على رجاء النعيم بل إنني أسعى للنعيم الحالي المضمون.

أخبرت نفسي قائلا :

- دعكِ من الهراء فهذا لن يجدي .

ثم توغلت في الكهولة وعندها أيقنتُ أنني فشلت في ذلك، وتعرفتُ على نوعٍ جديد من الخوف: الخوف من المستقبل، الخوف من الفقر، والوحدة، فدفعني لأنْ أنجو منه بأن تتوحش نفسي؛ سعيًا في طلب الثَّراء والنفوذ . وحينما أصبحت في أخر الشباب، ازداد الخوف في نفسي، وبات يصارعني، ويحمِّر لي عن جفنيه، بينما يفصح عن نفسه بأنه شيطان عظيم، فصرتُ أخشى على صحتي، وثروتي، والسلطة التي بين يدي، والمنصب المحصن. أما وقد شارفت على النهاية أجد نفسي أملك الأريحية الكاملة لأن أقول بعلو صوتي :

- لم أعد أخشى شيئًا ولم يعد الخوف يظهر أمامي كل شيء مضى سريعًا ولم يغنِ عني مالي ولا سلطاني وبقيت ثروتي الطائلة التي لن تُبدِّل مصيري.

في شبابي كنتُ أقول :- لا أريد أن أكون من حزب الله إنهم يعانون ويصبرون ويحتسبون على أمل بنيل الجنة.

كنتُ أظنها حماقات خادعة، فهربت نفسي من الله إلى النعيم الأرضي. كنت أظن أن بقائي ضمن حزبه لن يمنحني الخيرات، فأردتُ التمرد على سلطته، حتى مُنِحَت العطاء الوفير. كنتُ أظن بأنه مخيفٌ على نحو عميق، ويُعلِّم الإنسان كيف يكون جبانًا ذليلًا لإله لا يُرى، لكني أعود طفلًا من جديد لكن وحيدًا، متقاعدٌ راقدٌ بفراش المرض، قرب نهايته يتذكر ربَّه كما يتذكر الطفل أمَّه إن دعته نفسه لاقتراف ما يغضبها؛ لأنه يحبها ولا يريدها أن تغضب. اكتشفت بالنهاية بأنَّني أحبه وأرغب به وأشعر برحمته على عكس ما كنت أشعر بالخوف منه. فأنا لا أخافه بقدر ما أحبَّه وأعلم أنه يبادلني الحب وأنه يخاف عليَّ أكثر من غضبه مني، وأنه لا يرتجي مني الذل إليه بقدرما أنه لا يريدني ذليلًا لنفسي، وشهواتي، ورغباتي الجامحة.

أرخى ممدوح جبينه على الوسادة، وظل يُفكر فيما كتب. خلعت الذكريات النوم من جفنيه، وأبدلته بالسهد والأرق لعدة دقائق طويلة حتى انطفأت في عينه المغلقة كل أنوار الدنيا، وغطَّ في نومٍ عميق، بينما لم تفارقه الأحلام لتعيد عليه كل أحداث الماضي وكأن عمرًا مديدًا وعقودًا منصرمة لم تمضِ عليها.

-6-

باب هَارِشُوْنَاه

(الجمعة ٢٨ يناير - ٢٠١١ م)

كان زيدان في ضيافة حمدون بوزريبة عضو مجلس الشعب السيوي ذي الحصانة النيابية، وهو شيخ إحدى القبائل الإحدى عشرة، وقد ربح عهدة جديدة لعضوية مجلس النواب كممثلٍ لكل القبائل الأمازيغية . كان الرجل ذا عمامة بدويَّة وجلباب أبيض أنيق من فوقه صديري مطرَّز. وكان مصطحبا معه سام الذي أبدى شغفًا كبيرًا لزيارة الواحة التاريخية. رحَّب بهما حمدون ترحيبًا ودودًا، ثم دعاهما للدخول إلى معسكره على طراز الأمازيغي، حيث يضم عدة غرف بدوية للمبيت، في غاية البساطة والراحة. كانت قلعته السياحية الجديدة تطل على إحدى بحيرات المِلح المنتشرة في مختلف أركان الواحة، ولقد صمم كهفًا خاصًا من الملح. لقد شجعهما على ذلك حين أخبرهما بأن الجلوس لدقائق داخله في استرخاء على أضواءٍ خافتة مع أنغام موسيقى سيوية يساعد في علاج الكثير من الأمراض النفسية، والروحية، والجسدية؛ فما ترك لهما فرصةً لرفض الدعوة.

قال حمدون مُرحِّبًا :

- ياهلا والله كيفيش داير؟ كلشي مزين؟ تفضل شيحال انتا هينايا[4]؟
- يومان ثلاثة وأعود.
- ماتعرفناش على صحبك ياويلكام اتفضل تبغي نسويلكم الشاي السيوي؟
- أنا لا أريد شوف لو سام يحب يشرب شاي.

ابتسم سام وقال :- أفضله زيادة من فضلك. فعلَّق حمدون قائلًا :- يا مرحب يور أرابك إذ فيري جود. فقال ممدوح:- سام يفهم العربية بس ميحكيش بيها. كان يسوّي سخَّان الشاي على موقد الحطب وهو يقول :- راح نتكلمو باللغة التي يريد هاو آر يو ماستر سام إنجوي يور تايم إن سيوة. فتصاعدت ضحكات مدويةً في كل أرجاء الكهف. وكز سام زيدان قائلًا :

- سمعنا بأن القاهرة تشهد احتجاجات شعبية.

فسارع حمدون ليقول :- سيبهم يلعبوا على رأي فخامة الرئيس. ثم صبَّ الشاي فأكد عليه وهو يشير على سام قائلا :- هذه أول زيارة له لسيوة على الرغم من أنه يفضِّل مصر أكثر من أي بلدٍ سياحي آخر. فقاطعه سام قائلًا :- إلى جانب الكثير من الأعمال الخاصة وهي فرصة لقضاء بعض الوقت مع أهل سيوة الكرام. اضطجع حمدون على جنبه بينما يقول:- أنتما صديقان قديمان إذن؟ تنهد زيدان وقال مستطردًا:- صحيح فقد تقابلنا لأول مرة منذ عقد كان ذلك عندما جاء بصفته باحثًا لحضور حفل افتتاح الجالية اليهودية المصرية لأول معرض جِنيزاه كنت وقتها أترأس لجنة حصر الآثار اليهودية وقد احتفلنا سويًا برأس الألفية الجديدة.

---

4 كيف تدور الأمور معك؟ هل كل شيء على ما يرام؟ تفضلا .كم من الوقت تمكث هنا؟

عاد سام برأسه إلى الوراء وهو يخبط بكفه على فخذ صديقه قائلا : - لقد قمت بدور مهم يا رجل يكفي أنك خُضتَ معركة شديدة من أجل إقناع الحكومة بإقامة متحف للآثار اليهودية بمصر ورغم أن ذلك لم يتم بالشكل المرضي إلّا أنكَ أبديت حماسةً عاليةً لإقناعهم باستبدال المتحف باسم المعرض كان عملًا عظيمًا بحق لا يمكن إنكاره.

اقتطع حمدون طرفًا من الحديث فقال:- بالمناسبة لا أعرف كيف أشكرك على دعمك لي بالانتخابات أتمنى الشراكة ما بيننا تزيد أنا ممتن لك كثيرا يا معالي الوزير لا معالي الوزير إيه؟ ده سيادتك أعظم سمسار آثار في مصر والشرق الأوسط نعم ياباشا زيارتك شرف لنا اتفضل عرق البلح السيوي الذي تفضله طعام الملوك.

أصداء قهقهات تدوي لعدة ثوانٍ.

اجترع زيدان من الكأس، ثم التقط أنفاسه ليقول :- أنت تستحق يا سيادة النائب وما يزال بيننا شغل كثير الفترة القادمة ولا أريد مستر رودريغز يرجع يده فاضية. علت ابتسامة وجه سام ورقَّت ملامحه إذ قال :- نتمنى أن تتم أعمال التنقيب على قدمٍ وساق وفي سرية بعيدًا عن أعين الأمن أليس كذلك؟

- لقد أعطيت أمرا بعمل كورديون شامل على المعبد الذي في الخربة ولا تفتح أبوابها للزوار ريثما ننتهي كيف أصف مشاعري وقد قاربت أعظم أمنياتي على التحقق ولكن قبل الإعلان عن كشف اللوحة الجيرية التي ترشد إلى قبر الإسكندر الأكبر لابد أن يكون سام في أمريكا ومعه القلادة التي نبحث عنها.

صاح حمدون قائلا :

- وشرف معاليك هذه اللوحة ستكون أعظم اكتشاف في الألفية الثالثة.
- أرى أنه من الأفضل الإسراع فالأمور بمصر ليست على ما يرام.

قالها سام فعقَّب حمدون قائلًا :- هادول عيال عالفيسبوك طايشين معاليك المهم ألّا يحدث تعديل وزاري نحنا في أمس الحاجة لدعم معالي الوزير. فقال زيدان بنوع من القلق : - هل عندك أخبار جديدة؟ أجاب حمدون في ضجر :- سمعت بأنه هناك حظر تجوال.

- جئتُ حتى أروق لا أحبذ سماع أخبارك التي كما الزفت على أخر الليل لقد أكدتُ عليهم ألّا يعكَّر مزاجي أحد .
- تمام معاليك أظن كفاية كلام وندعكما تستجما في الكهف ساعة وأعود تحبا أطفي النور وأولع شموع؟

فتحمس سام وهمَّ بالاضطجاع على ظهره قائلا :- يكون ذلك أفضل.

استلقى زيدان على ظهره شبه عارٍ، وثني ذراعه، وشبَّكهما فوق عينه. أحسَّ بطاقة عجيبة تنبع من المكان، طاقةٌ تسحجه إلى أحلام قديمة، وتريه مشاهد من حياته مضت. رأى فيما يرى الحالم وكأنه يقف وسط جمع عظيم عند باب معبد آمون، وكان أهل متوفى يحملون تابوته في موكب حاشد، وآخرون يحملون فوق رؤوسهم سلعا يرون أنه يحتاجها في الحياة الآخرة، حتى يتم توجيهه إلى غرفة التحنيط. جعل الكاهن يقرأ بعض النصوص الجنائزية من كتاب الكهوف، ففاحت رائحة البخور التي قام بحرقها أثناء تلاوة تشفع له خلال محاكمة الموتى في العالم الآخر، بعد صعود النفس على شكل طائر برأس إنسان. كانت النساء تصيح بالمراثي، وأهازيج الموت والمبكيات، والرجال يصطفون إلى جوار بعضهم البعض خلال الصلاة. ثم لمح وجه مليكة وسط النساء في المؤخرة. أخذ يصيح عليها، متخللًا صفوف الرجال، بينما كانت تبتعد عنه أكثر حتى تلاشى أثرها. نادى عليها بعلو صوته دون جدوى. أدارت الجموع ظهورها، وهمّوا بالرحيل بعد انتهاء الجنازة. مضت لحظات وتلفت حوله فلم يجد أثرًا لمخلوق، فدخل إلى قدس الأقداس، فإذ به يجده خاليًا من البشر، لا أثر للكهنة أو عمال النقش والتحنيط الذين كانوا موجودين منذ برهة، ما جعل جسده يرتجف في فزعة. أخذ ينادي على الكاهن بلا توقف قائلا :

- أيها الكاهن العظيم أين أنت؟ هل من أحد هنا؟

وبينما ينظرإلى التابوت يسمع صوتًا يهدر من الخلف، فارتدَّ على عقبيه إلى حيث باب المعبد. حتى تراءى له طيف سارة وهي تقبل عليه من بين الجموع المدبرة. رويدًا بدأت ملامح العالم المحيط به تتبدد، ثم تتغير إلى معالم أخرى نقلته بعيدًا إلى مكانٍ بدا له شاحبًا قبل أن يتضح. حتى صاح قائلا :

- أنا هنا يا سارة لقد عدتُ إليكِ.

***

(صيف عام ١٩٨٤ م)

أقبلت عليه سارة قائلة :- متى عدت ؟ فأجابها ممدوح وهي بين ذراعيه قائلا : - من يومين أستوحشك يا سارة.

- أنا من يشعر بالوحشة إليك هل تتذكر أيام سمرنا على الكورنيش؟ لكنك تبدلت كثيرًا شكلك ملبسك كلامك هِيْ أريدك أن تحكي لي بالتفصيل كيف كنت تعيش؟ ومتى صرت هكذا؟ أما تزال تعتقد بأنَّني السبب في التغيير الذي طرأ معك؟
- إنها حكاية طويلة تعالِ هنا أخبريني عنكِ؟

تحسست سارة كفه بحنو، وبينما يفرك يده بيدها سردت له قائلة :- مذ سنتين اقترنت بمنتج سينمائي يكبرني بخمسة وعشرين عامًا أبي ضغط عليَّ أما هو فوعدني بأنه سيحقق حلمي ويجعلني أمثل في السينما اشترط أن يظل زواجنا عرفي بدون علم زوجته الأولى فلاحةٌ تعيش وأولادها في المنصورة حتى شركة الإنتاج خاصته كتبها باسمي وهكذا اشترطت عليه فكان رده أنه مستعد يدفع شقى عمره لأجل نيل رضاي لكني ما أزال أحبك يا ممدوح خيالُك لم يرح عن بالي لحظة وحتى صورتك أحتفظ بها في صدري .

- أنا كذلك عمري ما نسيتك.
- هل تفكر في السفر مجددا ؟
- لم أعرف بعد لكني عدت للتدريس بالجامعة.

ثم وقفت مرة واحدة وصاحت فيه قائلة:- ممدوح هلمَّ بنا نلحق بذاك الأوتومبيل.

بفيلا حي الهرم دعته للدخول دون قلق، ثم سحبت يده برقة إلى غرفة النوم، ومضت إلى البار، وصبَّت لهما كأسين فودكا مع مكعبات ثلج. وما إن فرغا حتى أجهزت عليه بحرارة لتُخلِع عنه ثيابه .انفرط عقده عندما وقعت أنفه على رائحة جسدها. كانت رائحتها الناعمة تثيره وتزيده شغفًا نحوها وإقبالًا عليها. لم تدع له فرصةً للتفكير، فارتميا على الفراش بعدما اقتطفت العاشقة قبلة دافئة من فمه، لتزداد فورة اللقاء بينهما. ارتمى ممدوح على ظهره، ووضعت جبينها فوق صدره، وراحت تمسح عن خدَّيه ما انهمر من عرق، وهي تقول:

- كنت أنتظر عودتك كل يوم كان عندي أمل بأنك ستعود.

قبَّل خدها وقال:- وإن ما كنت عدت؟ فقالت له :- كنت واثقة من عودتك سألت عليك دون أن تشعر وكنت أعرف عنكَ كل شيء. اعتدل ممدوح وأقام ظهره على الوسادة قائلًا:- من كان يأتي لكِ بأخباري؟

- ما لك فزِعت حين عرفت بأني كنت أسأل عليك؟ ماذا كنت تتوقع مني؟

وثب عن السرير، وهمَّ بارتداء ملابسه، فصاحت به سارة قائلة :- أنت اليوم لي وحدي بت معي والصباح رباح قلت لك بأن زوجي في البلد.

- هذا السيرة تعصبني تذكرني بخيانتكِ لي.
- أنا أحبك أنت وسأظل أحبك طوال عمري.
- حبنا الآن لا يكفي لا يمكنني أن أستمر بعلاقة بهذا الشكل.
- بإمكاني فعل أي شيء لأبقى بجانبك.
- أي شيء مثل ماذا؟
- مثل أنه يمكن لنا التخلص من زوجي.

نظر لها باستنكار، ثم صاح قائلًا:- مجنونة أنتِ؟

- كل ما تراه سيكون من نصيبنا سنتزوج وتؤول شركة الإنتاج لي وأنت ستأخذ نصيبك .
- لا يمكنني طاعتك في هذا الهراء.
- دوحة لقد خططت لكل شيء وانتظرت عودتك هذه فرصة توقعت أن تفرح بها.
- فرصة أن أقتل؟ أفرح بأني سأقتل؟
- نحن لن نقتل سنجعله يتناول بنفسه جرعة زائدة من الإنسولين إنه رجل أميٌ ودماغه قفل لا يرضى أن يعطيه الحقنة أحد غيره فلو حقن نفسه بجرعة زائدة يكون كمن قتل نفسه .
- سينادي على الشغّالة أويطلب الإسعاف.

- الشغّالة لها يوم في الأسبوع راحة والتليفون سيتعطل قبلها بيومين وسأكون في مشوار .

وأضافت وهي تغمز بعينيها قائلة :- وسأتأخر.

- ربما قاد سيارته إلى أقرب أجزاخانة أو اسبتالية وساعتها سيكشفكِ يا هانم.
- سآخذ سيارته سيكون وحده أنا أعلم المواعيد التي يتناول بها الحقنة.

ثم ربتت على ظهره وهي تتمتم قائلة :- فكرتي ليست بسيئة لكن أريد منك طلبًا صغيرًا ستمضي لي على إقرار بأنك شريك معي. نظر لها باندهاش قائلًا:- تظنين بأنني سأغدر بكِ؟

- هدّئ أخلاقك تعرف على أي شيء نتفق؟ بصراحة أريد ضمان أن شيطانك لن يغويك عليّ .

كانت سارة تحضنه من ظهره بينما سيماء الذهول بائنة عليه وهو يقول :- عرفتكِ تُقبلين كالحمل وتَروغين كالثعلب ثم تلتصقين كالظل ولا أعلم إن كنتِ ستتبدّدين أمامي كالحلم؟

- بل سأبقى معك طول العمر.

قالتها سارة وهي تقبّله.

وبعد أقل من أسبوع عاد مسعود رضا إلى القاهرة. وبيوم إجازة الخادمة هانم دخلت عليه سارة وهو نائم وأبلغته بأنها قد أعدت الحقنة له، وبأنها تركتها فوق المكتب، وأخبرته أنها ذاهبة لحضور حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها. ليلتها نهض في ساعة متأخرة حيث اعتاد على النوم نهارًا والسهر طيلة ساعات الليل. وجد الطعام مُعدًا له بالمطبخ، فأسرع بحقن نفسه بالأنسولين، ثم ذهب لأخذ حمام دافئ؛ استعدادًا للذهاب إلى استوديو التصوير الخاص بفيلمه الجديد .خرج من الحمام عاريًا بينما ينشف وجهه، وما إن أخرج رأسه حتى صرخ فزعًا، إذ لم يكد يصدق عينيه لرؤية زوجته الأولى نجيبة ماثلة أمامه على نحو فجائي. هرول لارتداء ملابسه الداخلية، بينما يصيح بها قائلا :

- أنتِ كيف دخلتِ إلى هنا؟
- تتزوج علي بعد هذا العمر؟ تستعميني وأنت تلهو مع واحدة أصغر منك بعشرين عامًا؟ ورميني وعيالك في المنصورة ودومًا تتحجج بأن لديك مشاغل كثيرة في القاهرة وما أدري أن عملك هنا غراميات.

أمسك بذراعها بوحشية، ثم ثناه خلف ظهرها، بينما يدفعها أمامه ناحية باب القصروهي تقاوم، وصاح قائلاً :

- كيف لكِ أن تسافري بغير إذني؟
- ركبت وراءك القطار ونزلت في المحطة وتتبعتك بالتاكسي حتى عرفت عنوانك.

جن جنون مسعود فأسقطها على الأرض، ثم أجهز عليها. أمسك بها من قدميها، وراح يجرجرها تجاه الباب، فصرخت قائلة:- لن أرحل قبل أخذ حقي وحق عيالك الغلابة في النعيم الذي تتمرّغ فيه أنت والحربايةالتي لفّت ودارت عليك. فأنهَضها قُبالة الباب، وأمرها بالرحيل مهددًا بدفنها بالجنينة، فعاندته، فأسرع إلى غرفة نومه، ثم عاد في لمح البصر، صائحا بغضب إذ يقول : - ارحلي هذه الساعة يا نجيبة وإلّا أفرغت المسدس في صدرك خذي أول قطار وعودي للبلد حالًا. هجمت عليه نجيبة محاولةً التشبث برقبته فأسقطت مسدسه، ولمَّا تمكَّن منها شدَّ الخناق حول رقبتها بكلتا يديه وهو يقول :

- تظنين بأني إمام جامع بل إني معتاد الإجرام.

تدَّلى لسانها خارجًا من جوفها، وجحظت عيناها، وما عادت تقوى على الصراخ. انحشر الصوت في حنجرتها، بينما ترفِّس بكلتا قدميها للإفلات منه، لكنه ظل يضغط بكل ما أوتي من قوة صائحًا فيها بقوله :

- موتي أيتها الفلاحة الحثالة موتي.

ارتجفت يده على نحو فجائي، وباغته شعورحاد بعدم التركيز لمَّا اضطرب بصره وازداد خفقان قلبه. ظل يحاول يائسًا أن يبقى متماسكًا لكن تراخت أعصابه، وانفلتت قبضته من حول رقبة نجيبة التي سقطت من بين يديه على الأرض. تقهقر مسعود محاولًا التشبث بأي شيء من حوله حتى اشتدَّ به الدوار، فارتمى على أحد المقاعد الخلفية، وأمسك برقبته مُجترًّا لسانه في شعور بالاختناق، وكلما همَّ بفتح عينه يتملك منه الدوار. تراخى جسده بشدة وأحسَّ كأنما اختطف في دوَّامات هائلة لا تنفك تدور، واستمر في نزعه الأخير حتى توقف قلبه عن الخفقان، ومات. مع مطلع الفجرعادت سارة حيث أبدت صدمتها حينما وجدت نجيبة ميتة على أرضية الرواق. بغضون دقائق حضرت الشرطة وفرق التحقيق الجنائي إلى القصرورفعوا البصمات وأنكرت أي علم لها بضرتها، وكل ما كانت ترده هو أنها فوجئت عند عودتها بجثتها وزوجها ميت على مقربة شبه عارٍ. اقتادوها إلى

قسم الهرم حيث بقيت ساعات طويلة يتناوب عليها ضباط التحقيق. ادَّعت أنها على وشك الانهيار النفسي، وبالفعل أسقطت نفسها على الأرض، فأحضروا لها طبيبا حقنها بمادة مهدئة، ثم واصلوا التحقيق معها كمشتبه بها .

تم إخراج المحضر على أنه جريمة قتل نشبت عن عراك بين المتوفى والقتيلة التي اكتشفت أمر زواجه العرفي بأخرى، ولكن بعرض القاتل على الطب الشرعي خرجت النتائج لتثبت حصوله على جرعة زائدة من الإنسولين، وعليه تم استدعاء الخادمة هانم إلى مقر الشرطة. باستجوابها أكدت نفس كلام سارة بأن مسعود اعتاد على أخذ الحقنة بمعرفته، وشهدت بأنه كثيرًا ما كان يقوم بملء السرنجة بنفسه. ومع التقرير الذي بيَّن أنه مصاب بالسكري من النوع الأول، وأنه كان يعاني من معدلات مضطربة لسكر الدم، ومع تأكيد سارة بأنه لم يكن مباليًا بقدر الجرعة الموصى بها فقد تم احتجازها والخادمة على ذمة التحقيق، ثم في وقتٍ لاحق تمكن محامي كلَّفه أبوها من اقتلاع أمر من رئيس النيابة بإطلاق سراحهما لعدم كفاية الأدلة، وأغلقت القضية.

أبدى إبراهيم عناني رفضًا تامًا لقرارها بالزواج من ممدوح؛ بعدما علم بأنه من وراء اختفاء القلادة من منزله لكنه لا يملك دليلا عليه. أصرَّت ابنته على قرارها، فتزوجا. مضت سنون نجحت فيها بإدارة شركة للإنتاج السينمائي وبفضلها سطعت بنجمها في الأوساط الفنية، وغدا المخرجون يتكالبون عليها للحصول على مباركتها للمشاركة بدور البطولة في أفلامهم، وأضحت الجرائد والمجلات تتحدث عنها بقدر عال من الاهتمام.

نمت ثروة ممدوح مع ذلك لم يشأ ترك عمله بالهيئة العليا للآثار إلى جانب التدريس، وحصل على شهادة الدكتوراه الأولى عام ٩١ بعد وفاة أمه روحية بأسابيع. ولم يكن ليصدق أباه الذي أفشى له بسر زواجه وهو في الستين من عمره، وعندها عرف بأنَّ له أخا من أبيه يدعى يحيى وبلغ الثلاثة أعوام. فقد ظل الحاج عبده يعمل بالأجرة لدى عناني حتى واتته الفرصة أواخر السبعينيات للبدء في إدارة أول مشروع مستقل، واشترك من آخرين ورخَّصوا مصنعا كبيرا كان له فيه النصف، ما أوغر صدرعناني الذي لم يتوان عن محاربته حتى وفاته. وبعد معرفته بسام رودريغز ندم ممدوح على تفريطه في القلادة وتحسَّرعليها، وأخبره بأنه يعلم بطريقها. بحث سام عن مراد نبيل حتى علم بأنه يقيم في لندن فأرسل إليه، مع ذلك تبين أن ما فعله كان تمويهًا لإشغالهم بالبحث في مكان آخر غير الدير، قبل أن يرغموه لاحقا للإقرار بأنه خدعهم ويرشدهم على مكانها. وقد تغيرت الأمور كثيرًا بعد زيارته للكهف حيث كانت له أمنيتان رأى إحداهما تتحقق بأسرع مما تخيَّل، ولم تمض سبع سنوات حتى علم بأنه مرشح ليكون أصغر وزير يشغل حقيبة الآثار في تاريخ الوزارة.

بات أدهى وسيط لصفقات تهريب الآثار للخارج، وبينما يحفر اسمه في الصخر ما فتئ يُدثّر كل تجّار الآثار تحت عباءته؛ ليحتكر النشاط وحده حتى صار حوتًا هائلًا يُشار إليه بالبنان في كل محفل رسمي وغير رسمي على أنه أعظم من رصد أماكن اختباء النفائس في البلاد. وبمرور السنوات فترت علاقته بسارة التي باتت تشعر بالاستقلالية في حياتها وتتعدد علاقاتها، فكثيرًا ما تسافر للتصوير، وتقضي أوقاتًا بعيدًا عنه. كان يتمنى أن يصير أبا ولمَّا أنجبت له آدم بعد خمسة عشرعاما لم يعترف به في داخله، فالأطباء أكدوا استحالة قدرته على الإنجاب، وبقيت الشكوك تساوره وهو يراه يكبر أمامه كل يوم. ومع الوقت بات يضجر منها حتى حين رغبت في الطلاق بعد خمسة وعشرين عاما لم يتردد حيال هذا وكان عمر آدم حينئذ لم يتخط الأحد عشرعاما، ولم يمر وقت طويل حتى تمكنت من الزواج برجل أعمال يهودي شاب، وانتقلت للعيش معه بالولايات المتحدة. رفضت سارة تحمل مسئوليته فيما تنكَّر له أبوه فأودعه دارررعاية أطفال. وبعد بلوغه الثامنة عشرة أرسله إلى باريس للالتحاق بالجامعة، ومنذ ذلك الوقت انقطعت أخباره بأبويه. ومن بعد الانفصال بات ممدوح وحيدًا غير راغب في الزواج منغمسًا في الكرسي والأعمال والحياة المترفة، فصار أقبح مما كان، وجعل يقبل على الشراب بإدمان حتى قيام الثورة.

-7-

باب 4859

في فبراير الماضي أثار خبر العثور على جثة دون رأس في باريس نوعا من الهلع الشديد بين المواطنين. تتحدث وسائل الإعلام على أن الضحية هي طفلة لم يتجاوز عمرها الخمسة أعوام، تم هتك عرضها بوحشية، وتفتيق أحشائها بعد شقِّها. ألقي القبض على الجاني، الذي اعترف لاحقًا أنه قام بذلك بغية تقديمها كقرابين. وذات يوم أرادت صديقتي في الجامعة إيفون أن تشي لي بسرٍ عرفته لأول مرة، فأخبرتني أنها تقع تحت وطأة معاشرة زوجية مع الشيطان. استخففت بكلامها، فعرضت عليّ أن آتي معها إلى كنيسة الشيطان بأحد القصور المهجورة في وسط العاصمة الفرنسية، وهذا ما حدث.

كان أول ما وقعت عيني عليه عند المدخل تمثال ضخم للشيطان وهو في وضعية جلوس، رافعًا ذراعيه كأنه يؤدي التحية. وحضرت القدّاسَ الأحمر الذي يُعقد أسبوعيًا تمام الثالثة من بعد ظهر الجمعة إلى نهار السبت، وفيه وُضعت الصلبان مقلوبةً ومحاطةً بالشموع السوداء حول المذبح، وقد أضيفت إليها بقايا من قلب مستخرجة من جسد طفلٍ سِفاح. وكانت المرة الأولى لي التي أشرب بها دمًا لأصبح بعدها في حالة إعياءٍ عقلي كامل ما جعلني مهووسًا أشعر بنشوة غامرة للانضمام. تسنى لي مشاركة

الممارسات التي مثّلت لي شيئًا من الإثارة، والجموح، والتمرد مع شغف التجربة. حتى كان يوم أن همست بأذن إيفون وطلبت منها أن تساعدني على الانضمام إلى الهيكل .

وباحتفالٍ مهيب وقف الكاهن الأعظم أمام المذبح الذي حفَّته الشموع، واضعا فوق وجهه قناعًا شيطانيًا، وارتدى معطفًا أسودَ مطرزًا على صورة هيكل عظمي، ثم قدَّمتني إيفون كعضو جديد مفعمٍ برغبات شاذة مرتديًا معطفًا من الحرير ناصع البياض. كان الرجال يرتدون الملابس ذات الألوان السوداء، فيما وضعت الفتيات على شفاههن اللون الأسود والأظافر، وبينما يتطوعون فُرادى لتقديم قرابينهم البشرية، امتُلِئَت أجسادهم برسومات وشم مرعبة. احتشدت نحوي أنظارهم في تبتلٍ وخشوع، وكانوا أغلبهم مجموعة من المراهقين الرافضين للمجتمع والكيان الأسري. أخذت أسير ببطء وورع، ووقفت بين يدي الكاهن الصارم، والذي أشار إليّ بخلع ملابسي قطعة بعد أخرى، حتى بتّ عاريًا كما ولدتني أمي، ثم أمرني فجثوتُ على ركبتي أمام المذبح . دنا مني ماسحًا بيده فوق رأسي، فتقدم نحوي خادم المذبح ثم صنع لي جرحًا في يدي، وقدم لي قدحًا من الفضة يُجمع فيه ما يتساقط من الدم النازف. أمرني أن أمرُّ به على الأعضاء فيلعق كل منهم لعقةً؛ ليتم التوحّد بينهم وبين الشيطان. تم إرغامي على التوقيع على ميثاق جديد مع الشيطان، وفيه نصٌ قَرَرْت بأني أستحق القتل إذا ما خرجت عن ميثاق الجماعة. تقدم نحوي شبح إنسان له عينان شديدتا السواد، ووجهه باهت اللون، وفي يده لمسة برودة ممثلًا للشيطان، فتناولتُ يده وانحنيتُ مُقبِّلًا إياها.

صاح بهم الكاهن ليصمتوا ومن ثم أطفأ كل الشموع التي كانت تنير القاعة؛ لتدق طبول الموسيقى بالأغاني السوداء، والكاهن يتلوعلى إيقاع ملحمي من عزف أداة التشيللو على أبخرة الكوكايين وسط الدخان الكثيف لأعواد البخور المحترقة. وقع الاختيار على إيفون لأداء دور الضحية. كانت القاعة مظلمة إلا من شموع خافتة، ومَدْفأة متوهجة تعلوها نجمة خماسية ضخمة، أمَّا مذبح الهيكل فمغطى بقماش أسود. كانت تنام فوقه إيفون عارية ويعلوها صليب معقوف. انقضَّ عليها نحو عشرة رجال مراهقين وكهول وطاعنين لجماعها تحت إشراف الخادم مساعد رئيس الكنيسة الملحد الأكبر الذي يتزعم كنيسة الشيطان. تقدم نحو إيفون مرتديًا معطفه الأسود والقلنسوة على رأسه منها قرنان صغيران إلى أعلى. شرع في تلاوة صلوات بلغة فرنسية مقلوبة ومصحوبة بعزف آخر على البيانو سرعان ما احتال موسيقى صاخبة إيذانًا ببدء الحفل. وقد بات لكل واحدٍ الحق في توقيع صك الإذعان، بأنه باع نفسه للشيطان؛ ثمنًا لتلبية كل ما يطلبه من الملذات والشهوات والنعيم الدنيوي .

نهض أحدهم وأحضر خشبة كان قد أعدها، وبها مجموعة من المسامير، ثم وقف بها بيننا قائلًا:

- إنكم تبرعتم بدمائكم ولكن لنا طلبًا آخر وهو أن يتبرع أحدكم بقطعة من جسده للشيطان.

وضعتُ يدي على الخشبة فاصلًا إصبعي الصغير عن باقي الأصابع. كان الخوف سجينًا في شيطاني بتأثير المنشطات. تقدم نحوي حاملًا قادومًا حادًا في يده، ثم هوى به على إصبعي، ففصله في ضربة واحدة وجسدي كالثلج. تقدَّم أحد المساعدين وعمل لي رباطًا فوق الجرح؛ ثم أعطوني إصبعي لآكل منه قبل نقلي إلى الطبيب.

***

(٣٠ نوفمبر – ٢٠٢٠ م)

مضت أكثر من عشرة أيام لم يتلقَ فيها يحيى أية رسالة واضحة تنم عن أي جديد، ولم يعد بمقدوره البقاء أكثر من ذلك في ضيافة أخيه الأوسط أشرف زيدان وزوجته المغربية الأصل، فيما كان ينبغي على الزوجين العودة إلى عملهما في نيويورك. إنَّ ما جاءته من رسائل لم تحوِ في فحواها أي هدفٍ صريح. كان آدم خلالها يتعمد بعث خطابات غامضة من قبيل الخواطر المُشذبة تارةً، أو الهواجس النفسية تارات أخرى، وربما أراد بذلك العبث أن يُزيد من ربكتهما وحيرتهما ليس إلّا. بدا وكأنه قريب من خطواته ويدنو ظله كلما سار بين شوارع المدينة. لجأ يحيى إلى صديقٍ له يعرفه يدير مختبرًا خاصًا للكشف عن برامج التجسس. لم يشأ أن يخبره بأن لديه صديقة مختطَفة في الإنترنت المظلم، بل أشار له بأن رسائل نصية ترد إليه بها تهديدات جدية مروعة. حوَّل الرسائل إلى صديقه الذي بدوره أحضر هاتفًا وفتح الرابط في الكبسَة الأولى، أمَّا الضغطة الثانية فأرسلته إلى موقع مخادع يعطي الانطباع بأنه ليس ماكرًا. تم توجيهه إلى محرك البحث ولم يكن توجيهًا بريئًا إليه وإنما إلى قطعة محددة من الشيفرة التي جلس أحدهم وكتبها على الحاسوب. انتهى صديقه إلى أن ذلك ربما يكون جزءًا من برنامج تجسس معقد لم يمرّ عليه من قبل. استخدم برنامجًا كمصدر وأجرى مسحًا للإنترنت، فوجد أن هذا التوجيه الثاني نحو غوغل أعيد أيضًا من قبل خمسة خوادم أخرى، وهنا بدأت الإثارة إذ كان أبرزها موقع شركة بمدينة هرتسليا، اكتشفها في نشرة على موقع للحكومة الإسرائيلية، وهي تبيع درَّة إنتاجها.

كان يتلاعب به مرات، في إحداها أرشده إلى مقهى دي روما بمنتصف شارع الشانزليزيه، وهناك جلس يحيى فجاءه النادل بمشروب قهوة معه قطعة كرواسون مغلَّفة بأناقة والتي عند فتحها وجد بها رسالة طويلة محزَّمة بشريط أحمرأشبه ما يكون بالأشرطة التي تغلف الهدايا ومختومة بشعار هرم مقلوب. وجاء بها :- منذ يومين قُتل صحفي مخبول في أحد أزقة باريس

أشعر بإحباط خفيف قريبًا تندلع الحرب آلاف البشر يموتون من الوباء والجوع أكثر من موتهم بالحروب لماذا ينبغي أن يعتبر موت شخصٍ ذا أهمية؟ لأن هناك خيرًا وشرًا؟ والشر يجب أن يُعاقب؟ مع ذلك هناك عديد ممن يستحقون العقاب نريد المزيد من الدم والمركبُ الإنسانية شديدةُ السواد أشرعتها لظى وسماؤها كالحة تعرف رائحة الرصاص والأمواج قانية تفور في سخونة شديدة ولم تشبع منذ ابني آدم والآن تهب روحك المنهكة للرب لرحمته وقضائه وتنتظر الحل؟ تخبرك نفسك ثمةُ مضطربون كالنازيين تظن بأنك الوحيد الذي يعرف هويتي؟ العالم أجمع يعلم أنا معجبٌ بذكائك الذي يحدّثكَ بأن الأمر على قدر كبير من الجدَّية وأنت تبلي خلاله بلاءً حسنًا إذا أردت أن تكون بطلًا وتنقذ شخصًا واحدًا من الموت فإنه يمكنك بعدها إنقاذ كل كائن حي على وجه الأرض.

(الجمعة ١١ ديسمبر – ٢٠٢٠ م)

يأس يحيى من تحقيق أي تقدم، فأخبرته كارمن بوجوب العودة، لكنه ما كان مستعدًا لذلك وأصرّ على الانتظار لعشرة أيام أخر. وقبل يوم واحد من الرحيل جاءته رسالة أرشدته إلى أحد المباني التي تستوطنتها العناكب منذ القرون السوداء الوسطى. دخلا من بوابة متهدّمة، ثم صعدا إلى الطابق العلوي عبر درج خشبي متهالك. كانا يمضيان وسط مجموعات من مخلفات الطعام الحديثة وزجاجات الخمر المتكسِّرة والمنتشرة في الأرجاء. حاولا بلا جدوى تفادي الأقذار، فالأرضية زاخرةٌ بفضلات الجرذان، في حين تنتشر الخفافيش وهي تحوم فوق الرءوس. وصلا لممر أغلب الغرف الموجودة به موصدة بأقفال حديدية صدئة، فنزلا بلا هدف، وهما يلقيان نظرة أخيرة على الطابق الأرضي كانت بالأسفل غرفة متوسطة على حالها منذ عشرات السنين مع أثاث بالٍ، وما حوت سوى فِراش ممتد من الصوف، مع بضعة مقاعد مهترئة نخرتها آفة الخشب، إلى جانب دولاب عريض ووحيد يغمر منتصف الغرفة تقريبًا. عبث بمزلاج الدولاب الذي حينما حرَّكه تدافعت معه أسرابُ صغارٍ خفافيش تَوُطُّ وطًّا صارخًا، لم يكن شيء بداخله، مع ذلك لم يخلُ من رزمة شماعات متسخة متراصة جنبًا إلى جنب وفارغة. حركتها كارمن يمينًا ويسارًا بلا جدوى، حتى انتبه إلى زر دقيق مثبَّت بالأعلى فكبسه، فانفلج ظهر الدولاب وانبثق منه بابٌ صغير انفتح على مصراعيه. نزلا إلى داخل سرداب ضيق لكن يمتد وعلى حوافه لوحات تحكم، ومضخات مياه، ومواسير صرف صحي، ويعلوه كابل كهربائي ضخم معلق على نحو متصل، وكانت عدة مصابيح متوهجة تتدلى من سقف القبو. وبنهايته أدركا أنهما بداخل غرفة تحكم رئيسية لمترو أنفاق تشبه إلى حدٍ قريب كابينة قيادة السفن من حيث شكلها الدائري المُصمَت. لكن الأجراس الشنيعة والمحركات الضخمة لم تكف عن الضجيج، وأجهزة التحكم بدت كما لو توشك على الانفجار .

سمعا صوت أقدام تدب بالأرض دبًّا خفيفًا يُحس منها أنها متجهة إليهما، فتوخيا الحذر، واختبآ في زاوية. أخرج يحيى طرفًا من رأسه فرأى عاملين منهمكين في إصلاح بعض الأعطال. مضت لحظات وغادرا مخلّفين أصداء ضحكات. ارتعبت كارمن وقالت إنهما يجب أن يعودا من حيث جاءا. وافقها يحيى فارتدَّا في يأسٍ وإحباطٍ شديدين، لكنه بينما يهمَّ بالعبور من الباب السرّي المخبوء دهست حوافره قصاصة مطويّة، مرمية وموضوعة سلفًا بقاعدة الدولاب، أقسم بأنها لم تكن موجودة لكنه التقطها فورًا، ثم خرجا من المبنى مسرعين. وفي قارعة الطريق أخبرته بأنها تشعر أن صاحب الورقة يتلصص عليهما في اللحظة التي كانت تسير فيها إلى جانبه، فاستراحا فوق رصيف عندما طلبت منه أن يُسرع بفتحها، فقرأ عليها قائلا :- جثة مهملة في حارة قديمة كل مساء لا مشكلة فالدماء تنساب بخفة إلى بالوعة صرف في منتصف طريق وعندما تفيض البيَّارات تطلق الهوام الساهرة فيما العالم على الحافة يقف محدقا إلى أسفل حيث جحيم مستعر ثم يعم الصمت فتختبئ كل الأسرار والحقائق تصرخ وكأنها مذبحٌ الليلُ فاحشٌ يعبق بعهر وضمائر ميتة والداعرة العظمى تصير عجوزًا شابة تحتضر في مركز تجميل وأمَّا البطل الحقيقي فتصطدم رأسه في باب دوَّار ثم يُطلق عليه النار الحقيقةُ يتم وأدها في المهد ضحية لحكمتها المنافية لمساعينا الطموحة سينتهى بها المطاف في مستشفى للأمراض العقلية لا تتحرى أكثر عليك أن تنقذ الرجل المنيع ممن يخططون لإسقاطه حتى تستحق الجائزة الكبرى أنت منقادٌ كعميل لدينا لا يهم أنك لا تدرك ما يهم إدراكك مدى سمو ما جيء بك لأجل تنفيذه. دانيال ١٩

كان يوم عطلة أسبوعية، فجلسوا أمام طاولة الفطور قبل ذهابها للمطار. جلس أشرف على رأس المنضدة أمامه يحيى وكارمن إلى جواره بينما كانت لطيفة بوزين زوجة أخيه تراوح المطبخ جيئةً وذهابًا، لتحضر أطباق الفول، والبيض المقلي، والزبد، والجبن، والمربى، والخبز. بعد أن انتهت نادت على أبنائها الثلاثة، فاجتمعوا حول المائدة. لأشرف ابنة كبرى وصبيَّان تتفاوت أعمارهم، فحنان تبلغ ثمانية عشر عامًا، في حين ابنه الأوسط كريم يشارف على أربعة عشر ربيعًا، وأمَّا سمير فلا يزال في العاشرة من عمره، وهو ينتظر والدته حتى تطعمه. جلست لطيفة ونظرت للزوجين وابتسمت قائلة :

- كنا نتمنى أن تمكثا لدينا أكثر من هذا.

وضع أشرف أمامهما طبق الفول وهو يقول :- هل انقضى الأمر الذي جئتما لأجله؟ تبادلا النظرات الحائرة حتى أجاب يحيى قائلا :- يبدو كذلك. فتدخلت كارمن لتدير دفة الحديث قائلة :- لا نعرف سيدة لطيفة كيف نشكركِ على حسن الضيافة؟ لوحت لطيفة بيدها وأجابت مبتسمة :- أنتما ضيوفنا وكنا نود لو نقوم معكما بالواجب المفروض.

خلعت حنان السماعات التي أغلقت بها على أذنيْها بعد أن نهرها والدها بلطفٍ، وهو يخبرها بأن ذلك ليس من آداب الطعام، ثم أنهضها لتشغل التلفاز، واستأذنها أن تقف على إحدى الفضائيات العربية تعرض برنامجًا حواريًا. امتزجت جلبة الصياح بالتلفاز بصمت العائلة، فقال أشرف معلقا :- من أدبيات العرب الجدال السام أن يتجادلوا فسحة من الوقت لا لحق أو لباطل فقط لأجل نشوةِ التحدي ولو على بهتان. فقالت لطيفة معقبة :- هكذا يقضون جُلُّ أوقاتهم يتجادلون حول هراء غير مجدي في حين أن أوطانهم تعوم فوق بركة من الجحيم.

قاطعتها كارمن قائلة :- لا شك هذا مقصود فالراسبين في درجات الامتحانات يتفاخرون ببلادتهم التي ترعاها الدولة وبدعم من إعلامها الموجه ليتطاولوا على ذوي العلم انتقاصًا من تعبهم فهذا التعب في نظرها خطر داهم على وجودهم فإن كان ولابد من توطيد سلطتهم القمعية أطفوا على السطح كل حامل جهل وبذلك تعج البلدان بالمئات ممن تشبعوا بخراب الضمائر فيصير العالِم بلا جاه والعاهرة ناصحة اجتماعية ويضحى السارق أمين البلاد وحارسها المُفَدَّى.

ضحك أشرف وقال ساخرًا :- سألني مرة صديق بالفيسبوك لماذا نظارتك دائمًا سوداء؟ قلت له تَوقَّعَ بعضٌ ممن يوسمون بالتشاؤم أن يُفضي مخاض الكائن الهلامي المسمى بالأمم المتحدة حول سوريا إلى ولادة فأر لست من مروّجي التشاؤم ولكني لا أعد من المتفائلين الذين يشرون أوهاما فكان اللافت أنه حذف صداقتي قلت لنفسي مرحى أنا أكسب فنظارتي دائما من أحدث الصيحات.

فتضاحكوا ضحكًا كالبكاء لثوانٍ معدودة.

ثم تمتمت كارمن قائلة :- إنها فوضى مجتمعية هائلة وما دام الخاصة يحاورون الخاصة والعامة يحاورون العامة فلا أمل في التغيير وذوو العقول يهرعون إلى تسوُّل الهجرات من الغرب الذي بلا شك يرضيه هذا الوضع لأنه يرغب في استيراد الكفاءات من الخلاصة المتبقية من تلك الشعوب المدمَّرة اجتماعيًا وأخلاقيًا وسياسيًا وبذا تبقى الدول النامية نامية وتبقى الدول الكبرى على قمة عرش العالم.

أمسكت لطيفة بجهاز التحكم وحوَّلت القناة، حتى استقرت على قناة إخبارية فرنسية. كان يدور نقاش حول قضية لجوء العديد من المسلمين حول العالم إلى مقاطعة المنتجات الفرنسية. قال يحيى بغضب مكتوم :- ليته يمتلك من الشجاعة ما يكفي ليحارب الفساد السياسي الذي جاء به إلى قصر الإليزيه قبل أن يسدي النصح بشأن أزمة فساد عقيدة مسلمي فرنسا الستة مليون فلينزع عنه قناعه أولًا ثم يتحدث بأريحية كيفما يشاء أو بعنصرية ممقوتة كما يخفي رجل فرنسا الأول.

ضحكت لطيفة وأضافت ساخرة إذ تقول :- الغرب حضارة لصوص هكذا قال ميشيل كولون وهو صحفي بلجيكي أهتمُ لآرائه. فعلَّقت كارمن قائلة :- إذا كان الفرنسيون أنفسهم ضجروا من سياساته أكثر بكثير من ضجرهم أو انشغالهم بقضية المسلمين الفرنسيين السيئين إنها حماقة تخرج من ألسنة سياسيين حمقى يتلاعبون بمصطلحات لإثارة المشاعر ويبقى ما يهم المواطن الفرنسي هو أمنه المعيشي المتأزم.

ارتفعت زمجرات متظاهرين إلى مائدة طعامهم، فأسرعوا نحو الشرفات؛ ليجدوا الفرنسيين وقد عادوا إلى الشوارع للتظاهر ضد قانون الأمن الشامل. تجمع الآلاف من المواطنين في مسيرات ضخمة خلال شارع الشانزلزيه متجهين نحو قوس النصر الفرنسي، يتخللهم الناشطون ذوو السترات الصفراء يرفعون لافتات كُتب عليها:

Macron, je te hais de tout mon Coeur !

اقترب أوان الطائرة فأسرع أشرف نحو أخيه وأكّد عليه ضرورة المغادرة. نزلوا وما إن وصلوا إلى السيارة حتى سُدَّ الشارع بمئات منهمرة من المحتجّين، فتركوها واقتحموا الصفوف إلى أحد الشوارع الجانبية الخالية؛ بحثًا عن سيارة أجرة تقلهم إلى المطار. أخذ يحيى بيد زوجته وهي متشبّثة بحقيبتها، وإلى خلفهما قبضت لطيفة على يد ابنتها حنان، وأمَّا أشرف فثبّت يده بيد ابنه كريم الذي كان يدفع بيد أخيه الصغير سمير ويجرَّه إلى جانبه. وبينما يكافحون لشقِّ سيل المحتجين انتبهت الأم إلى أن طفلها ليس بيدها، فانقبض صدرها. وصرعت كمن فقد عقله وهي تبحث عنه في صراخ وهلع قائلة :

- ابني أين أنت؟ سمير أويتو صغيري؟

صاح يحيى قائلا :

- أنا أراه انظروا شاب يجري به بعيدًا.

اندفع يحيى بين عباب الجموع، وكأنما يطيرنحو الصبي الذي كانت رأسه متدليةً فوق كتف آدم، حتى اختفى أثره في لمح بصر. صرخ في الناس قائلا :

- أمسكوا بهذا المجرم إنه يخطف صبيًا أيها الناس إنه هناك أوقفووه.

ثم خرج إلى قلب شارع ساكن، وكان حائرًا يبحث حوله يمينًا ويسارًا، حتى التفت إليه ينحرف إلى زقاقٍ ضيق فوثب وراءه في سرعة بارقة، وما إن وصل إلى رأس الحارة حتى وجده يتبخر. انقطعت أنفاسه فوقف منحنيًا إلى ركبتيْه حتى صاحت به كارمن التي أقبلت تهرول من خلفه، ثم سُمع صراخ لطيفة يرتفع من ورائها. رفع رأسه ليجدهم جميعًا يصرخون في فزع وبكاءٍ شديدين ويتساءلون بقلق قائلين :- ماذا حدث؟ هل رأيته؟

من الخلف هرع أشرف وبيده أبناؤه المتباكون، فانضموا إليهم ملتقطين أنفاسهم بينما يصيح قائلا :- أين هو؟ نظر يحيى إلى أخيه في صدمة شاردة وقال :- رأيته يركض به إلى هذا الشارع وما إن وصلت حتى انقطع صراخ الصبي. صاحت كارمن قائلة:- وماذا سنفعل؟ هل سنبلغ الشرطة؟ صرخت لطيفة في وجهها قائلة :

- أتسألين؟ يجب أن أسرع إلى الشرطة فورًا آه يا سمير أين أنت؟ عد إلى أمك قلبي سينفطر عليك.

نظر يحيى إلى الأم المكلومة، وعيناه قد اغرورقتا بالدموع، فترجّى قائلا :

- سامحوني جميعًا أنا المسئول.

أمسك أشرف بقميصه في غضب وقال :

- أنت تعلم من الذي خطفه؟

اندفعت نحوه لطيفة وهي تتوسل إليه قائلة :- أتوسل إليكَ أجب. ثم جعلت تصك صدرها فلمّا طال صمته صرخت فيه قائلة:- لا لن أنتظر سأذهب إلى الشرطة فورًا الآن. فترجّاها وهو يقول بتأنيب ضمير:

- أرجوكِ لا داعي للشرطة ربما ذلك يعقِّد الأمور أرجوكم اهدؤوا جميعًا الصبي سيكون بخير.

(وبعد ساعتين)

منتصف ديسمبر أفكر في السلام يمكن أن يكون كذبًا برمته لكن الحقيقة لا تعنيني ولا الحياة كذلك أنا مطمئن بأنك ستفهم المغزى ولن تستهزئ بها كما يفعل النائمون وكم هو محزن عندما تسألون من أنت؟ كأن معرفتي ستقودكم إلى الحقيقة لا يهم من أكون فأنا رسول وأنا جزء من مخطط كبير للانتقام حتى لا تخرج الحشرات من وراء القضبان دقٌ على الطبول أنت ترى وجه المجتمع الحقيقي وتبصره على نحو ذكي يُفترض أن البقاء للأذكياء لكن الذكاء وحده لن يكفيك لتبقى وأنتَ تختار أن تكون محاكاة ساخرة لأولئك الحمقى تبدو كصرصور ساذج مخبوط على رأسه يعافر يائسًا حتى يقيم ظهره لكن ما الجدوى؟ فهو يلفظ أنفاسه الأخيرة لم يعد الأمر بإمكانكم مهما تحاولون هل سمعت عن رجلٍ ذهب إلى طبيب أسنان يشكو له حاله البائس ونفسيته المدمرة؟ الحياة خشنة قاسية الطبيبُ يخبره أن العلاج سهل وميسورٌ لا زالت معي قائمة طويلة لكن الحل ما يزال بيدك اذهب إلى الموقع داخل البناية وسوف تجد ما يخرجك من الاكتئاب الصبيُ ينفجر بالبكاء الأمرُ ليس ببالغ الصعوبة ستعرف المطلوب منك على وجه التحديد أسرع فأنا متلهفٌ لمعرفة قرارك صدِّقني ستنزل الستائر لتنهي للأبد ذلك الفصل الرخيم.

وعندما ذهب وجد رسالة تفيد بأن هناك مخطوطة مفقودة من مخطوطات البحر الميت تقبع بيد أحد الفلسطينيين الممنوحين حق اللجوء بفرنسا، وهو رب أسرة فلسطينية مهاجرة منذ عشرات الأعوام و تسكن بالقرب من منزل عائلة أشرف. واجه يحيى أخاه فأخبره بأنه ناشط فلسطيني لجأ إليه بصفته خبير أممي مستقل معني بحقوق اللاجئين العرب بفرنسا وطلب منه العون. أخبره أشرف بأنَّ الرجل الذي يُكنَّى بأبي مريم الفلسطيني الناشط بجمعية التضامن الفرنسية الفلسطينية أبلغه بوصول تهديدات إليه، ووعيد مستمر بقطع رأسه من قبل أعضاء بمنظمة كبرى تدعم الصهيونية. وذلك بسبب نشاطه في الترويج لحملة تدعو النشطاء إلى مقاطعة إسرائيل ومنتجاتها باعتبارها كيانًا محتلاً. أكد له يحيى أن ذلك الرجل يحتفظ لديه بوثائق تهم المختطفين، بينما ستكون حرية ابنه مقابل تسليمها لهم، ثم اضطر لمصارحته بسرّ مجيئه إلى باريس؛ وهو لإنقاذ صديقة له تم اختطافها في مكانٍ مجهول، بينما هو موقنٌ بأنها بيد ذات العصابة الإجرامية التي اختطفت ابنه، وأنه يكون قد بدأ يفهم المطلوب منه، كما أنه بات مقتنعًا بأن صديقتهما كذلك ستعود معهما بمجرد تسليمهم ما يريدون.

باب هَاخَرُوْنَاه

طلب أشرف تحديد موعد مع أبو مريم لزيارته في منزله للتحدث إليه في شأن خطير. ذهبت كارمن ويحيى بصحبته إلى بيت الأسرة التي رحبت بهم لكن في غمرة الترحاب وبعد واجب الضيافة تبدَّلت سيماء الرجل الفلسطيني حينما كشف له أشرف عن الداعي الذي اضطره لترتيب هذا اللقاء على عجل بليغ. نزلت كلماته كالصاعقة على رأس أبو مريم والذي بمجرد علمه بأن خطف الفتى له علاقة بما لديه من خبيئة لإحدى مخطوطات الكهف المفقودة لم ينكر بل كانت ردة فعله أن حاول طمأنته بأنه لن يسمح لنفسه بأن يكون سببًا في أي ضرر قد يتعرض له الفتى، وأنه سيفعل ما بوسعه لإعادته سالما إلى حضن أمه. وأخبرهم بأن ما يسعون للاستيلاء عليه موجود لديه في مكان ما ليس بالمنزل، وأنه احتفظ بها طيلة السنين بناءً على وصية والده، والذي صمم على البقاء في أرضه رافضًا الرحيل عنها حتى وافته المنية. لكن أبو مريم وجد فرصةً للجوء مع زوجته إلى فرنسا، حيث أنجب أبناءه في وقتٍ لاحق. مع ذلك لم يخطر بباله أن ما بحوزته قد يعلم عنه أحد في يوم من الأيام، حتى إن زوجته قد اندهشت لسماعها بهذا الأمر لأول مرة.

كان أبو مريم يأمل في العودة وإن لم يشهد في حياته ذلك، فكان لافتًا ما قد امتلأت به جدران المنزل من أعلام فلسطينية، وصورٍ عديدة ولوحات للقدس ولانتفاضة الأقصى مع عدة صور قديمة لأسرته وعائلته وللمنزل الذي ولد وشبَّ وترعرع به. كان الأمر أشبه بانتفاضة نفسية متوارثة لا تنقطع بل تستمر تتدفق في وجدان التغريبة الفلسطينية. اغرورقت عيناه ففرَّت دمعته، وقال وهو يُخفي الألم :- وما عسانا أن نفعل في الوقت الذي يُراد لفلسطين بمرور الزمن أن تُحذف من ذاكرة جيل الألفية ذلك النشء الجديد الذي يتم تغريبه ويجري خداعه بكل مكر بضرورة التطبيع مع سلطات احتلال بغية إرساء سلام طال انتظاره مع ذلك يصطدمون بصورة جحافل لطلائع واعدة برغم ما مرّ بهم يمتلكون الإدراك الكافي لإسقاط كذبتهم الواهية في برّ الجحيم ويرى العالم أن البطلان الذي كثَّفوا ماكيناتهم الإعلامية لإقناعهم به في طريقه لأن يفنى ويندثر ثم يتبدل الليل الغشيم بنهار وضَّاء ويعسعس الباطل لتشرق شمس الحقيقة على الأرض المقدسة.

نهض على حين غرة، واستقام أمام مكتبته الجدارية المعلّقة، فالتقط منها كتابًا يحكي حقيقة المخطوطات. وبعد أن دفع به إليهم ليطالعوه أخبرهم بأنه يمتلك مادة وثائقية مدمجة على شريط فيديو لم يجرِ تشغيله منذ سنوات. كان مكتوبا عليه بقلم فلوماستر داكن عنوان ذكريات العائلة. فأخرج لهم جهازًا قديمًا من رف مكتبته، ثم أوصله بشاشة التلفاز. بدأ عرض مرئي، فكانوا يحدجون بعضهم البعض في حيرة، عندما رأوا الشريط لأول وهلة يعرض مقاطع مختلفة لأجمل لحظات العائلة، لكنه قام بإسراع الشريط حتى وقف عند بداية المقطع المرغوب، عندما ظهرت لدقيقة شاشةٌ سوداء مكتوبٌ عليه :- كهف الملح وشيفرة دانيال. فأبدوا جميعًا أعينًا راكزة وأسماعًا صاغية. ثم علَّق الفيديو في حين أراد أن يقول:- ولم تتسنَ لي الفرصة لأعرف من والدي عن مصدره فيما بحوزتي من نسخ ربما أنه في مرحلة ما كان على يقين بأن ما وقع في يده يمثِّل له نوعًا من الدفاع عن الآثار الفلسطينية ولم يتصور نفسه نخَّاسًا يبيع تاريخه وأرضه وما تحويه في باطنها لكن الأكيد أنه لم يشترها ولا حتى تم عرضها عليه للبيع وكل ما أذكره أنه عثر عليها في حقيبة جلد بدت له أنها لشخصية إسرائيلية بارزة سليل عائلة كبيرة تسيطر على تجارة الآثار حول العالم ومرتبطة عبر شبكات مع الاستخبارات الإسرائيلية وهذا الرجل كان عميلًا سريًا وتم اكتشاف أمره فتعرض المبنى الذي يسكن فيه إلى التفجير وخلال مرور والدي بجانب الأنقاض عثر على الحقيبة ومن دون أن يدرك حقيقة أهميتها لجأ إلى إخفائها لأن ما اشتمه فيها كان يبعث لديه عبقًا فلسطينيًا حميمًا مدَّه بشعور دفين بأنه يومًا سيعود إلى دولة فلسطين ومن ثم يهب اكتشافه لمتحفها.

***

في ساعة من ساعات الصباح الباكر صعد آدم إلى الطابق الذي يقطن به والده .دار بينه وبين الحارسين اليقظين أمام المنزل حوارا، ثم تظاهر بأنه صحفي يرغب في تحديد لقاء مع السيد زيدان، لكنهما أبلغاه بأنه يستيقظ متأخرًا، ويمتنع عن أي لقاءات صحفية، عندئذ لم ينتظر حتى أخرج من جيب معطفه ورقة وقلم حبر، وبمجرد أن فتح القلم وجَّه منه عدة بخَّات سريعة متتالية على وجيْهما، ثم انتزع منهما الأسلحة، واقتحم المنزل.

- أنتَ ممدوح زيدان الباشا معالي الوزير أبي كما أسمع؟ انطق.
- ما الذي تتحدث عنه؟ أنا صرت رجل أعمال متقاعد.
- أنت مجرم.

- لقد أنهيت عقوبتي ماذا تريد مني في هذه الساعة؟
- عقوبتك؟ أنت لم تُعاقب بعد.
- ابني أرجوك أنا سأعبر عن احترامي لكَ بطريقتي الخاصة.

لكمه آدم في وجهه بقوة مشحونة، ثم قال له :- أين كان هذا الاحترام عندما جعلتني أشعر أنني لا أعنيك؟ نكرة ابن شيطانة تتملقه عيناك ولا تريد أن تعرف عنه شيئًا أين ذهب؟ متى جاء؟ لا يهم يكفي أن تعلم بأنه لا يزال على قيد الحياة كأي نزيل شعورُ اليتم لماذا؟ لأنكَ لعينٌ مزيف ترتدي قناعًا. ثم لكمه ثانية في الوجه، وقال :- لقد أمرت بإنزال العقوبة على المخادعين لأن الشيطان يحب الانتقام والله يشاء أن يسلّطه عليكَ لتنال جزاء خيانتك انظر ماذا أحضرتُ لك دواء مزيَّف مصنوع من مواد سامة نكهته ليست سيئة.

- بربك ابني الوحيد أتفكر في قتلي؟
- تخاف على حياتك؟
- أنا لم أعد أخاف على شيء.
- تخاف أن تموت وتترك لي ثروتك الهائلة لأبددها؟
- الآن يجب أن تعرف أنا مريض بالسرطان.
- أي نوع من السرطان هذا الذي تشكو؟
- أتعرف النوع الذي قد يتحسن منه المرء بعد الموت؟ هذا ما لم أبقَ مُعذَّبًا به فترة أطول من حياتي.

استيقظت وكان أمامي، كانت الغرفة مظلمة وكان منزعجًا يبكي، كان يهذي بكلام ليس له معنى وكنت أرتعد من الفزع. كان يحمل سكينًا ويمرر حدَّه على طرف لسانه. كانت رائحة القتل ترتجف في يده والدماء الساخنة تنضح بوجهه، وقال إنه اختطف أطفالًا وصنع شناعة بالنساء. هناك حيث الزقاق بارد ومهجور كان يهيم على وجهه لا يعرف أين يذهب متوحدًا مع قدميه، وحذائه، وقفازه السميك، ووجهه الحزين على وسامته، لكن صدره كان بعيدًا عنه بارتداء ملابسه يصبح نفسه، متحررًا من الخوف أو الضعف، أو الشهوة. من الزقاق يسمع صراخ فتاة مختلطًا بموسيقى المساء، ثم يقترب وعيناه في عيني المغتصبين حتى جعلهما يركضان. أقبل ناحية الفتاة وهو ينظر إليها في شذر ثم يجرها معه إلى البيت، وكانت أول مرة يرى فيها جسد فتاة عارية. أخبرته بأنه لم يكتشف نفسه وبأنه لا يدرك حقيقة الشيطان الذي بداخله والذي يتعطش للنيل مع البشر. قالت له إنها على علاقة عاطفية مع الشيطان، وأخبرته قائلة :

- يمكن لك أن تصير شيطانًا قويًا وملهمًا للآخرين.

قال إنه يحس روحه مقطعة إلى ألف قطعة، وأنه لا يقدر على لمِّ شتاتها إلا بغريزة القتل. كان يبكي بملء جوفه قائلا :- يا إلهي. ويعترف بكل مصائبه. وقال :- أنا أقِرّ بذلك أمام ألد أعدائي. لكنه قال بأنني أقرب شيء إليه. قال إنه يعمل تحت إمرة عصبة الشيطان، وإنَّ اسمي موجود لديه على القائمة. قال إن أمه نهرته عن التدخل في شأنها، كان يشعر بالسذاجة بعد صفع أحدهم حين نعته بابن العاهرة، كان الوحيد الذي لا يزال يظن بأن ذلك يجب أن يبقى سرًا، كان يدرك أني أعلم ولا أحرك ساكنًا، كان ثملًا يجترع مرارة تغص حلقه، ورحل بعد ذلك.

اقتربت منه مليكة واحتضنت رأسه في صدرها، بينما جعل يردد في هلع قائلا :

- ماذا تكون تلك القائمة؟

وانفجر في بكاء كالأطفال.

***

كانت آنا تمضي أيامًا صعبة في معتقل مجهول ومعتم إلا من أضواء حمراء خافتة انتقلت إليه بينما كوهين يتلذذ مُتواتِرًا بالتنكيل منها، وكانت تقبع لساعات عارية على فراش التعذيب مكبلة الأطراف بأصفاد حديدية مربوطة إلى أعمدته. حياتها السابقة لم تمثل لها سوى عالم افتراضي لم يتسنَ لها أن تمضي به سوى ساعة ولَّت سريعًا، فكانت تتذكر صباها في راستوف ومزرعة أبيها صانع الأجبان والنبيذ الحلو وأمها الأوكرانية ذات القدرات الروحانية الخارقة. مع ذلك كانت طفولتها بائسة وبانفصالهما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي استقرت أمها في الولايات المتحدة بينما هاجر أبوها للعمل في إسرائيل، لكنها كانت تذهب لزيارته كل إجازة صيف، وهناك تعرفت على كوهين الذي وقع في غرام فتاة شابة وقد اعتقد بأنه لم تُخلق على وجه الأرض من ترفضه. لذا جعلها تؤمن بأنها في عداد الموتى، وحدَّثها ذات مرة بأن حجرتها لا تعدو عن كونها واحدة من مئات الغرف التي يتلقى فيها الأوغاد عقابهم، لكنها لن تلبس فيه إلى الأبد، ففي مرحلة ما سينفتح قبوها على عالم آخر. وكان يتردد

عليها كل ليلة لمضاجعتها، وفي إحدى المرات أخبرته بأنها باتت لا تتمرد على أفعاله الدنيئة بها، وأنها أضحت تشعر في لمساته بنار السَّموم، فأخبرها بأنه شيطان يقضي معها العقوبة المؤبدة بالجحيم. باتت تشعر بالشوق والحنين إليه والإدمان عليه، وكلما نهض عنها سألته لماذا ينبغي عليه أن يغادر، فيجيبها قائلا :

- لا تقلقي مطيعتي لدينا متسع من الوقت.

لكنها صاحت قائلة :

- يكفي هذا؟

ثم بكت وقالت :

- هل أنا أعمل معكَ في الجحيم؟

فيخبرها بأن عملها لأجل شيء آخر أسمى، وأنه لا يعتقد أن ذلك يسبب لها ألمًا حقيقيًا. كانت تبكي بحرقة وهي تقول:- هل تبدو مُشفِقًا أم أنك تحب التلذذ بمظهري أمامك؟ كان يجيبها بأن العالم المتداعي يستحق الشفقة أكثر منها. ثم يذهب عنها بينما تنتحب قائلة :- بحق الجحيم أخبرني مرةً متى ينتهي هذا العذاب؟ ثم تروح في صراخ هيستيري وهي تقول :- هل أقضي عقوبة المؤبد على جريمة لم أؤتها بمعتقلٍ لعين؟ ليجيبها بهدوء قائلا :- إن لكل شيء موعد فلا تتعجلي. فتصرخ بشدة قائلة :- لا تتركني في الظلام ابق معي أنتَ شيطان لم أعد أكرهك هيَّا تعال. لكن قبل أن يغادرها، استدار وهو يقول :

- روسية حمقاء اصرخي ما شئتِ أيتها الوضيعة لن يجدي صراخ.

***

يطلق عليه الكثير ألقاب عديدة منها: ملك الآثار إمبراطور المال والأعمال أبو الأميرة الكبرى والداهية السياسي المخضرم والعضو في حركة مناهضة الأسلحة النووية وقائمة تطول إنه السيد سام رودريغز واليوم أمريكا كلها تطلق عليه حليف الرئيس الأبرز وهو مرشح على مقعد جمهوري بمجلس الشيوخ والليلة نناقش معه الكثير من القضايا الآنية كما نستمع لتساؤلاتكم عبر صفحات برنامج المواجهة على فيسبوك وتويتر وإنستغرام وأسعد بالترحيب بجمهورنا المتواجد معنا باستديوهات البث المباشر وننوه بأنَّ المقابلة ستذهب عائداتها لصالح مؤسسة مستقبل طفل الدولية التي يرأس السيد رودريغزمجلس إدارتها نلقاكم بعد هذا التقرير الموجز.

خلف الكاميرات صاح المخرج في طاقم العمل قائلا :

- هيا رائع سيد رودريغز هل أنت مستعد؟ لا ليس هناك وقت لضبط الماكياج الكل يستعد.

همس سام للمخرج قائلًا :

- كن يقظًا لا تدعه يتطرق لموضوعات حساسة.

رفعت مليكة الصوت ليستمعا إلى لقاء البرنامج الأعلى مشاهدة. أمال ممدوح نظره نحو التلفاز غير مبالٍ، كأنما لم يعد يدرك من يكون الضيف. قال المذيع :

- أنتِ تفضَّلي بسؤالك الأول.
- سيد رودريغز ألا يبدو كلامك في الإعلام متناقضًا؟ أليس الرئيس نفسه هو أكثر شخصية تحاول النيل من وحدة الشعب؟
- لا لا أرى ذلك واتهام الرئيس للانتخابات بأنها زُوِّرت لا يعني بأي حال من الأحوال أنه يريد تقويض الديمقراطية بل على العكس هذا يعني أنه أكثر رجل حريص عليها.
- دعونا نأخذ سؤالًا آخرَ أنتَ تفضَّل.
- الشعب الأمريكي يشعر بالقلق على مستقبله وأضحى لدينا رئيسان متنازعان فهل تسير أمريكا بأقصى سرعة في طريقها إلى ترسيخ فكرة لحظة السقوط المدوي؟

فأجاب سام وهو يقهقه قائلا : لا يمكن الرد على مثل هذا الهراء معذرتي للمتسائل هذا كلام لا ينطبق علينا بلادنا قوية وأمريكا سيدة العالم وستبقى لعشرات من السنين هذه هي الحقيقة.

رفع أحدُهم يده متحفزًا للسؤال، فلما سُمح له قال :- بمناسبة حديثك عن الحقيقة أنت متهم باتخاذك للجمعية كستار لأنشطة تسعى للإتجار بالأطفال وبأنك عضو فعّال ضمن وكالة صهيونية تعمل على خطف الأطفال غير الشرعيين من دور الأيتام والمشردين ومن ملاجئ رعاية اللقطاء وتهريبهم إلى أوروبا بصورة غير قانونية عبر غواتيمالا ليستخدموا في طقوس دموية بينما تباع أعضاؤهم بملايين الدولارات في تجارة مرعبة ومناقضة لحال الصورة البريئة التي تعتاد رسمها بوجهك أمام الشاشات.

فقال سام غاضبًا :- أنت تتحدث عن اتهامات فارغة لم تصدر بشأنها أي أحكام ضدي وأنتَ ربما تعرض نفسك للمساءلة القانونية بتهمة الإشهار بي على الملأ في بث مباشر يتابعه الملايين حول العالم.

وثبت سيدة بشكل مفاجئ من مقعدها، وهي تصرخ قائلة :- أنت دجّال آخر تتظاهر بالمثالية والأخلاق وتريد أن تخدعنا بهرائك أيها الناس إن هذا الثعبان المُتَشكِّل الذي تبدو ملامحه أمامكم هادئة ورقيقة هو في الحقيقة من وراء حادثة اختطاف فتاة الدار العذراء انظروا إلى صورتها كم تبدو جميلة ولطيفة هل تتذكرون هذه الفتاة التي كانت الهاشتاج الأعلى بالولايات المتحدة منذ أشهر؟

وعلى نحوٍ منقلبٍ أحدثت كلماتها بلبلة وجلبة هائلتين ما لبثت أن غدت ثورة في قاعة التصوير. لم يتمكن المذيع من السيطرة على الأمور التي انفلتت من يده، وأخذت هتافات الجمهور المتعاطف معها تتعاظم ضده، وعلى نحو متسارع تأخذ منحنىً آخر أشد قتامة فراحوا ينددون بسام قائلين :

- إنه ليس حملًا وديعًا اطردوه خارجًا ماذا تنتظرون؟ الإعلام متواطئ.

صاح المخرج عبر سماعة الأذن يأمر المذيع بإنهاء اللقاء، فما كان منه إلا أن اعتذر لضيفه عمّا آلَ إليه الحوار، واعتذر للمشاهدين وذلك أثناء ما قام فنيو الصوت بقطعه عن هتافات الجمهور بالاستديو، ثم رُفع تتر النهاية لثانية لحقتها جولة إعلانات الراعيين الرسميين للجحيم.

-9-

باب5727

- الكلب الأسود ينهشني في صمت حتى لن يُبقي مني شيئًا ولن يذر.

قالها ممدوح لنفسه في شرود. في ساعة من الليل كان يجلس متأملًا حاله، يصرخ في نفسه قائلا :

- لقد ابتلعت الكثير من الفساد حتى غرقت مركبي .

ثم يرتجف وهو يقول :

- لأنني تركت معيتك؟ يا رب أعفني من نقمتك وأبدلها بمغفرة ورضوان .

فعندما يصل المرء للحضيض يصادف أنه في الطابق العشرين وهو لم يعد يذكر كيف كان في لحظة سابقة من حياته؟ لا يعرف كيف كان قبل مرضه؟ وهو مسنٌ طريح الفراش يسكن بشقة وحيدا أغلب الوقت ولا أحد بجانبه سوى الحراس الأغبياء. لا يعرف كيف حدث هذا؟ ومتى؟ ثم يغرق في حوار مع الذات :

- الطبيب كم سيعطيني من العمر؟
- هراء .
- سيمنحني مزيدًا من تسكين الألم؟
- الوقت يمضي كالعذاب.
- هل ما زال أمامي حياة؟
- ربما أقل من أيام.

كان يتنبأ بأنه سيصير وزيرًا ذات يوم فأعدَّ العدة لهذا اليوم. لم يكن يعتني إلا بذاته ومصالحه الشخصية، وما كان يكترث إليه أكثر هو صورته وهيبته بداخل الحكومة، ربما فكَّر ذات يوم أن يصبح رئيسًا للحكومة، وربما اتسعت مخيلته لأن يترشح يومًا لرئاسة الجمهورية، بالطبع إن كان هناك مناخ سياسي داخل البلد يساعده على ذلك، فقد كانت مكابح طموحاته لا تجد من يسيطر

عليها. تلك الأنا هي ما جعلته مغرمًا بالسيطرة فيمكنه المتاجرة بأي شيء يظنه ممكنًا، وهي ما تخلق الدراما بحياته فتجعله مهووسًا بالسلطة ومنشغلًا بها. كان يخشى أن يفقد الهيبة يومًا ما، فالإنسان الذي ينشأ وسط مجتمع يتنمر على فقره يولد لديه هاجس مستمر لإثبات الذات يدخله في دوامة صراع مع الحياة. ولولا أنه وجد في عِمالته ما يغذي طموحه ربما لم يكن هو تلك الشخصية البارزة التي يشير إليها بالبنان، وهو يؤمن بأنه إن كان شريفًا فما تمكن من تنفيذ مآربه التي لا حدود لها. كان ضميره يراوضه لإقناعه بحقيقة أن هذه الغريزة هي العدو الحقيقي الذي يمنعه من الشعور بالسعادة رغم أنه امتلك كل المتطلبات. فكانت تثير ثائرته وهو يغضب على نفسه متسائلًا :

- لماذا أنا لست سعيدًا ؟ ما الذي ينقصني لأكون كذلك ؟

وربما الألم النفسي الذي يعاني منه آدم قد تحوَّل خلال مرحلة المراهقة إلى شيء يشبه جسم الألم، جسمٌ يتكوَّن بداخله منذ الطفولة ولا يستطيع أن يبقى بدونه، وعقل به مجموعة من الذكريات المؤلمة التي انتهت إلى أن صارت جزءًا متحكما في قراره. كان شعوره بالاغتراب الأسري يقتل البراءة التي لم تحظ بالكثير من الرعاية والاحتضان، وكأنه مهجور أو منبوذ يمضي لحظاته بمفرده. فكانت أعظم أمانيه تتلخص بأن يتناول الطعام يومًا مع أبويه، لكن ذلك لم يكن ليحدث إلا على فترات متباعدة. لم يكتفِ آدم بالتقوقع على نفسه، والانزواء في غرفته، بل حتى في الشارع كان يتجنب مشاركة أفراد مجتمعه، ليجد نفسه وحيدًا أغلب الأوقات في عمر مبكرة . الحياة ضاقت به رغم اتساع المنزل الذي يعيش به، لكن هذا العالم كان يضيق بعقله لأنه ما من أشخاص يمكنه مشاركتهم أفكاره، وإن وجدوا فلا يمكن لأحد أن يجعل الطفل سعيدًا سوى أبويه.

- لا أستطيع الحياة مع نفسي بعد الآن.

هكذا أجاب عندما سأله ممدوح لمرة واحدة أو مرتين على أقصى تقدير عن سبب رغبته بالانتحار، وما منعه من محاولة التقرب إلى ابنه هو أنه لم يشعر تجاهه بأي عاطفة كابن سفاح، وربما أن مشاعره البغيضة تجاه أمه هي التي أججت تلك المشاعر القاسية نحوه. ما دام ينفق عليه ببذخ فلا يريد أن يشغل وقته بأي هراء أو حماقة قد تنجم عن أفعاله الطائشة، فإلى جانب الضرب المبرح الذي كان يكيله له في سنٍ صغيرة، كان التجاهل يدمي قلبه أكثر بكثير من ألم السياط . صار مدمنًا على التفكير ولم تتح له أي فرصة حقيقية للتغير حتى يصبح إنسانًا صالحًا بالمجتمع، وإنما غدت مشاعره الناضجة سلبيًا تنضح شرًا عظيمًا يمكنه تدمير أي شيء، ويستحثه نحو الانتقام حتى من نفسه التي ظنَّ بأنها السبب في تعاسته، وكأنما يريد أن يخبرها قائلا :

- تُرى كم هذا مؤلمًا.

فبينما قد يضطرب الحاسوب ويحتاج إلى إعادة تشغيل فلم يكن بمقدوره أن يفعل ذات الشيء بعقله، لأن الإنسان بالنهاية كائن حي، ليست هناك من وسيلة واقعية لإعادة تأهيله سوى أن يجد من يلفت انتباهه، ويأخذ بيده، وهو ما لم يلاقِه يومًا.

***

(ليلة 24 ديسمبر – 2020 م)

في ساعة متأخرة انتبهت امرأة أبو مريم لصوت خبط هائل على الباب، فأيقظت زوجها. صاح أبو مريم من خلف الباب قائلا :- من بالخارج؟ فأجاب أحدهم بغلظة قائلا :

- سيد أبو مريم هل أنت هنا؟ معنا حلوى عيد الميلاد.

وما إن أدار المزلاج حتى وجد أمامه ثلاثة شبان ملثمين يركلون الباب بقوة، فارتطم بوجهه ما أسقطه على الأرض، ثم تهجَّموا على المنزل المغطى بظلمة الليل، وأوصدوا الباب خلفهم. حاول النهوض فانقضّوا عليه بمنتهى الوحشية، وانهال عليه آدم بضربة موجعة على الرأس، فتبعه الآخران لكمًا على وجهه. حاول أبو مريم الدفاع عن نفسه، فأجهزا عليه وكتَّفا يديه فاستفرد به آدم الذي جعل يكيل إليه اللكمات، فارتطمت مؤخرة رأسه بجدار مكتبته الخشبية المعلَّقة، فسال الدم من رأسه التي انغرزت بها شظايا زجاج برْواز صورة عائلته، ثم جعل يُلكزه بعنف في صدره، حتى أخذ الدم يسيل من خيشوم أنفه، عبر شفاهه المنتفخة الدامية. كان أبناؤه المفزوعون يرفعون أصواتهم بالبكاء المؤلم، بينما جعلت امرأته تصرخ فيهم قائلة :

-اتركوه أيها الأوغاد ماذا تريدون؟

أطاح بها آدم فارتمت على الأرض، ثم نهضت مسرعة نحو الباب لتبحث عن أحدٍ ينجدهم، لكنه وثب خلفها والتقطها من شعرها، وجعل يدب رأسها بالحائط حتى أحدث قطعًا نازفًا بجبهتها. ثم توقف عن الضرب وقال معنِّفًا :

- أين المخطوطات؟

فصرخ أبو مريم قائلا :- صدقني أرجوك ليست بالمنزل. صاح آدم برفيقيه قائلًا:- تتبعا أثر المخطوطات في كل الأرجاء أسرعا. فوثبا إلى داخل الغرف، وجعلا يعبثان بكل محتوياتها ويقلبانها رأسًا على عقب، ثم عادا بعد دقائق قائلين :- لم نعثر على أي شيء. بالكاد نطق أبو مريم بصوتٍ متحشرج قائلا :- لا أكذب عليك صدقني قلت لك ليست هنا. فأمسك برأسه بينما يقول هائجًا :- إن لم تنطق فسوف أخلع عنقك بحركة واحدة انطق وإلا تصيَّدتُ روحك بيدي. حُشر الكلام في حنجرته بينما يقول له مُترجِّيًا :- أعدك بتسليمها لكن لا تمسهم بأذى . التفت آدم إلى أبنائه المنتحبين فقال:- هل تخشى عليهم؟ فأجابه قاطعًا، فقال آدم :

- إذًا أمامك أربع وعشرون ساعة لتكون المخطوطات بين أيدينا موعدنا عند انتصاف الليل بالبناية المهجورة إن تخلَّفت عن الميعاد أو فكَّرت في المراوغة فلن تراهم مجددا وحذارِ أن تبلغ الشرطة أيها الخنزير.

ثم صفعه بكف يده وأومأ إلى رفيقيه، فركضا خلفه مغادرين على الفور.

***

كانت العاصفة الثلجية قد هدأت للتو. السماء تبدو صافية وكثبان الجليد البيضاء تكسو كل شيء. وبوقت متأخر كان الزوجان يهيمان في الشوارع الخالية من البشر، البعض يظهرون أمامهما، يتسكعون من حولهما بين الفينة والأخرى، يحملون زجاجات الخمر الفارغة، ينهالون بها فوق الرصيف، فيكسر صوتُ تهشيمها الصمتَ، ويركضون بعيدًا عن أعين عربات الشرطة. كان الجميع ينعم بالدفء في أحضان بيوتهم، لكن هناك الكثير من المشردين البؤساء كانوا يفترشون الطرقات، ينازعون البرد بأفئدةٍ يائسة، تصاحبهم كلابهم السعيدة، بلهاثها الحثيث الساخن، الذي كان يبعث عليهم بشيء من الدفء. ربما الكلاب أكثر سعادة منا نحن البشر؛ لأنها تجد الصديق المخلص لها بينما الإنسان لا ينفك يبحث عن الإخلاص ويُفتِّش عن الإنسانية الضالة وكأنما يعبث بأكوامٍ من الزُّبالة الفارغة.

توقفا عند أحد الجسور الصغيرة، رفعت كارمن رأسها إلى السماء، بينما تتنهد مُعبِّرةً عمّا في صدرها بشجن قائلة :- أبي كان مسيحيًّا متدينًا وصالحًا أمي كانت عنيدة وواقعية لكنها كانت مخلصة كانت لا تكترث بالجوانب الروحية مع ذلك كانت مؤمنة كانت تحذرني من التأمل في النجوم وتقول لي لا تطيلي النظر بهذي البعيدات ولا تنخدعي بهذي المتلألئات أخبرتني بأنها تخطف العين وتذهب بالعقل في بحور بلا شطئان من المرهق أن يفكر المرء بفلسفة الحياة وكم من أرواح أتعبتها مثل تلك الظنون لكنهم لم يتوقفوا عن الدوران في أفلاكها وكما ترى فليس الله من يقتل ويخطف ليس هو من اختطف آنا وألقى بها في حجرات التعذيب ليس هو من انتزع طفلًا من صدر أمه ليترك فؤادها يحترق بكل ثانية ليس هو من يحيك المؤامرات في الظلام وكم من الحروب التي لم يصنعها الله ليس الله يا يحيى من صنع بنا الشرور ليس هو من ابتدع الفساد بل الإنسان من أورثنا الدماء المُراقة إلى يومنا هذا.

- كفى تبريرًا لكل شيء الحياة ليست إلَّا مرتعًا للشرور.
- مع ذلك ينبغي لنا أن نسكت عن الحق بإمكاننا تغيير كل شيء.
- تحلمين كشاعرة هائمة عن أي تغيير تتحدثين يا أميرة النور والعرب منبطحون لا يريدون المواجهة ويهنأون بالتبعية دعينا نفكر بشيءٍ من العقلانية كل شيء سينتهي سيتسلمون المخطوطات ويعيدون آنا من الاعتقال ويفرجون عن الصبي ومن ثم نعود وننعم بحياتنا فالرجل الفلسطيني وعد بتسليم ما لديه وهم لا يريدون منا شيئا آخر قلادة التاريخ لديهم والمخطوطات بحوزتهم معهم الماضي والحاضر ولن يعنيهم أمرنا.
- لكن سيعنيهم أننا ندرك الحقيقة ربما يزعجهم ذلك ويفكرون بالتخلص منا.
- لماذا عليهم أن يفعلوا ذلك؟ نحن لا نمثل لهم أي تهديد حقيقي بالنسبة إليهم لسنا سوى ثلة من الرعاع وهم سيطلقوننا في البرية لن نكون أبطالًا إن تحديناهم باختصار نحن جميعًا أنا وأنتِ وجميع البشر ليسوا سوى دُمى يائسة مهترئة بأيديهم.

نظرت إليه كارمن نظرة ثقة وقالت :

- لكني أريد أن أكون تلك الدمية التي تعرف الخيوط.

***

في اليوم التالي حبس الجميع أنفاسه انتظارًا للحظة إطلاق سراح الصبي. كانت المخطوطات في طريقها للوقوع بأيدي العصابة الدولية، حيث لم يعد هنالك من مفر لتنفيذ رغباتهم، بينما الأحوال تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، ولا أحد يمكنه أن يحزّر ما

الذي بوسعهم إتيانه إن لم يمتثل أبو مريم إلى تعليماتهم. تجشَّم أشرف مهمة التسليم حسب الاتفاق في المكان والموعد المحددين. وبقلب البناية القديمة انتظر دقيقتين وبعدها بلحظات سَمع صراخ ولده فاندفع نحوه، وما لبث أن وقع بين أحضانه حتى أجهش في بكاء مفروط. بدا الظلام آخذًا بالانقشاع، لكن القدر كان يخفي لهما معركة جديدة تختبئ خلف الستار. فبعد يومين وصلت رسالة توقَّعا أنها تحمل فَرَجًا مُحتملًا لإفلات آنا من قبضتهم، وبهذا الأمل الضئيل شرع يحيى بقراءة الرسالة التي تقول :- لقد أبليتما بلاءً حسنًا حان موعد الجائزة الكبرى مفترض أن يكون ثوابكما أعظم من الجنة أحمل لكما بشارة صديقتكما ستنعم بالحرية والرئيس الأعظم يتشرَّف باستقبالكما استقبال الفاتحين ومن الأفضل أن تحضرا لاستقبالها ربما تشعران بالخديعة والمكر حسنًا دعوني أخبركما أمرًا في الثامنة مساءً عليكما أن تستعدا لرؤيتها عبر فيديو حيّ مع ذلك فهذه ليست النهاية بعدها تنتظران رسالة جديدة تحكي عن الترتيبات المرتقبة لإقامة حفل لكما على شرفنا الزمان والمكان ستعرفانه لاحقا نحن نفي بوعودنا والرجل متحمس للغاية كل شيء مرتب له وأستحي ألا تنولان المكافأة المقدَّرة وداعًا.

وفي الثامنة مساءً عبر الرابط الذي جاء مدمجًا بالرسالة وقفا بعينين جاحظتين انتظارا للتحميل، ظهر لهما عدَّاد لعشر ثوانٍ وبأخر ثانية أصدر صفيرا هادئا من الشاشة التي احتالت سوادًا قاتمًا. كانت الإضاءة تتبدَّل بخفة ملحوظة وكأن هنالك صورة مشوَّشة تقترب من الوضوح فاندفع الأدرينالين بجسديهما وعَلا الترقب الوجوه. ومضت لحظات صعبة حتى شرعت وحدات الصورة بالتكثُّف فتبدى لهما ضياء شمسٍ مشعة تسطع على نحو باهت. فعل منظرها المبهج في قلوبهما الأفاعيل، وعلى نحو شاعري ارتفع بهدوء حفيف هواءٌ متراقص ممتزج بهزيز ريح وديع رسم في الخيال صورًا لموسيقى عذبة تذوب خلال صوت أمواج بحر متلاطمة تمور حين تفرش خدها على وجه شاطئ رملي ناعم ناصع البياض، ثم في حين أخرى تبتعد برشاقة مخلِّفة وراءها زقزقة نوارس تبحث لها عن طعام. سلب المشهد الشادي لبيهما، فامتزجت مشاعر التوجُّس الرهيبة بأخرى فتَّانة آسرة. بدأ طيفٌ شفَّاف لامع يعدو بلطفٍ من بعيد فوق الشاطئ، وانعكست صورة لفستان أبيض فضفاض يتطاير بنعومة على مرآة الرمال المصقولة. وكما التصوير البطيء جعلت صورة آنا تتضح وتعلو بجلاء.

اقتربت آنا بحدة من الكاميرا، حتى غطَّت وجهها بالشاشة، وهي تضحك بنشوةٍ صافية، وخدَّيْن نابضين من وهج التألق، بينما شعرها ينساب خفيفًا خلال الهواء. كانت لحظة فارقة تلك التي ارتسمت فيها على جبين الزوجين ابتسامة مضت معها أيام كثيرة غابرة. تهدَّج عبيرٌ مهندمٌ من أنفاس آنا فنبع منها صوتٌ متهدِّلٌ إذ تُلوِّح بطرف إيشارب حريري ملفوف حول رقبتها، وتحرَّكت شفتيها الحمراء قائلةً:

- كيفكما صديقاي الأعزاء؟ كم أشتاق لكما.

نظرت كارمن وقد علا وجهها سيماء استغراب مُلِح. تردد الكلام في حلقومها، وعلى نحو بطيء قالت :- لا أكاد أصدق ما أرى . ابتسمت آنا قائلةً :- كم يروقني سماع صوتكِ من جديد كيف تمضي الأمور معكما؟ تبادل الزوجان النظرات، لكن يحيى لم ينتظر حتى قال :- نحن سعيدان للغاية لأنك بخير كنا قلقين كثيرًا بشأنكِ. ابتعدت عن الكاميرا قليلًا وأخذت بالرقص مستنشقة الهواء العليل، ثم زفرته بهدوء قائلة :- سأبدأ صفحةً جديدة لا أريد أن أفكر في الأيام الماضية ما زلت أتنفس بحرية. أسرعت كارمن لتقول:- آنا أخبرينا ماذا حدث معكِ؟ فأجابت بتنهد وهي تقول :- صديقتي الغالية دعينا مما مضى لا يسعني الانتظار سنعود قريبًا ونحن ننفض عنا الغبار ستشرق شمس حريتنا بلا انقطاع وكل ألم سيزول. فقالت لها متحمسة:- إذن اللعبة انتهت؟ لكنها آنا أجابت وهي تبتسم قائلة :

- الشيفرة ليست معي والخيوط ليست بأناملي إنما ما أوقنه هو أننا سنلتقي.

وفجأةً انطفأت الشاشة وسُحِبَت صورتها بسرعة مذهلة. صاح يحيى قائلا :

- لقد انقطع البث.

***

قبل أقل من أسبوع من رأس السنة وصل يحيى وكارمن إلى مطار بن غوريون. كانت كارمن تمر بمخاض عسير، وباتت على وشك استقبال طفلها، ورغم ما تتكبده من عناء الحمل أصرَّت على البقاء إلى جانبه. وبالموعد وجدا سائق أجرة بانتظارهما خارج صالة الوصول وحتى غرفتيهما بمنتجع هرتسيليا الفاخر مع إطلالة للبحر، لكن عناء التفكير بما هو قادم ما كان يلوح في مخيلتيهما. وفي صباح اليوم التالي غادر يحيى الغرفة صباحا وعبَر الممر إلى المصعد، في أثناء ما كان رجل يستعد لمغادرة غرفته وهو يجرُّ إلى جانبه حقيبة بعجل إلى أن توقف بجانبه. كان منهمكًا في هاتفه، وما إن لاحظه يحيى حتى صاح قائلا :

- مروان؟ أنا لا يمكنني تصور هذا .

ثم سارع باحتضانه قائلًا :

- أخي العزيز هل يعقل أن أراك صدفة وفي تل أبيب؟

ضرب يحيى على كتفه وقال مازحا :

- قل لي ماذا تفعل هنا؟

تلعثم مروان إذ قال :

- البنك الإماراتي أرسلني لإرساء شراكات مصرفية مع إسرائيل اليوم هنالك فرصة للاستثمار بين البلدين .

أغلق مروان باب المصعد ودعاه لتناول الفطور بالطابق الأرضي، ثم انفتح على المطعم والبار. جلسا حتى تقدَّم نحوهما النادل الذي جعل يسهمهما بنظرات شاحبة من الود. تناول يحيى القائمة بينما مروان سريع الكلام ينتزعها منه وهو يقول:

- لا أنت ستتوه في أسماء الأكل بالعبرية اتركني أنا اختار لك .

انصرف النادل على مضض، فأمدَّ مروان رأسه عبر الطاولة هامسًا بأذُن يحيى قائلا :

- ءَرأيت النادل كيف كان ينظر لنا بتجهم ؟

وأردف قائلا :

- انتبه لكوننا عربا كما ترى من حولك هنا سياح إماراتيون كثر وطبعًا لم يعتادوا على الوضع الجديد .

ثم أومأ إلى يحيى وقال :

- ها أخبرني أنت جئت بجواز سفر أمريكي فهل زرت القدس أم ليس بعد؟

***

عبر تليفون الغرفة وصل اتصال مُحوَّل من استقبال الفندق. أجاب يحيى فسمع هنالك نبرة خفيضة تعزمه هو وزوجه على تناول فنجان قهوة بمقهى أرميني مجاور. وفيه أشارت كارمن قائلة :

- هل ذاك هو؟

مضت ثوانٍ من الصمت قبل أن يبدأ كوهين بالحديث فيما ينظر إليهما من عينين ضيقتين شديدتي السواد خارج زي رياضي أنيق، حتى توقف عن الكلام لبرهة، وأعاد القهوة إلى صحنها وهو يقول :

- أنا مكلّف من الجهة التي استدعتكما باللقاء معكما وضيافتكما بكرم والحرص على راحتكما.

تعجَّبت كارمن فقالت :- لا نعرف عن أي راحة تتحدث؟ فأجابها كوهين قائلا :- أقصد الراحة المطلوبة للاستجمام والسياحة بإسرائيل. قال يحيى ممتعضًا :- هلّا أخبرتنا عن سبب طلبك للقائنا؟ نحن قلقان على صديقتنا ونريد العودة والعيش بسلام. فعلَّق كوهين قائلا :- وعن السلام أتحدثُ المطلوب هو أن تدعماه بين شعوبنا فإلى متى تنتظرون؟ الدنيا تتغير والمستقبل لنا. قاطعته كارمن قائلة :- كل هذا العذاب وتتحدث عن السلام ها وما المطلوب إذن؟ فأجابها وهويشعل سيجارا قائلا :- لا شيء غير أن تسعيا على الدعاية الإيجابية لهذا السلام وتعملا في هذا الاتجاه تمتلكان المقومات التي تكفي لأن تكونا خير ممثلين عنا يمكننا جعلها صفقة جديرة بأن تُذكر في التاريخ. فضحكت كارمن وهي تقول :- أووه هل هذا هو كل ما هنالك؟

- نعم بالضبط.

فأسرعت بقولها :- إذًا ومتى يمكننا العودة ومعنا آنا؟ نظر إليها يحيى وهو يقول له :- نحن نفكّر في العودة. أجاب كوهين وهو يعود بظهره ويمسح فوق شعره الأبيض قائلا :

- العودة لم تعد ممكنة إلى الوراء العودة تكون بالمضي قدمًا إلى المستقبل.

فقالت كارمن بإصرار :- إن لم تكن العودة وإقامة دولة فلسطينية ركيزتين قائمتين بذاتيهما فكيف نتخيل الغد؟ باغتها كوهين بقوله :- ما هي تلك الدولة الممزقة والمنقسمة على نفسها لشطرين؟ الأمور تسير حسب تصورنا فكّرا جيدا . ثم التفت إلى ساعة يده قائلًا :

- وقتي محدود اللقاء أخذ أكثر من عشر دقائق وعليَّ المغادرة انتظرا مني الرسالة الأخيرة.

***

كان هنالك في مكان ما مظلم بالغرفة إلّا من أشعة نور حوض لأسماك زينة ملوَّنة بصفاءٍ كسماء بلا غيوم. أمسك بقارورة صغيرة تحمل في جوفها سمكة بهيَّة ثم ألقاها بالحوض الكبير، فتراقصت السمكة متغنِّيةً في بهجة ما أن اشتمَّت رائحة الحرية وعادت لبيتها القديم. تمثَّلت صورةٌ للقدس على سطح الزجاج، وتمثَّل إلى جانبه رجلٌ مرفوع القامة وكان غاضبا إذ يقول له يحيى وهو ينظر إليها :

- القدس حزينة شاحبة وجهها تعيس تنشد هذا السلام الأخير.
- ماذا بيدك؟
- غصن زيتون يابس لكنه ما زال ممكنًا وبئيس.
- لمن تهديه؟
- للمؤمنين بالسلام حول العالم أنا أثق بأنهم صادقون وقادرون على خلق التغيير.
- لن ينفعوك انظر إلى القدس أيها الأسير ماذا ترى؟
- عيناها داميتان جاحظتان من الأسى.
- هل تراهما حقًا كما أرى.
- أجل أرى لا تخفي حزنًا كالشمس تحمى في كبد النهار.
- فلتسأل القدس عن السهد شوقًا لعينيها الكحلاوين وتحدَّث إليها طويلًا وقل لها بأنَّ الضباع في دارنا فما لها تخشى الضباع؟ فلتفتك بهم ولا تخشي الوهن لأن الوهن لا يصيب السباع.
- لكنها لا تجيب.
- وبما تجيبك يا أخي؟ وقد خانها الجميع.

نظر يحيى إلى البلورة فأخرج منها سمكة لا تزال في طورها الأول. نظرت إليه السمكة الصغيرة وبعينها تلمع دمعةٌ، ثم راحت تصرخ في بكاءٍ شديد حتى أدرك يحيى شيئًا يصرخ في أذنيه ولا يبرحهما، ففزع ونهض وإذ به يكتشف أنه يصدرعن زوجته التي كانت تتلوى من آلام الطلق. أسرع بإضاءة المصباح، وهرع إلى هاتفه واتصل فورًا بالإسعاف الذي حملها إلى المستشفى، ومن ثم ليخرج من رحمها طفلٌ تشاء له الأقدار أن يتنفس نسيمه الأول من فوق الأرض المقدسة.

***

(٣٠ ديسمبر – ٢٠٢٠ م)

- نحن نعبر الجسر إلى مدخل النفق الرئيسي لندخل إلى أسفل البلدة القديمة باتجاه المسجد الأقصى من الجنوب إلى الشمال النفق مبني من أربعة أو خمسة قوالب من الصخر الطبيعي على جوانبه ينتهي بالأعلى إلى انحداره بسقف يدنو من الرؤوس على شكل قوس ما يشير بحسب العلماء إلى أنه بُني حسب الطراز الأموي على أسس عربية كنعانية ومن هنا تبدأ الحفريات.

علَّق يحيى زر التسجيل لدقيقة بينما توقفت كارمن لصراخ الرضيع.

- يريدون بناء مدينة تحتية تمتد من سلوان عبر أسفل ساحة البراق .

قالها يائير الدليل السياحي والذي اصطحبهما بمقابل متواضع خلال جولة تظاهر فيها بأنهما صحفيان. ثم استطرد قائلا:- ومن حي سلوان عبر أسفل ساحة البراق ومن ثم أنفاق الجدار الغربي ثم عند باب العامود ومغارة صدقياهو أسفل الحي الإسلامي وبالتالي تكوين شبكة يهودية بين كل المواقع.

وهي تنظر إلى الكاميرا عقبت كارمن على كلام قائلة :- لم يعد مسموحًا لنا بالتقدم خطوة أخرى إلى الأمام جدير بالإشارة إلى أن الفلسطينيين قالوا بأن لديهم قرائن كثيرة وكذا وسائل الإعلام الإسرائيلية طالما صرَّحوا بذلك بأن هناك حفريات في تلك الزاوية من المسجد الأقصى أو في هذا الاتجاه. أجابها يائير بإسهاب قائلا :- يقولون عليها حفريات لكنها أداة بيد الحكومة وجمعية إليعاد بهدف إثبات أن الكل يهودي بطبيعة الحال كل الأنفاق التي تراها حقيقة هي أنفاق مملوكية أو أيوبية أو عثمانية هذا ما لا يتحدثون عنه وهناك الكثير من الحقائق التي أتحفظ على ذكرها ما تجعل من الأمر مخيفًا ومرعبًا.

أعادت كارمن بصرها إلى عدسة الكاميرا ثم أرادت التعليق على أمر ما قائلةً :- كما تلاحظون المنطقة مغلقة يمكنكم رؤية هذه العبارة التي تدعو الزائرين إلى وجوب الخروج لكننا نصرُّ على الاستمرار قليلًا إلى اليمين لنبحث ماذا يوجد هنا؟ نتقدم حيث يأخذنا النفق إلى هذا الاتجاه لكننا نصطدم بسلم يعلوه باب حديدي مكتوب عليه منطقة خطر.

أردف يائير قائلا :- وهنالك الكثير من الأنفاق مخفية الأمر مخيف ولا تعرف ماذا يحدث ولا تعرف نواياهم وأهدافهم هم لا يقولون نبدأ من هنا وننهي هناك لا أحد يعلم متى سينتهون.

تعجبت كارمن وقالت :- أتفهَّم ذلك حينما يتعلق الأمر بالسيَّاح إنما بالنسبة للباحثين فما الذي يدعوهم لهذا التعسف؟ فلوَّح يائير بكلتا يديه وهو يجيب عليها قائلا :- إنهم يمنعون بتاتا السماح لأي مجموعة محايدة من العلماء بأخذ حريتهم بالتنقيب حول حقيقة ما يجري تحت المسجد لأن الذي يجري جريمة ضد مكان عبادة من جهة وضد التراث الإنساني وضد التاريخ والحضارة من جهة أخرى.

اضطروا للعودة أدراجهم، فأنهت كارمن التسجيل.

- أقولها بوضوح لا يمكن إيقاف الحفريات ما دامت القدس تخضع لخِراب الإسرائيليين سيكون تراث البلدة القديمة بخطر داهم وعلى رأسه المسجد الأقصى والآن انتقلوا إلى مرحلة الحفريات العلنية ومنها إلى إعلان أهدافهم عندما يظنون بأن الأجواء أصبحت مواتية ويبدؤون ببناء الهيكل على أنقاض قبة الصخرة .

قالها يائير بمجرد أن صعدوا إلى السطح، ثم مضى عنهم بعد أن تقاضى أجرة، فعرجوا شمالًا مترات قليلة تفصلهم عن حائط المبكى والبراق. كان النهار يشارف على الانقضاء وهما يخططان للتجول في سوق خان الزيت للتبضّع وللتزوُّد بالطعام قبل العودة لليلة أخرى إلى غرفتهما بالقدس الغربية. وخلال سيرهما لم يخطر ببالهما أن أحدًا ربما يكون متعقبًا لخطاهما، فعلى مقربة إلى الوراء منهما كانت هناك فتاة إسرائيلية تحذو فوق آثار أقدامهما على مدار نصف ساعة كاملة. وما إن وصلوا إلى الحائط حتى بدت كأي يهودية تؤدي صلاتها الخاصة. كانت الشمس إلى زوال، فتتبعتهما حتى إذا اقتربا من باب العمود مضت باتجاه آخر.

تنبّه يحيى إلى أن الأمن يُغلِّق باب العامود من الخارج ويشدد الطوارئ، بينما يُشيّد سواتر حديدية سامحًا فقط للمغادرين من المرور خلالها. وقفت مسنة فلسطينية تصرُّ على عبور حفيدها معها، لكن جندية إسرائيلية تحمل على ظهرها سلحفاة ضخمة من الذخيرة وبّخت الصبي قائلة:

- عد إلى النوم في المنزل هيّا.
- لن أعود أنا ذاهبٌ إلى الأقصى لأصلي.
- أنت متمرد لا تقترب.
- سأصلي في القدس سأصلي في القدس.

وجعل يتقافز أمامها في تحدٍ، وهو يغني قائلا :

- للصهيونية لن يبقى أثر فوق الثرى وشعوب العالم في الأقصى تترى حتى ترى.

تحوّط حوله عددٌ من الصبيان والصبايا بعمر جيل التيكتوك، وهم ينشدون بيقين جارف في نفسٍ واحد قائلين :

- نحن السرُّ المكنون سنصلي في القدس وبأيدينا الفأس وبه سنقطع تاريخَ إسرائيل.

ثم إذا هم يتحلقون في دوائر، ويرقصون بأياد متشابكة، ويغنّون في مرارة يقولون :

- ذُلّنا المؤبّدا وعيشنا المُنكّدا لا نريد بل نعيد مجدنا التّليد مَوطني موطني.

اقتربت ثلة من وحدة الخيول، حتى إذا نزلوا على الصبية بالهرّاوات فتفرقوا ولا يزالون ينشدون، بينما تصيح الجندية السلحفاة في الفتى قائلة :

- كفى كفى تنحّوا جانبًا هيّا أنتَ تعال هنا اقترب اسْمَع سأدعكَ تَمرّ الآن لكن عليكَ أن تركض مستعد؟

قفز الفتى قفزةً أعلى الحاجز مخترقًا الجند والجنديَّات كالبرق لداخل السور. صاحت كارمن بيحيى فانتبه، وترجّل للتصوير بكاميرته. غدرت الشرطية وانخفضت ،وصوّبت سلاحها نحوه فأصابته بخمس طلقات في مؤخرة رأسه مباشرة. انقذف الفتى

عدة مترات للأمام وقد انفجرت جمجمته، فدوّى سقوطه على الأرض في أنحاء البلدة القديمة كلها. صرخت الجدّة صرخةً مزلزلة، وانهارت كارمن على نفسها. ناولها يحيى الرضيع، وهو يجثو في ذهول ليلتقط كاميرته حتى قال :

- لقد قتلوه بدمٍ بارد كانت أعيننا مسحورة عليَّ أن أرسل الفيديو إلى الاعلام لابد أن يرى العالم الحقيقة.

انقلب السحرعلى الساحر في الوقت الذي انبطح فيه رجل ثلاثيني إلى جواره ضامًّا إلى صدره صبيين صغيرين، لمَّا رأوا الدماء أصابهما الهلع، فكانت تدوّي في الأرجاء صرخاتهما المفجعة. اهتاجت النفوس التي كانت بداخل السور لنجدة الفتى الذي كان يلفظ أنفاسًا أخيرة، لكن المجندين بدئوا جولة جديدة باللعب، راحوا يتبارون بمسدساتهم رميًا بالرصاص على كل من يقترب منه وهم متباهون. صرخ أحدهم قائلا :

- اقْتُل ذاك على اليمين لا أنت دع لي هذا.

انبثّ الناس، وانتشرت الشرطة في المكان تُفرّق التجمعات، بعدما دوّت قنبلة صوت خلف ساحة باب العامود. صرخت ونهضت في هلع وهي تشدُّ نفسها وكأنها جثة، وصاحت بيحيى ليحترس، فقام مسرعًا وجرى بهما إلى بوابة السور. تباطأت خطواتهما عند مرور الحواجز. صاحت بهما المجندة الإسرائيلية قائلة :

- يلا أنتما مُرَّا سريعًا لا تنتظرا هنا هيّا.

اهتزّ هاتفه فطالعه في التو، ثم تبدَّلت أساريره على نحو مفاجئ، ومن سؤال كارمن أخبرها أنه وصلته رسالة ظهرت له فيها صورة غامضة، وبعد التحميل تم توجيهه إلى صفحة زرقاء خالية عدا من شيفرات متقطعة. نسخ يحيى الشيفرة، ثم لصقها بصندوق الروابط، وكبس زر التحميل. الأمر استغرق عدة دقائق، ظن فيها بأن هناك مشكلة في سرعة الإنترنت، لكنه بعدها غضَبَ وقال :- انتهى التحميل إذًا ولم يظهر لي شيئا كان لابد أن يظهر.

مضت ثوانٍ لم تظهر خلالها سوى شاشة سوداء، فأخذ الشيفرة ولصقها بأحد البرامج الخاصة على هاتفه، فامتلأت شاشته بآلاف الشيفرات الرمادية، إلَّا أن شيفرة ما في المنتصف كانت مضاءة بالأحمر، فكبس فوقها فانبثقت منها رسالة مطوَّلة مليئة بالرموز والأحجيات. لم تكن كلماتها متراصة، إذ إن بين كل كلمتين ذات معنى قبعت كلمة تعطي معنى معكوسةً، في البداية ظن بأن عليه تجميع الكلمات المفهومة أولًا حتى تكونت لديه جملة طويلة لا تحمل أي مغزى صريح، وما أنتجته عبارة عن قصة تاريخية تحكي حصار القدس الذي تبعه اقتحام القائد الصليبي غوطفرد للمدينة في العام الميلادي ١٠٩٩. ساورت الشكوك صدره وبدأ يعتقد بأنها ليس هذا المراد توصيله، فطرأ على خاطره أن يجمع الكلمات المشفَّرة التي بين السطور بعد قلبها، وأخرج مذكرة كتب فيها تلك الكلمات، ثم همَّ بقراءة ما نتج له مع كارمن. تقول الرسالة :- المُهمة خطيرة والمُخاطِر هُمام لكنَّ القابعين في الحجرات المضاءة بخفوت ليسوا على علم كافٍ بما يحاك خلف الجدار تعلما في سويداء قلبيكما أن النهاية وشيكة وحتمية لكن الأمر برمته لا يربو لديكما عن كونه مجرد تمنٍّي بالنسبة لي هو إيمان لأن ما أملكه لن يتسنى لكما مهما حاولتما أن تصلا إليه أنتما مختصَّان برسالة وخيمة لا تقبل التأجيل الساعةُ تحين ولا غاية لي غير تنوير العقول المغتصبة في الظلام كان قلبي ميتًا لكنه بعث عندما أسلمت وجهي لنور الحق الأبدي حتى يملأ سماء القدس فيضُه وسماؤهم تتداعى لأنهم يحركونها بعجلات الكراهية ويغذونها بطعام البغضاء يسعون إلى فنائكم ليبقوا وحدهم في الملكوت الأرضي الذي صنعوه لأنفسهم بينما ملكوت الله لم يأمر بذلك خانوا العهد ويشاء لكما القدير بالقصاص وإذ إنني أستطيع فلن أكون بمفردي ستكونان معي ولن تَرياني سأقبع في الظل أقدم العون وأحرِّك الخيوط اليومُ والساعة مضمونان في السياق المكانُ قريبٌ على بعد خطوات عودا إلى الصورة فهي المفتاح العملُ مكتوبٌ في كتاب تعثران عليه عند الباب اللحظةُ مشفّرة وهي ذات الصفحة.

الانتفاضة قد تخبو كعروسٍ مهرها نفيسٍ ثوبها بهيٍّ، عريسُها ذهب للعمل يوم عرسه ثم غاب، اليوم بعشرين عام وكل يوم يعود ويختفى، وفي المرة الرابعة يؤوب إليها شبابها وتُرقِّع جراحها ليَزفّها عريسها. ما أنعم الصباحيّة الهانئة وهي تتلهف شوقًا في حنين الخميلة المحترقة للوحدة، وللمطر الذي كان يتساقط على رؤوسهما كحبات فرجٍ من ندىً، وبخمس دقائق حتى إذا رفع يحيى رأسه رأى الحال يتبدّل، فالساحة المدرَّجة التي كانت خالية منذ أقل من برهة غدت يسمع لها حسيسٌ بينما ترى حشودٌ منتفضة تهبُّ وتدبُّ زحفًا على باب العامود الذي توافد عليه أهله، وتجمهر الشبَّان الفلسطينيون والشّابات الفلسطينيات ووقفوا يمينًا في ركنٍ أعلى الدرج للاحتجاج بسلميَّة على تصفية الفتى المقدسي، رافعين لافتات منذِّدة وهم يصفقون قائلين :

- يا شباب انضموا إلينا دم الفتى غالي علينا بدنا نعيش في حرية حرية.

في أثناء ما كان فتى إسرائيلي متدرعًا بفرقة من ثمانية سلاحف أرسلهم كوهين معه لتأمينه وهو يخرج من البلدة القديمة، ويعبر باب العامود في استفزاز. وفي الجهة المقابلة اقتربت جمهرة شبان متطرفين من الليكود يرفعون الأعلام الإسرائيلية

متوجهين نحو السواتر الحديدية ليعبروا منها. وحين رأى الشبان ذلك انتفضوا تجاه البوابة واصطفوا أمامها وجعلوا يهتفون. كان هنالك رجل يهوديٌ يُرتّل من تلمودٍ بيدٍ وبالأخرى يمسك عكازًا بثلاثة مقاعد رفعه في رأس أحد الشبان فنزف من وجهه . استثار المرابطون فاندفع شاب لينقض على الفتى الإسرائيلي، لكن فتاة مسيحية تمنعه عن ذلك وتردُّه وهي تقول:

- لا تفعل رجاءً إنه صبي ستكون مجزرة.

فصاح بها قائلا :- لا يمكنني تحمّل كل هذا الاستفزاز إنهم يسمحون لليهود أن يعبروا إلى البلدة المحتلة ويمنعوننا عن مسجدنا وكنيستنا لا والله سنموت دفاعًا عن أرضنا.

وما كاد أن ينتهي حتى ركض خلفه، فانهالت عليه طلقات من الرصاص الحيّ، إلى أن تمزّق جسده لأشلاءٍ متناثرة. مارت الساحة في اشتباكٍ محتدم، عندما راح المستوطنون يدنسون دماء الشاب المقدسي المغدور بأحذيتهم. اندفع المتطرف ذو العكّاز نحو الفتاة المسيحية، واعتدى عليها ونزل بالعصا على رأسها؛ فخرَّت على الأرض. فلم يكد الشبان يرون هذا حتى ثاروا عليه ينالون منه. وفي أثناء ما تحاول الشرطة فض الاشتباك إذا شابٌ من عصبة الشبان المتطرفين يشهر مسدسه في الهواء، ويطلق زخّات من الرصاص صوبهم؛ لتندفع طلقة طائشة إلى صدر شاب جامعي. صاح الأصليون وهم ينشدون قائلين :

- الغضب الساطع آتٍ وأنا كلّي إيمان من كل طريق آتٍ بجياد الرهبة آتٍ آت.

اصْطدم الشبان في عراكٍ وخيم، وهجم الصهاينة عليهم بما يحملون معهم من مسدسات وخناجرَ تجزُّ الرؤوس، والمتطرفون العشرون وجدوا أنفسهم محاصرين، فاستعاد الأصليون حماسهم ونكّلوا بهم. تواتر الثوَّار ولم ينتظروا الشرطة التي أطلقت عناصرها قنابل الصوت والغاز بكل اتجاه. اتّخذ الجنود مواضعهم، وراحوا يصوّبون أسلحتهم تجاه الشبَّان، لكن الرصاصات الغاشمة كانت تميل فتصيب المتطرفين. سقطوا واحدًا تلو الآخر، فانتشر الجنود في هلع، وأفسحوا لعربات المياه العادمة بالتقدُّم. توافد المقدسيون واندفعوا من كل النواحي، وهم يركضون خلف الجنود السلاحف الذين لم يجدوا مفرًا من التعامل معهم بإطلاق وابل الذخيرة الحيّة والرصاص المطاطي، فتساقطوا كأوراق خريف وانفجروا في هبّة عظيمة لا يمكن كبحها. طاردوا الجنود وتصدوا لمركباتهم، وواجهوا الرصاص بصدور عارية. رجموهم بحجارة من غضب، وبمقذوفات نارية لم تعد كالألعاب، فلم يكن شيء ليمنعهم.

أقبلت وفودٌ بصيحة الله أكبرمن كل القدس، وخرج الأهالي عن بكرة أبيهم إلى شوارعها، وهم يهتفون بالحياة لها. فهبَّ المقدسيون يتوافدون ويتقاطرون من الحي الإسلامي وأحياء النصارى والأرمن واليهود، ومن كل مكان داخل البلدة القديمة إلى باب العامود. ثم لحق بهم من خلف السور طوفان هائل قدموا من بلدات عربية داخل الخط الأخضر، ومن حي الشيخ جرّاح، والناصرة، وأريحا، والخليل، وبيت لحم، والجليل، وطبريا، وصفد، وجنين، ومخيّمات الرّملة، وخان يونس، وغزة، ورفح، ودير البلح -جميعًا ينسلّون كفَراش مبثوث، ويهجّون كبركانٍ حامٍ مستعر، ويتساقطون شهداءً بالعشرات والمئات مع ذلك لا شيء يوقف هبّتهم وانتفاضتهم المزلزلة. وقد وجدت الشرطة الإسرائيلية نفسها في مأزق كبير، إذ فقدت السيطرة على الأوضاع، فتمَّ استدعاء جنود الاحتياط، وعناصر خاصة مدرّبة للتدخّل السريع .

اعتصم الآلاف في ساحة باب العامود. وصدرت الأوامر بفضّ الاعتصام مهما تكلّف الأمر؛ لذا اخترقت مركبات الشرطة صفوف المتظاهرين المنفلتة زمامهم، وكانت تنطح بكل من يقف في وجهها فتدهس كما تشاء أن تدهس، حتى غرقت الساحة في الدماء الغزيرة. سُمع دوّي انفجارات قنابل غاز تنهال على رؤوس الأصليين الشجعان، وكانت حين تنفجر تتطاير منها شظايا صغيرة حادة تصيب العشرات منهم. هرعت عربات الإسعاف لنقل الجرحى والشهداء، لكن أعداد الجثث لم تحصَ فقد احترقت العيادات الميدانية كلها، ولم يكن بالإمكان إغاثة المزيد من المصابين. دوَّت صفَّارات إنذار في أنحاء القدس وتوغلت مجنزرات ضخمة لساحة الاعتصام من كل الجوانب، وصاح جنودها في الميكروفونات قائلين :

- تحذير أخير على الجميع إخلاء المكان فورًا وإلّا فليتحمل كلٌ مسئوليته أمامكم مهلة خمس دقائق لفكّ الحصار وتأمين الخروج بانتهاء المهلة نبدأ إطلاق الرصاص الحيّ على الجميع دون استثناء تحذير أخير.

كانت التحذيرات غاية في الجدّية ما جعل البعض ينصاع لتهديدات القوات المحاصرة، وأخذوا يستحثون بعضهم البعض بإخلاء المكان إنقاذًا للأرواح وحقنًا للدماء. وبينما كارمن تختنق من الغاز إذ صاحت بيحيى ليسرع قبل توغل القوات على باب العامود، وهو يصرّ على الانتظار لإنهاء التسجيل. لمحت شهاب قنبلة صوت تعلو في السماء فصرخت بملء جوفها، وأسرعت إليه لتدفعه بعيدًا حيث كان واقفا إلى جانب من الشبان. ولمَّا دنت منه ومعها الرضيع صرخت فيهم قائلة :

- انبطحوا أرضًا هناك قنبلة صوت ستنفجر.

باب إشْمُونِيم

(٣١ ديسمبر – ٢٠٢٠ م)

بنهاية العام بدا اشتعال حرب عالمية أمرا جدّيا يُعتقد بأنها لمَّا تقم فستكن نووية ما تطلب عقد تفاوض على درجة عالية من الأهمية كُلِّف به جاد كوهين في بغداد. جمع كوهين بين النفوذ والثروة والمنصب فعمل في شبابه مراسلاً استخباراتيًّا لكبرى الصحف الإسرائيلية، وأدار شركة خدمات سياحية في مقتبل حياته، وتخرَّج في الجامعة العبرية أستاذًا مساعدًا في الدراسات التلمودية. وكان يخدم في الجيش إبَّان غزو لبنان، وأمَّا اليوم فهو يشرف وإن لم يكُ بصفة رسمية على عمليات خاصة بقسم الحرب النفسية ومهمته تجنيد المندوبين بكل الأقطار الخارجية، وإحباط تطوير الأسلحة النووية من قبل الدول المعادية. وهو عين حارسة على ضمان ألَّا تقع أيٌّ من آثار أو من وثائق تاريخية بيد من يكن العداء لدولته، فنجح ضمن عمله بسلطة الآثار في مشروعه للسطو عليها وحفظها بمتحف روكفيلر. حتى بات يُعرف في الأوساط الاستخباراتية بمهندس شيفرة دانيال لدوره في الاستيلاء على قلادة العهد ونجاحه بالعثورعلى مخطوطة كنز ضائعة من كهف الملح. ولكنَّما بتحقُّق أمنيته بشأن الكنز لم تتحقق أمنيته بعد التي تمنَّاها بالوصول للسلطة، فأنشأ حزبا سياسيا عريضا يسعى من خلاله إلى رئاسة الحكومة وفق النبوءة.

عصرا حطَّت طائرة خاصة بكوهين فوق مدرج خاص بالسفارة الأمريكية بالمنطقة الخضراء، ومعه عدد محدود من قادة العمليات الأمنية ومسئولي الاستخبارات. وبنفس التوقيت توجه الزوجان إلى متحف روكفيلر كسائحين، وحين أبرزا هويَّاتهما الشخصية سُمح لهما بالدخول والتصوير بشكل محدود في الأماكن التي تعلوها لافتات تشير بذلك. ومع أنَّه لم يكن عاجًّا إلَّا أنَّه لم يخلُ من زوَّار قصدوا القدس بغية الحج بمناسبة ميلاد السيد المسيح. دلفا إلى حيث قاعة الصرح الرئيسية، والتي بين جدرانها مجموعة أثرية كبيرة تم تجميعها من عمليات التنقيب التي قام بها كوهين خلال أربعين عاما .

- نوجه عنايتكم بأنه سيتم الإغلاق في تمام الخامسة نظرا لحالة الطوارئ في البلاد يرجى الالتزام بالتعاليم.

صاح أحد الحرَّاس عبر المذياع بصوتٍ حازم. وكان المكان محفوفًا بحرَّاس مدججين بذخائرهم، فيما كانا حذرين لكيلا يثيرا الشك نحوهما، فقد أثار يحيى ضجة بطلوع الصبح من فيديو مذبحة القدس التي متى نشرها جابت العالم محققة أعلى مشاهدات. وعلى نحو طبيعي قدمت كارمن عبر بثٍ مباشر بالفيسبوك جزءا ثانيا من فيلمها الوثائقي عن القدس خلال كاميرا موضوعة في ساعة بيدها، وبواسطة قطع السماعات بأذنيها راحت قالت بصوت مهموس :- من هذا السلم أسفل مترات يسيرة من مكتب جاد كوهين وأعلى بخطوات قليلة من قاعة المخطوطات الأرضية تستحوذ اللصوصية الإسرائيلية على أحد أهم اكتشافات القرن العشرين تعود إلى بداية العهد التوراتي ما يؤكد أنهم عصابة دولية لا تاريخ لهم على هذه الأرض وعلينا حثّ العالم على تبنّي قرار تجاه ما يحدث في القدس من تطهير يرتكز فيه على التصفية المباشرة كما شاهدتم بأعينكم ما حدث ليلة أمس لم يعد مقبولا أن نصدق أنفسنا في الوقت الذي لا نستطيع أن نقول فيه بأن إسرائيل نظام فصل عنصري أبشع من الفاشي وأوقح من الشيطان ذاته لكن للحقيقة جوانح عفوا مستر كوهين مضطرةٌ لخفض صوتي أتمنى ألّا ينتبهوا فالتصوير هنا غير مرحب به .

للحظة أومأ لها يحيى لأن تسرع بالانتهاء حين كان مؤشر ساعة يده يدنو من الخامسة. وعلى نجو فجائي سُمع خارجا دوي انفجار كبير لسيارة مفخَّخة على بعد أمتار ليست قليلة. فورًا دوَّت الصفَّارات التلقائية بكل أرجاء المتحف، فيما انقسم الجنود بين من هرع لحماية المتحف ومن انتشر بداخله لتأمين المقتنيات الأثرية والزائرين على حدٍ سواء. وقبيل انتشارهم بلحظات كان متسللون ملثمون من الأصليين مسلحين بمسدسات غلوك كاتمة للصوت وعلى أهبة الاستعداد لاقتحام المتحف عبر نفق سري يمتد أسفله بطول ثلاثين مترًا وانطلاقًا من بئر محفورة في ساحة أحد البيوت المجاورة. في رفَّة عين تسرَّبت عُصبة استرداد تراث القدس إلى داخل قاعة المخطوطات. وخلاله كانا واقفين ترقُّبًا للحظة الصفر أمام القلادة المغتصبة التي رأياها معروضة خلف واجهة زجاجية مقاومة للرصاص

***

انعقد الاجتماع بقاعة كبرى للاجتماعات السرّية مع اللواء الإيراني قسمت علي وبحضور جون غرونفيلد الممثل الأمريكي إلى جانب هوفمان كوخ ممثل عن المفوضية الأوروبية المشتركة، وبتأمين العقيد العراقي كاظم موسوي وفريقه الأمني. وفي أثناء اللقاء أظهر كوهين لهجة غير مبالية باندلاع حرب مؤكدًا أن الأمور تسير إلى هذا النحو بأي حال. كان باردً وهادئًا تعلو وجهه مشاعر مُقنَّعة، وكان قسمت علي على علاقة وطيدة به في مرحلة سابقة لكن أحدًا من القادة العسكريين

الإيرانيين لم يعلم بوجود علاقة كهذه بين الرجلين؛ فالرجل الإيراني المحنَّك الذي يمتلك تعابير وجه مبتسمة وماكرة في كثير من الأوقات يقابله كوهين ذو التعابير الجافة والسيماء القاسية.

قال قسمت علي بدهاء :- تؤكدون بأن نجاح عمليات الاغتيال دفع ساستكم إلى تجنب القيادة العاقلة تشعرون بأنه في متناول أيديكم هذه العصا التي يمكنكم بها إيقاف التاريخ لكن إلى متى يبقى هذا رادعًا سيد كوهين؟

فأجابه كوهين ساخرا :- لتأخذ الأمر الجدِّي بأطراف الأصابع وتذُرُّه بوجوه الأعداء ذَرَّ الملح على الطعام دعني أخبرك أمرًا إذا همَّ شخص ما ليقتلك قم واقتله أولًا هكذا تجري المعضلات الأخلاقية لديكم ولدينا على حدٍ سواء.

***

وبالمتحف قبيل انتشار الجنود بالقاعة كان هناك ثلاثة حرَّاس يقفون عن المدخل، هرع يحيى نحوهما ليسألهما عمَّا يجري بالخارج، فأخبروهما بضرورة الإخلاء. حاول إلهاءهم بتصنُّع الانفعال في اللحظة التي كان المتسللون يصوبون أسلحتهم على رؤوسهم فأسقطوهم بطلقات ثلاث. وبثوانٍ قبل الاقتحام وجَّه أحدهم طلقات متواصلة. استغرق الأمر أكثر من رصاصة متفاوتة عن قرب متطلبة لعمل نافذة بداخل الزجاج، وحيثما برزت ليحيى فوهة صغيرة أمدَّ فيها يده بحركة سريعة ليلتقط القلادة. ولكنه بمجرد انتزاعها كان الجنود قد وصلوا، فحدث تبادل لإطلاق النار. انبطح الزوجان بعدما ركضا نحو باب الطوارئ، بينما المتسللون يوفرون لهما الحماية اللازمة للهروب .

عند الجهة الأخرى لممر الطوارئ لاحظا اقتراب أحد الحرَّاس ما اضطرهما إلى الارتداد باحثين عن مدخل النفق السري كما الخريطة التي كانت مع الكتاب. صاح يحيى بكارمن لتلج إلى الفوهة بينما تحمي رضيعها من الرصاص، واخترق النفق خلفها. ركضا بداخله في أثناء ما كان الجنود يجهزون على المتسللين حتى قضي عليهم. كان هنالك أحد الحرَّاس الذي لاحظهما عبر الكاميرات فهرع باحثًا عنهما. مضت دقائق نجح الزوجان خلالها من اجتياز النفق، حتى وصلا إلى فوهة الخروج. تسللا السلم الحديدي مندفعين نحو سطح البئر، وعلى نحو مباغت لاحظهما أحد السكَّان والذي كان يحمل مسدسًا بيده، فأطلق عليهما الرصاص، لكنهما اختبآ خلف شجرة زيتون فارعة. بحث عنهما الرجل وأسرع بإبلاغ الشرطة ما جعل كارمن تصيح قائلة :

- ماذا نفعل؟ إن نهرب فسيمسكون بنا.

***

في الأثناء كان قسمت علي يسخر قائلا :- أسَّس بن غوريون مؤسسة الاستخبارات الإسرائيلية بعد ثلاثة أسابيع من قيام دولتكم وفي خضم الحرب كان واثقًا من أنكم الفائزون .

ردَّ عليه جون قائلا :- يجب أن يكون لدينا مجتمع استخبارات قوي حتى لا نحتاج لأن يكون الجيش بأكمله منتشرا بطول الحدود في كل وقت. اعترض كاظم موسوي وقال :- لكن كانت هناك خطة بمجرد اندلاع أعمال الشغب فإن الدفاع يذهب ويغتال القادة كان هذا جزءًا من استراتيجيتكم التي لا تزال قائمة. فعقَّب هوفمان كوخ على كلامه قائلا :- أرى بأن الاغتيالات جزء من سياسة عامة في محاولة لتوسيع الفجوة بين الحروب فلتخض حربا عندما يكون السيف على عنقك هذا يبدو منطقيًا في عمل السيد كوهين.

أردف قسمت علي قائلا :- الطريقة التي تعملون بها تؤكد أن عالمكم الحقيقي ليست أقل إثارة من أفلام جيمس بوند المفضلة لي ورغم قولكم بأنَّ عملكم ينبغي له أن يكون بصفر أخطاء إلا أن خطأ واحدا مثل سقوط إيلي كوهين يمثِّل لكم كارثة وطنية. فتدخَّل كوهين غاضبًا إذ قال :- لا يمكن أن تكون هناك صفر أخطاء ويبقى أنكم لن تتمكنوا من الوصول إلى أساليبنا المتطورة لقطع عنق كل من يفكر بتهديد سلامة إسرائيل . قطع جون عليه وقال :- الأمر برمته يبقى في إطار الهوس بقرب النهاية وما كان هوس شارون لاغتيال عرفات إلا بسبب أنكم وصلتم إلى أماكن إشكالية بينما يبقى احتمال بأن جيلنا هو الجيل الصهيوني الأخير وربما تبقى دولة يهودية ولكنها ستصبح دولة قبيحة.

أومأ كوهين إليه قائلًا :- بقدر ما كنت أنتقده في حرب لبنان إلا أنني أعتقدُ بأنه كان الشخص المناسب في الوقت والمكان المناسبين بالتركيز على قضية واحدة وهي إخماد الانتفاضة. ثم تابع جون كلامه وهو يقول:- كنت في شارع شينكين بتل أبيب في ذروة العمليات الانتحارية بما فيها تفجير فندق بارك ليلة عيد الفصح وكنتُ مع جنرال إسرائيلي ولم يكن هناك أحد في الشوارع كانت تل أبيب مدينة أشباح قلت له فلتفعلوا شيئًا لم تكن مسألة الضحايا بل كانت إسرائيل على حد الإفلاس وما أنقذها قرارات شارون وسياسة القتل المستهدف.

راق لكوهين ذلك فعقَّب قائلا :- سيد غرونفيلد تخيل سيارة تتحرك نحوك وتريد وقفها ولديك بندقية إذا قمت بقنص السائق لقد انتهيت من المهمة وإذا أصبت عجلة ثانية لن تكون لديه عجلة لتغييرها الفكرة أنك لا تحتاج إلى تفجير السيارة بأكملها. فعلت أصوات ضحك في أثناء ما كان يدخل أحد حرَّاسه، ثم انحنى إليه ليعلمه بأخر العواجل.

***

ارتفع بكاء الرضيع ما جعل الرجل يتلفت إلى مصدر الصوت، وبينما كان يتقدم نحوهما بخطى حذرة، صاح يحيى قائلا:- لا يمكننا إسكاته ماذا سنفعل؟ نظرت إليه كارمن وقالت :- ليس أمامنا سوى القلادة سأضعها حول عنقه.

أغشاهم الله فكانوا لا يبصرونهم ولم ينقطع صراخ الرضيع. مع ذلك التف الجنود حولهما بطريقة مفزعة، دون أي إشارة إلى أنهم يسمعون صوته، واستمروا في البحث لحظة وقوفهم أمامهما مباشرة. اقتربت أنفاس كارمن من جبهته وهي مستمرة في الدعاء قائلة :

- يا يسوع يا ابن العذراء احمنا واحجبنا عن أعينهم.

شاركها يحيى بينما ينظر لمدى وقع القلادة على حالة الجنود، فاستمر بقراءة قوله تعالى :

- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ.

ابتسمت كارمن وهي تهمس في حماسةٍ قائلة بقلب مؤمن :- الله يسمعنا وأجاب لا أكاد أصدق ينظرون لنا ولا يبصرون هيَّا يا يحيى استعد للانفتال لنصل للشارع الخلفي .

***

تبدَّلت ملامح كوهين الذي باغته الانزعاج لكنه عاد إلى حواره، مع ذلك انتبه له الحاضرون، وما هي إلَّا لحظات وغدت الأخبار تترى على ضباط الاستخبارات. انتشر الحديث عن المجزرة التي وقعت بباب العامود بكل العواصم، وتشارك المتابعون مقطعا يظهرلحظة استرداد القلادة. استمر التوثيق المباشر الذي تبثّه كارمن على صفحتها حتى اهتاجت المشاعر في كل المدن، وخرج متظاهرون من عواصم جنوب شرق آسيا، وأوروبا، وشمال إفريقيا، بمسيرات احتجاجية تجوب الشوارع؛ تنديدًا بأحداث القدس. لذا انتبه الرأي العام العالمي للمستجدات، فرفعت درجة الطوارئ إلى الحالة القصوى .

عاد المساعد ومال إلى رئيسه قائلا :- هناك اضطرابات عارمة في القدس الفلسطينيون خرجوا في انتفاضة كبرى بكل مكان بالضفة الغربية في نابلس وبيت لحم وجنين والناصرة وخان يونس وبيت حانون وغزة ورام الله وعند حاجز قلنديا يحرقون الإطارات ويقطعون الطرق العامة ويهجمون على المستوطنين ويسلبون متاعهم تجمهروا في ساحة باب العامود والأعداد بالآلاف الأمور تنزلق إلى الأسوأ على الإطلاق الاحتجاجات تعمُّ عواصم دولية بشكلٍ سريع والناس تتظاهر أمام سفاراتنا في دول العالم.

في أثناء ما كان كوهين منشغلًا كان قسمت علي يستطرد بقوله :- الأمر لا يخلو من الهزل لكننا ندرك التهديدات ومن الرائع أن معنا مسئول أمريكي لنبلغه إدراكنا كذلك لدرجة الهستيريا الأمريكية من فكرة أن إسرائيل تستعد لضربنا الأمر قد يشعل حربًا عالمية تصل شرارتها إلى القدس ماستر غرونفيلد.

علَّق جون بدبلوماسية قائلا:- نعتقد بأنَّ إسرائيل مسئولة عاقلة وحليفة قوية وسيحمون ديموقراطيتهم ويحافظون على دولتهم. فاعتذر له هوفمان كوخ وقال:- لكن الرؤية الصهيونية أنها دولة لليهود والعرب وكوهين يريد دولة لن تمنح الفلسطينيين حقوقًا متساوية إنه يدمر ما بناه سلفنا الحكيم ويقوِّض قرارات المحاكم ويستهدف الصحفيين وهذا الأخطرعلى سمعة إسرائيل .

***

انتشر في العالم بث المذبحة التي قامت بها السلطات الإسرائيلية عند باب العامود برغم أنه استمر لدقائق قليلة، ارتقى خلالها العشرات من المقدسيين واعتقل المئات، وفي أقل من أربعة وعشرين ساعة تجاوزت عدد المشاهدات المائتي وخمسين مليونًا، وانضمت عواصم جديدة إلى الاحتجاجات. وعلى الشاشات باشرت المحطات التليفزيونية بثَّها الحي لأماكن التظاهرات أمام السفارات الإسرائيلية في مدن العالم كنيويورك، وأتاوا، ولندن، وباريس، وبرلين، ومدريد، وجوهانزبيرغ، واسطنبول، وعمَّان، وطرابلس، والرباط، والجزائر، وتونس، ومقديشو، ونواكشوط، وبغداد، وطهران، وإسلام آباد، وكابول، ونورسلطان، وباكو، وكوالالمبور، وجاكارتا، ونيوديلهي، وموسكو، وبرازيليا، وبوينس آيرس. خرجت الجماهير المضطهدة الهادرة والغاضبة إلى

الشوارع في هياج عظيم، يحملون هواتفهم بينما يتابعون عبر الإنترنت حادثة المتحف والمظاهرات الكاسحة. تمكنت عُصبة أطلقت على نفسها اسم مُبطلي السحر الصهيوني وبقيادة عميد الأصليين الذي أعلن للتو سيطرته التامة على كامل أحياء البلدة القديمة، فيما أسرت جماعته عددًا غفيرًا من جنود الصهيونية، بينما أعلِن النفير العام في إسرائيل؛ تحسبًا لأي ردات فعل خارجية من طرف فيلقهم العسكري بغزة.

لم ينتظر ممدوح الذي اتصل على مليكة وهو ينفجر بالبكاء قائلا :

- الله معهما إنهما يعرِّضان حياتهما للخطر .

***

في اللحظة كان كوهين يجيب قائلا:- الأهم أن نبقى قادرين على درء أي تهديد محتمل فماذا كان هنا قبل الغزو؟ سيناريو الجيشان السوري والعراقي يبدآن في مسيرة نحو إسرائيل عبر الأردن ولبنان حسنا هذان الجيشان لم يعودا موجودين .

لم يعجب هوفمان كوخ بهذا الرأي حين قال :- تؤسفني نظرتكم في علاج الأمور على الأمد القصير هذه الطريقة في التفكير هي الأخطر على بقاء إسرائيل أكثر بكثير من خطر حماس أو حزب الله أو حتى المشروع النووي الإيراني أخشى سيد كوهين أن تكونوا كمن دبور وَزَنَّ على خراب عشّه. قاطعهما قسمت علي قائلا :

- على كلٍّ القرار ليس قراري والحكومة لن تنتظر الامام الغائب وهي ترغب في الرد إما عاجلًا وإما آجلًا.

فتدخَّل كاظم موسوي ليقول لهم :

- يا سادة مصيرنا مشترك ولا نريد حربًا جديدة يكون العراق ساحةً لها أرجو تغليب كفَّة العقل ولو قليلًا .

***

سريعا تسللا إلى الشارع الرئيسي في غفلة عن أعين الشرطة التي كانت تذرع المنطقة . وما إن مضيا في طريقهما بعيدًا عن الحواجز الخرسانية، والأكمنة الأمنية حتى استدارا ليلاحظا سيارة أجرة قادمة نحوهما. نزعت كارمن القلادة من عنق الرضيع حتى يتبدل طيفهما، فهدَّأ أحدهم من سرعته مع طرقة خفيفة على بوق سيارته، ثم توقف لجانبهما. ولم يكن يحيى يعرف ما الوجهة التي بإمكانهما الانتقال إليها ليكونا بأمان، فسارعت كارمن بإخباره بالاتجاه شرقًا خارج حدود القدس ناحية الحدود الأردنية. الأمر أثار غرابة شديدة في نفس السائق، فأراد بدافع الفضول إزالة شيئًا من الغموض الذي يكتنفهما بأن قال بأسلوب مهذب :

- ألا تعرفان العنوان الذي تنويان الذهاب إليه؟

بينما كانت عينه لا تكاد تنتبه إلى الطريق بقدر ما كانت تتابعهما عبر المرآة الأمامية .نظرت كارمن إلى زوجها في قلق ظاهر، بينما يحيى أراد أن يمحو الشك من فؤاده فأجابه قائلا :

- بلى لكننا نعيش بأمريكا وقد تغيرت الشوارع إلى حد كبير فهلَّا سمحت لنا بالوصول إلى منطقة قمران .

تعجَّب السائق فقال له :- إن كنت ترغب في الذهاب بغرض السياحة فيؤسفني أن أقول لك أنه ربما ستكون المنطقة الأثرية مغلقة الاضطرابات تعمُّ فلسطين والبلدة القديمة محاصرة وقد دوَّت انفجارات بالقرب من هنا ومع إجراءات أمنية مشدَّدة ستتكدس السيارات في الطريق للتفتيش لكن إن كنتما تقصدان منتجعا هناك فلا مانع لدي.

فكَّر يحيى لبرهة، ثم أسرع بالرد قائلًا :- نعم نحن ذاهبان إلى منتجع من فضلك هل تسمح لي بسؤال؟

أبدى السائق الفلسطيني سعة صدر قائلًا :- بالطبع تفضَّل. فدلف يحيى في الموضوع قائلا :

- أريدك أن ترشدنا رأسًا إلى أحد شيوخ قبيلة التعامرة.

استدار السائق بكامل جسده وهو يصيح قائلا :- تقول التعامرة؟ أخبرني عن اسمه إذًا وأنا أدلك عليه فأنا وثيق الصلة بهم وصهري المباشر ينتمي إليهم لكنه لم يخبرني بأن له أقارب يعيشون بأمريكا لكن لا بأس يبدو أنكما لم تزورا القدس منذ أعوام.

أجاب يحيى بهدوء قائلا :- إيْ نحن كذلك ولا مانع لدينا في أن تصحبنا إلى دار صهرك ربما أمكنه إرشادنا إلى أقاربي من الأم في مأدبا الأردنية. فعلَّق السائق قائلًا :- يا مراحب بكما في فلسطين إن كان الأمر كذلك فسأصطحبكما إلى داري البدوية القريبة من قمران لمضايفتكما أولا.

***

دعا كوهين جون غرونفيلد وبقية السادة إلى جولة شطرنج ثلاثية الأبعاد. ارتدى الرجلان النظارات الخاصة، فتبدَّل البلاط تحتهما إلى أرضية رُصَّت بها رؤوس أحجار افتراضية وبديا جاهزين لبدء اللعب. على الجانبين وقف موسوي ولجانبه قسمت علي، ويقابلهما هوفمان كوخ وقد علت وجوهه ملامح الحماسة المفرطة. الأمر الذي سيحدد إلى أي الفريقين سينضم بقية المراقبين، والفائز في الجولة سيكون متحكم في الزر النووي. اتَّخذ جون وكوهين موضعيهما قبل لحظة الصفر فحبست الأنفاس وتجيَّش الفريقان، ونظرا بقلق إلى السقف حيث مؤقت ساعة النهاية.

***

نزل الزوجان بدار السائق البدويَّة، فضيَّفهما بترحابٍ وكرم أصيل. لم تمض لحظات حتى وكانت امرأته تقدم لهما صينيَّة عليها إبريق شاي وكأسان صغيرتان، ثم شرعت بصبِّه وهي تبتسم بخجل، حتى عادت أدراجها قائلة :

- ساعة ويكون الغداء جاهزًا انتهيت لتوي من تجهيز العجين اليوم لدينا المكمورة الشهيَّة لا أبغي أن أسيل لعابكما لكن الروائح الذكيَّة الصادرة عن المطبخ ستفعل ذلك على أي حال .

ومع أنها لم يرغبا في المكوث طويلًا، إلَّا أنهما لم يقدرا على صد كرمها. أخبرهما السائق أن صهره يشارف على الوصول، لكنه لم يكد ينتهي حتى كان يطرق الباب. برز أمامها رجل بزي بدوي أنيق، ثم ألقى عليهم السلام وجلس إلى جوار السائق. رغم وجهه المتألق بابتسامة رائقة إلَّا أنه علاه شحوب لافت ما أثار القلق بنفس يحيى. بدا وكأنما يخفي شيئًا ما برأسه لا يريد الإفصاح عنه، فهذا ما كانت نظراته إليهما تشي به، حتى باغت الجميع بقوله :

- يقولون بأن تفجيرًا ضخمًا وقع بمتحف روكفيلر بعدها انتشرت الأخبار بأن الشرطة الإسرائيلية تذرع المنطقة بحثًا عن سائحين أمريكيين من أصول عربية .

ارتفعت ربكة عظيمة على وجهيهما، فالتفت السائق إلى صهره الذي لاحظ التوتر عليهما، ونهض ليُلبِّي نداء زوجته، بعدها همَّ صهره بالقيام، ثم عاد وجلس مقتربًا ليحيى. ثم ربت على كتفه وهمس بأذنه قائلا :- لا داعي للقلق صوركما تغزو الأخبار لقد قمتما بعملٍ عظيم لاسترداد قلادة العهد كان لابد لها أن تعود لكن أخبرني أخي ماذا تنتويان فعله بعد ذلك تعلم أن الشرطة المركزية تبحث عنكما وإن عدتما فستكونان في ورطة كبيرة.

تنفس الزوجان الصعداء، بينما تنهَّد يحيى ونظر إلى الرضيع، ثم رفع رأسه إلى السماء وهو يقول :- ربنا نحن لا نعرف ما العمل ؟ ولا نعلم إلى أي مكان يمكننا الاختباء؟ طرق صهر السائق على فخذه مطمئنًا بينما يقول :- ونعم بالله سمعت أن لديك أقارب من أمك يقطنون مأدبة في الواقع لي رحمٌ معك فأنا أنتمي لنفس القبيلة التي تنحدر منها والدتك وكذا لي نسبٌ يعيشون هناك حيث يمكنني أن أهرِّبكما لكن تبقى مشكلة. ثم استطرد قائلا :- الطرق مغلقة والأكمنة بكل مكان والقرى محاصرة وآلاف الأصليين من أهل القدس احتشدوا بالبلدة القديمة وأعلنوا سيطرتهم عليها مع ذلك يمكننا تجاوز بعض الأكمنة وصولًا إلى منطقة قمران ومن ثم نصعد شمالًا حتى أريحا وعندها يمكننا عبور جسر الملك حسين إلى مأدبة يبدو الأمر يسيرًا لكن هناك احتمال ألا تتمكنان من عبور نقاط التفتيش على الحدود سيتعين إبراز هويتكما وعندها سينكشف أمركما وتقوم السلطات الأردنية باعتقالكما وتسليمكما للشرطة .

لكن كارمن غمزت ليحيى وصاحت قائلة :

- أنسيت القلادة ؟ هيَّا بنا.

في أثناء رجوع السائق إليهم ليجدهم يستعدون للمغادرة، فصاحت امرأته قائلةً :

- ولكن الغداء لقد أخرجته من الفرن للتو.

***

بدأت الجولة بخطة نابليون وكان الأسود من نصيب كوهين بناءً على قرعة، وأمَّا جون فوقع له الأبيض. أجريت قرعة أخرى لاختيار المتنافس الذي سيفتتح اللعب، فاختير غرونفيلد. قبل البدء توجَّب عليه أن يحلِّل الموقف بحنكة عبر تحديد أضعف مربع أمام غريمه الذي يسعى لرأسه، وكذا الاختيار السريع ما بين مبادرة الهجوم بخطة نابليون أو اللجوء إلى إحدى تكتيكات الدفاع والهجوم المضاد. وبانطلاق الجرس الأخير جعل غرونفيلد يدرس أضعف المربعات أمام الرئيس الأعظم الإسرائيلي جاد

كوهين. استجمع تركيزه لتحديد الأضعف على الإطلاق، وظن بأنَّ الأولى اللعب بالهجوم على حصانه، في حين أن كوهين لم يخفَ عليه أن خصمه يتسرع بهجوم ساذج وهو حين قرأ أفكاره كان ينتظر منه بتلهف الإقدام على هذا الإجراء.

أعطى غرونفيلد أمرًا صوتيا للجندي بالتحرك وقال بحماس :- غدًا يموت الحمقى القدامى والجدد هه. رد كوهين ببرود قائلًا :

- من يمت فلا يهم الأهم من يبقى على العهد للنهاية .

قبل جون التحدي واستعاض عن افتتاح الأفيال بعدما أدرك الفخ الذي ينصبه له، لذا أجرى تعديلا بالخطة وهو يقول :

- ليس بالضرورة أن أكون يهوديا حتى أكون أكثر صهيونية منك لكنك تخيب أملي يا كوهين .

لم يكن أمام كوهين سوى الدفاع، فأعطى أوامره بجدية وهو يتغنى بنفسه ويقول :- ءَتريدون معرفة تاريخي أنا صممت على تطبيق تعليمات العصور القديمة على عصرنا الحالي وبذا بدأت طريقي إلى الغزو ليس غزو البشرية وحسب إنما غزو العقول وتغييبها كما تفعل المخدرات وأنتم بجانب المصالح المشتركة تمثلون تجار مخدرات.

شعر جون بالإهانة فصاح بغضب قائلا :- لا اسمح لي. لكن نهره كوهين وصرخ به قائلا :- أنت اسمع اسمعوا جميعا يمكنني شراؤكم وبيعكم ثلاث مرات وهذا شيء لا بد أن تأخذوه في الحسبان إذا قررتم أن تجعلوا خلافنا على الملأ أعتقد أنكم تعرفون الطريق إلى الخارج.

امتعض الجميع من تهديداته المنفعلة، وأراد موسوي تهدئة الأجواء فقال :- لدي بعض الأفكار فلننحِ اختلافاتنا جانبا ونتوحد ضد أعدائنا التاريخيين ومع بقية العالم ننتصر سيعرف الجميع آجلًا أم عاجلًا ما اقترفتموه في حق البشرية لكن بفضح ما قام به مستر كوهين سيموت السلام .

عقَّب هوفمان كوخ قائلا :- أؤيد فضْحُ كوهين يهدد مصالحنا فلنعد لعقلية السلف الحكيم إن كنا نأمل الحفاظ على مكتسباتنا. عاد قسمت علي ليقول واثقًا :- مستر كوخ محق دعونا نقتسم الكعكة الجديدة .

غضب جاد كوهين فقال معنِّفا :- هل تحدثونني عن الأخلاق ؟ أنتم تعرفون جيدًا أنه ليس بمقدوري تركّكم لتفعلوا ذلك . ثم أراد استفزاز سكون جون بأن قال مخاطبًا الجميع :- لقد بدأنا بداية خاطئة أنتم تريدون إنقاذ العالم وهذا غير جائز لقد أقسمنا على هلاك الجميع لنبقى وحدنا.

خرج جون عن صمته وقال متحديا :- أنت تجعلهم يفكرون إن كانت المبادئ التي أقيمت على أساسها أمريكا قد حدثت حقًا لكنك يا كوهين لا تُشكِّل تهديدًا لأمريكا أو للعالم بقدر ما تُشكله من تهديد لدولة إسرائيل ذاتها. قرر كوهين خداعه باتخاذ إجراء صارم لإفشال خطته، ثم أدار رأسه إلى قسمت علي وقال بلهجة عنيفة:- إيران ستكون في مرمى صواريخنا.

ضحك قسمت علي بسخفٍ وقال :

- لا تنسى أنه بسقوط دولة الشيعة وقعت القدس بيد صلاح الدين والمقاومةُ تجري مناورات عسكرية لأول مرة في تاريخها حلفاؤكم في الخليج سيهرعون إليكم لوقف الحرب وقبول هدنة قبل انهيار الأمور .

دنا موسوي من جون كأنما أراد الانضمام إلى معسكره، فقال بنبرة خافتة :- يا سادة الاقتصاد يتداعى فلنفكر بعقلانية بعيدًا عن أية تهورات. فتبعه قسمت علي موجها حديثه إلى جون غرونفيلد قائلًا :

- إن كنتم لا تزالون تحلمون بالقضاء على إيران فإنكم بذلك مصرون على تقريب المعركة الفاصلة.

انضم هوفمان كوخ إلى ركب الديموقراطي ظنًا بأن الأمور ستؤول إليه، فأسرع جون بتحريك فارسه وهو يضحك بصوتٍ متفاخر قائلا :

- غدًا تتغير الأمور بشكل متواتر وخلافًا لما تتوقع يا أذكى رجل في إسرائيل سينتهي أمرك كش ملك.

***

السكَّان الأصليون يتحررون والانتفاضات الدولية لا تعرف سبيلًا للإخماد بعالم على شفير انفجار. فقد خرجت مظاهرات بالملايين واعتصموا أمام السفارات الإسرائيلية وهم يحرقون أعلامها ويرفعون أعلام فلسطين، فكانوا على موعد مع قمع الشرطة ما أدى إلى وقوع ضحايا كُثر؛ واضطرت لإطلاق الرصاص بعدما تعرضت عدة سفارات للحرق، والنهب والسلب، وفرّ رجالها إلى خارج البلاد. وبمرور كل ثانية كان يتضاعف عدد المشاهدين لفيديو المجزرة، وبحلول المساء لم يكن أحد على

وجه المعمورة لم يتسنَ له مشاهدته، الأمر الذي استدعى قطعًا لبعض كابلات الإنترنت تحت البحر في كثير من الأنحاء، وقبل ذلك علم أشرف بصنيعة أخيه وزوجته، فبكى وهو يدعو لهما قائلا :

- اللهم نصرك الذي وعدت اللهم انتفاضة عالمية على الصهيونية بكل مكان.

***

وفي شرق القدس ينحدر طريق طويل بتدرجٍ بين تلال جرداء، ترقّطها مضارب قبائل بدوية. يغوص الطريق بعيدًا فيصير عميقًا تحت سطح البحر، ثم لا يلبث حتى يعود ويبرز الشاطئ الشمالي للبحر الميت. ومن سطح مياهه الساكنة رغم الثوران ارتفعت جروف صفراء يعلوها ضباب أبيض كثيف .أصاب القلق الزوجين عندما تدخّلت فرق خاصة تدعمها مروحيات بزئير يشق السماء، مع مرور سرب طائرات ميراج إسرائيلية دنت من سطح السيارة، حتى أن كارمن صرخت قائلة :

- أستطيع رؤية الطيارين في قمراتهم.

حامت المروحيات العاصفة فوق باب العامود، وهي تلقي منشورات على المنتفضين تطالبهم بإنهاء التمرد. ثم جعلت تحلِّق على مسافة قصيرة، حتى أرخت حبال طويلة نزل منها جنود مسلحون، وانهالوا فوق الرؤوس بطلقات من بنادق شغب وجدت طريقها إلى أجساد الثوّار الذين لم يسلموا من عربات الصرف العادمة حتى كانت كشَّافات الطائرات تموج كالبندول فوق الرؤوس. انتشرت فرق الخيّالة والجند في كل النواحي مأمورين بإصابة الأطفال القُصّر، والمدنيين العُزّل، وإطلاق الرصاص المطاطي الأسود في الرأس والصدر ومن مسافات قريبة، مع التعهد إليهم بتوفير كل الضمانات القضائية؛ للإفلات من العقاب. فما ارتاع الأصليون وهم حينئذ يصرخون في هتاف رجيج، وما تمالك القادة أعصابهم، فأعطوا أوامرهم بإسقاط القنابل على المعتصمين دون هوادّة. انهمرت القذائف من كل الاتجاهات، بينما كانوا محاصرين من الجنود الذين أطلقوا الأعيرة النارية عليهم، فكان اقتناص الشهداء بالمئات على أبواب القدس. وما هي إلَّا لحظات وغدت سماء فلسطين كلها تعج بالطائرات الحربية، تقذف المستشفيات، والمدارس، والبنايات، والأسواق. واستشرى إرهاب المستوطنين على الأهالي حتى أن الأبرياء كانوا يخرّون للأذقان فامتلأت الشوارع بالجثث، ولم تنطفئ جذوة الانتفاضة التي تضعضعت لها السلطة فقادها جيل جديد دعا إلى النضال السلمي المستمر مع الكفاح المسلّح حتى التحرير التام لكل تراب الوطن.

انخفضت طائرة ميراج إسرائيلية إلى مستوى خطير من الأرض، وطارت مباشرة فوق السيارة، لكن العنقاوات الفولاذية ارتفعت عموديًا نافثة اللهب من محركاتها وتذوب في ضوء الشمس. وهنا هدَّأوا لتهتز بعد ثوانٍ كل الجروف من جلجلة ارتداد الصوت. لم يكن الوصول إلى المكان ممكنًا بسرعة ويُسر، رغم وجود طريق حديث ممهَّد قادم من القدس، ولم تنفك القاطرات الضخمة تعصف بطول الطريق الذي يربط إيلات بطبريا في الشمال والذي تكدَّس بالقاطرات والمركبات العسكرية، والشاحنات المختلفة، والدرَّاجات البخارية، والسيارات الأجرة والخاصة التي انقطعت بها السبل بعد إغلاق الطرق والمحاور الرئيسية، كما حُبست حافلات السياح الفارّين من جحيم الثورة المندلعة في فلسطي.

انتبه السائق إلى مدرعة تحمل على ظهرها ثلاثة رشاشات ثقيلة يمسك بكل منها جندي، وسرعان ما كان يلوّح بيديه ليتأكد من أنهم يرونه، فمن الخطرأن يظهر لهم فجأة أو يتصرف بأي طريقة تصدمهم. جرت الأمور بسلاسة بينما يحمل الرضيع القلادة حول رقبته. الأمر سلب لبّه، وبعدما تجاوزوا نقطة التفتيش صاح قائلًا :

- لا يمكنني التصديق أنا لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا .

اقتربوا من مستوطنة كاليا لكن البراري القابعة خارج أسوارها تبقى دون مساس من أي من مظاهر توتر، فكان البدو يرعون جِمالهم وماعزهم بأعداد قليلة، والأجواء هادئة إلى حدٍ ما برغم أن ذلك الرماد لم يكن ساكنًا. لحظات وبدأت الصفَّارات تدوّي عبر الطريق الوحيد إلى خارج الضفة الغربية. كانت الناس تركض خارج سياراتهم بعيدًا إلى أي مكان يختبأون فيه من رشقات الصواريخ القادمة من غزة، والتي أخذت تقذف الصحراء قذفًا وبيلًا. بدأت سحابة سوداء ترتفع وتتغشَّى، والشمس على باب الوداع حتى إذا الطائرات العادِيَات والمروحيات الراعدات التابعات لسلاح الجو الصهيوني اخترقت الضباب تشتعل في السماء، وتسقط على الأرض حطامًا. أمست السماء ساحة قتال، والمروحيات الإسرائيلية المستهدَفة براجمات المقاومة تتحطم في الأفق من كل الاتجاهات، وتسقط أشلاؤها على الأرض كشهبٍ ثاقبة. لاحت له نقطة تفتيش جديدة على مرمى بصر، فقال لهما في هدوء :

- أمامنا نقطة أمنية جديدة فما رأيكما؟ نغامر بالعبور أم نتخذ طريقا آخر عبر الجروف قبل حلول المساء؟

صاحت كارمن وقد علت وجهها ثقة تامَّة حين قالت :- لن يكون الأمر بأصعب مما فات امضِ خلالها والله معنا. وبمجرد وقوفه أمام الجنود بدا مرتبكًا فألقوا نظرات متفحِّصة بداخل السيارة، لكن أحدهم حرَّك مزلاج الباب الخلفي ووجده موصدا، فصاح به قائلًا :- افتح هذا الباب اللعين. فأخرج له رأسه من الشباك وهو يصيح قائلا :

- عذرًا سيدي الباب معطَّلٌ.

في أثناء ما كان جندي آخر يرطم باب الصندوق مصدرًا رجَّة شديدة بالسيارة. ثم اقترب من زميله ليهمس في أذنه بكلامٍ لم يتسن لأحد سماعه، وطلب منه أن يأتي معه لتفتيش سيارة أخرى، فأعطى الجندي أمرًا له بالرحيل. كبس السائق بكل قوته على دوَّاسة البنزين وطار بها كالصاروخ، لكن ما إن ابتعدت أمتار قليلة عن النقطة الأمنية حتى سُمع إطلاق نار كثيف. نظر بفزع عبر المرآة، فوجد الجنود بداخل سيارة شرطة مسرعة ليلحقوا بهم. صرخت كارمن قائلة :- ما الأمر؟ امتلئوا بصراخ الرضيع، فأرسل يحيى بصره إلى الخلف، وإذا بطلقة سريعة في طريقها إلى رأسه. صرخ السائق قائلا :- انبطحوا بسرعة. نفذت رصاصة عبر الزجاج إلى مقدمة السيارة، وصفير سيارات الشرطة يدوّي بينما يصيح أحدهم عبر مذياع قائلًا :

- لا داعي للهرب توقف الآن.

لم يستمع السائق للتحذيرات وما كان عليه سوى أن كبس على البنزين لأقصى سرعة ممكنة، فعاودوا إطلاق الرصاص صوب السيارة، وأصابوا إحدى الإطارات الخلفية، فارتفعت بمؤخرتها إلى الأعلى، وفقد السيطرة على محركها الذي يدفعها بأقصى قوة، ولوما اصطدمت بأحد الحواجز على جانبي الطريق لكانت منقلبة بهم. نجا الزوجان بأعجوبة وكانا ينزفان، فأسرع يحيى بالتقاط الرضيع والاطمئنان عليه، ثم أمر كارمن بالانفتال من الباب الأمامي وتبعها .

***

وفي الوقت الذي كان فيه النازحون إلى الحدود الأردنية يفرُّون من ويلات الحرب وصلت أسرة أبو مريم مع من وصلوا من العائدين إلى فلسطين ومُهجَّرين زاحفين من كل ربوع الأرض، يطوفون الأراضي ويجوبون المدن ويخترقون الحدود؛ ليقفوا عند حدود الأردن بانتظار السماح لهم بالعبور، فينهمر طوفان كاسح يروي ظمأ الصحراء في طريقهم إلى القدس لفك حصارها. اجتاح الأصليون جدران الفصل العنصري وتسلّقوه، ثم تجاوزوه وهم يرددون صيحاتهم قائلين :

- الله أكبر ولله الحمد.

كانت الصفَّارات تدوّي في كل أرجاء قضاء غوش، وهرع الإسرائيليون للملاجئ للاحتماء، حتى اكتظت عن أخر بهم. كانت القذائف الصاروخية تنهمر في سماء تل أبيب التي أمست دارًا للأشباح، لا أحد يسير فيها مع اندلاع نيران الطائرات، ووهجان قنابل الإنارة، فيما الأرض تحترق من قصف مطّرد. كان لهيبا لا ينقطع والغازات السوداء علت الأعناق فبدأوا باختنقوا، وعلق العشرات منهم تحت الأنقاض. شُلَّت مناحي الحياة والأعمال وحُسِّرت الأرصدة وتقطّعت سبل وفكّكت طرق وكباري وأنفاق، وهدّمت الجسور بين المدن، وراحوا ينفدون بأعمارهم إلى أوروبا عبر المطارات والموانئ، أمَّا من تبقّى كان محاصرا بكل مكان في أرض جوش، حيث لا مكان عاد يخلو من الدمار، ولا ركن عاد بمأمن من الهلاك المحقق .

جنّ جنون جيش الدفاع الإسرائيلي، واستمر بإطلاق تحذيراته العاجلة وإنذاراته المستمرة عبر أبواق الطائرات، وأجرى سلاح الجو جولة واسعة واستثنائية من الغارات الجوية على غزة والضفة الغربية، لكنما تكبيرات المساجد وأجراس الكنائس غطَّت على عويل المحتل. وبيد أنه لم يعد يبدو أن أحدًا بكل فلسطين يمسي يخاف على حياته لتحيا فلسطين وحدها، والكل يعدو تلبيةً لنداء القدس، حتى أعطى العدو تحذيرات الردع الأخيرة إلى الزاحفين قائلا :

- عودوا فورًا إلى بيوتكم لا تُضحُّوا بأرواحكم يمكننا وضع خطة بديلة للسلام سيكون دمارًا واسعًا وسيقع منكم ضحايا ابتعِدوا عن مواقع المتمردين وإلّا فالجميع سيكون هدفًا لنا.

وبالقرب من الحدود الأردنية ركض الزوجان بعيدًا عن حافة الطريق نحو أحد الجروف، وكانا يسمعان إطلاقًا كثيفًا للرصاص فانبطحا أرضًا خلف صخرة هائلة. توقف الصوت وأسدل الظلام ستائره فنظر يحيى ووجدهم يذرعون الأرض بحثًا عنهم. كادت كارمن تصيح به لكنه أسرع بوضع يده على فمها بينما كان جنديٌ يمثل من ظهره أمامهما، ويسلَّط كشَّافًا يخترق العباب، ولكنَّه لم يلحظ شيئًا فاستدار مبتعدًا عنهما. همست كارمن بأذنه قائلة :

حمدًا لله الطفل لم يصبه مكروه الآن يمضون بعيدًا لكن سنموت من البرد إن بقينا هنا للصباح يحيى ما العمل؟

***

اضطرب جون قليلًا بعد انهيار صفوفه، لكنه قرر الصمود بقوة قائلًا :- ما دمت مصرًا على تغيير المعادلة فآن الآوان لتعلم بأنك بتصرفاتك الغبية الهوجاء تجعل إسرائيل تحتضر قبل موعدها .

نظر كوهين إليه بينما يتلذذ وهو يشد الخناق حول عنقه، وخلال ما كان يشاهده وهو يحاول الخروج من مأزقه قال:

- إذن تكونَ أولوياتنا أن نجعلكم تركعون وتعودون إلى حظيرتنا.

شعر موسوي بقلق حين كان يفكر بالعودة مجددًا إلى حزب كوهين. وبنظرة حيرة وارتباك قال :- الحرب ليست الحل يا سيدي لنتعقل. استمر كوهين في تهديداته قائلًا :- لن تبقى لكم دولة على الخريطة. لم يتحمل قسمت علي سماع هذا فصاح قائلا :- مسترغرونفيلد لا يمكننا تحمل ذلك إنه يشك في قدراتنا العسكرية .

أصدر كوهين ضحكات متعالية صاخبة، فأردف جون بدبلوماسية مرصَّعة بحكمة قائلا :- نريد الحفاظ على مكتسبات جورج واشنطن ولو أنه قام ورأى ما تصنعون لانهال فوق رؤوسكم بعصى غليظة صارخًا في وجوهكم وهو يقول تبًا كيف تعقلون؟ إنكم تقتلعون ثمرة جهدنا من الجذور اسمعني يا كوهين نحن نرغب في دعم ديمقراطيتنا والحفاظ على أمن واستقرار إسرائيل. صمت كوهين لوهلة، ثم عاد ليقول ساخرًا في غطرسة :- لقد أخطأت العنوان لم يحن الوقت الذي يجيء فيه ديمقراطيًا ليُسدي لي بالنصح. وقضى على الوزير الأبيض فاتضح له نجاح خطته للدفاع والهجوم المضاد على جون غرونفيلد. ثم صاح كملك غابة يخرج من عرينه بكل ثقة واعتزاز، وبنظرة مُتسيِّدة وبزئير قوي يقول :

- هذا هو المقلب الحقيقي كش ملك.

ابتسم له جون وتقدَّم نحوه لمصافحته وهو يقول:

- لا بأس أن تضحك أخيرا في عالم افتراضي أما في الواقع فلا أعتقد يا صديقي مباركٌ عليك.

وفجأة دوّت صفَّارات الإنذار في مقر الاجتماع. أسرع الحرَّاس بتأمين تهريبهم إلى أمكنة آمنة قبل محاصرة المتظاهرين للمنطقة الخضراء. اندفع الجنود المناصرون نحو كوهين وتحوطوا حوله فلم يكد يُرى. وعلى المدرج نزل من سيارةٍ إلى حيث صعد على سلالم الطائرة، قبل أن يتسنى له الهبوط الآمن في مطار بن غوريون.

***

صعدا فوق جرف وهما يبحثان لهم عن مأوى، ووجدا كهفا يفتح كنافذة بالصخرعلى بعد ميل جنوب قمران. أزاحا إلى الخارج صخرة كانت تغلق على فمٍ غار اكتشفاه ينفتح على كثير من غرفٍ منبسطة. وما إن أخذا يخطوان فيه ببطءٍ وحرص حتى وجدا جزءا شاسعا كالبهو تميَّز بطريق معرَّجة وممهدة بسعف نخيل فوق طين ليّن. كان المكان رطبًا في حين كلَّس هواؤه ذرَّات الملح فتكتَّلت بلوراته في زوايا الكهف وفي الصدور. هذا ما بثَّ في نفوسهما شيئًا من الاعتقاد بأنه لم يكن مهجورًا حتى وقتٍ قريب، مع ذلك فقد خلا بهوه من أي آثار تدعم ظنهما. كانت كارمن منشغلة بالعثورعن أيِّ مصدرغذاء يمكنها تناوله ليسدّ رمقها حتى تطعم رضيعها من صدرها. صاحت بذعر قائلة :

- صغيري يتضور جوعًا والحليب ييبس بصدري هل يمكننا إيجاد أي رطبٍ في مكان هنا؟

ثم نادى عليها يحيى قائلا :- إلى أين أنتِ ذاهبة ؟

لكنها فقدت صوابها من القلق فلم تجبه، وركضت خلال المكان كحمامة تفرفر حول عُشّها. كان المكان مظلما فنهض يحيى لإيقاد شعلات وجدها، ثم عاد وبقي مع الرضيع لإلهائه عن الجوع. مع قبلات مُداعِبة على جبينه كاد ينسى ألم بطنه بينما يثيره ملمس ذقن أبيه الشائك، فأخذ يبتسم بخفة مع كل قشعريرة حانية تبعث في فؤاده على الراحة والطمأنينة، لكن حدثًا ما طارئًا جعله يدعه فوق الأرض ويهرع إلى زوجته التي سمعها تستنجد به . اكتشفت كارمن بإحدى الغرف سراجًا ومقبضَ سهم على حالهم منذ آلاف السنين. وكان صحنا مزججًا حديثًا به بضع حبات من التمر الرطب إلى جانب نُفاية طعام متفرقة، وفضْلة حيوان متحجرة، وإبريق عصري به بعض من تفالة شاي، ما أكَّد ظنونها بأن ثمة أشخاصًا مكثوا به لأيام، حتى كانت أعقاب السجائر البرهان الأكيد على أنَّ أحدًا ما كان بداخله مذ وقت قريب، ولربما يعود ويكتشف أمرهما أو يخبر الشرطة.استساغت كارمن الرطب فهرعت عائدةً إلى رضيعها وتضمه لثديها حتى ارتوى وغرق في نومٍ هادئ. تحسس يحيى رأسه وهي تنزع له القلادة، ثم نظرت إليه في صمت وهي تتأملها. ثم شعر بالتعب فاضطجع واضعا رأسه بحجرها، فتبسمت إذ تمرر أصابعها خلال شعره بحنو، وتنهدت قائلة :

- رغم الشك أسمع وقع خطى الفجر رغم الشك لم أعدم إيماني بأن الحقيقة ستشرق لتنشر ألوية النصر الشمخاء.

تناول يحيى كفّها وقبّل راحتها، ثم أراحها فوق صدره وهو يطبطب عليها ويقول بحسٍ خفّاق :

- حين يطول المساء تضم الزّهرة أوراقها وتنام مُعانقة رحيقها المسلوب تنتظر طلوع صباح وقد فطرها الشوق لأول قبلة من الشمس هكذا دورة التاريخ بين عودة وفراق.

جعلت تمسح على جبهته وهي تهمس قائلة :- الآن عرفت كم أحبك .

كلامها أسكن جسده وأرخاه فغمَّض جفنيه واستلقى، وغفت هي لدقائق قليلة قبل أن تنتبه وتفتح عينها. نظرت إليه لتحسبه مستغرقًا في النوم، فعادت وابتسمت وهي تنظر في القلادة بين كفَّيها، وخالجتها نفسها في دهشة قائلة :

- ما أعجب أن أستعيدكِ بين راحتيَّ فمن كان يصدِّق هذا؟ لكنَّ الله سينجينا.

بهدوء أراحت رأسه على خد الأرض، فاطمأنت على رضيعها وغطَّت جسده الدافئ ببضع سعفات نخيل، ثم نهضت عن مقامها وجالت عبر المكان الذي يبعث على طاقة عجيبة. وبخطى محسوبة اقتربت من غرفة غامضة أشبه بصومعة متعبد، تلك التي وجدتْ بها الرطب. لكنها ما كادت تحطَّ بقدمها قرب بابها الصخري حتى سمعت همسًا غريبًا يصدر منها، فسحبت قدمها إلى الوراء، بينما يتلصص طرف منها على الداخل. شهقت وهي تغلق بكلتا يديها حول فمها، حين رأتب رجلين غريبي الهيئة، يفترشان الأرض بلباس بائد مزرٍ متناولين من قدح طعامٍ أمامهما. حاولت بفزع استراق السمع فارتدَّ إلى أذنيها بَرطمةً بلكنة عربية لكن مبهمة لم تكد تفهمها. إن أول ما جال في رأسها هو كيف دخلا إلى هنا في حين أنها كانت خالية مذ لحظات؟ وكما لو أنهما قد جاءا من عصر بائد انتبهت كارمن لأحدهما ففهمته وهو يحدِّث الآخر في أوَبٍ وكمدٍ محتدم يقول له :- لقد حاصر فرسان الهيكل مدينة الله واليهود يطوفون حول أسوارها ويعزفون بالأبواق ويتلون الصلوات المدينة سيئة التحصين سقطت لقمةً سائغة بين أكفَّهم لأن الإسماعليين استولوا عليها قبل فترة قصيرة من الأتراك السلاجقة وأخذوا يهدُّون تحصيناتها السابقة.

انزلقت قدمها في التربة الحصويَّة، فأصدر كسحها صوت تجريف التفتا إليه. خبط أحدهما على كتف الآخر قائلًا :- هل سمعت هذا؟ هنالك أحدٌ بالخارج تعالَ معي لنرى. أجابه رفيقه بينما ينهض مسرعًا معه وهو يقول :

- أخبرتني بأنك تأكدت من إغلاق الكهف.

ارتبكت كارمن بشدة وانزوت خلف جدار وهي ترتجف. مر الرجلان من أمامها وهي تكاد أن تُميّز ملامحُهما على نحو جيد، كانت لحاهما مقذَّرة أسفل وجهين مكفهِرّين بغمامة سوداء من فعل شمس البادية اللاهبة. تعجبت كارمن بسرّها قائلة :

- يا إلهي هل هما من أهل الكهف؟

ثم خرجت من جحرها خلفهما، وطفقا يحومان حوله بحثًا عن أي هاربين. كانا متوجسين من أن يكون أحدٌ تعقَّب أقدامهما، وبمنتهى الحذر سارت على آثارهما دونما أن يحسا بها، ومضيا عبر ممرات ضيقة إلى حجرة كبيرة، ثم عادا أدراجهما. لكن باغتها قلق على رضيعها لمَّا التقطت صراخه بأذنيها، فاستدارت لتعود إليه. في البداية تجاوزت الحجرة تلو الأخرى وهي تظن أنها تحفظ الطريق، لكن هذا الشعور أخذ يتبدد عندما خفق قلبها الجَزِع، فحدَّثتها نفسها بأن المغارة ابتلعتها. ومن الهلع كانت تدور حول نفسها بين الغرف مخاطبة ربها بأن يدلَّها على الطريق الصحيحة ويهديها إلى فلذة كبدها الذي يحترق فؤادها عليه. لم تنفك تدور في فلكها حتى استرشدت بعلامة، فركضت قبل أن تصطدم بفجوة كبيرة في الصخر انفتحت على الخارج. كان الظلام يغيّم على المكان، ورأت من بعيد دائرة مشاعل مضاءة بوهج يجذبها إليه كمغناطيس بلا إدراك، كانت أعينها المسلوبة تقود أقدامها المحتكَّة بالحصى إلى حيث باتت تجرها، فلمَّا اقتربت منها تمثَّلت أمامها مشاهد سوداء كانت تراها رؤية العين، مع ذلك عبرت الفجوة التي انفتحت بشكل سحري على مشهد من التاريخ. شاهدت مذبحة بشعة لم تكن لتتخيل حقيقتها، حيث جماجم القتلى لو جمِّعت لأقامت أسوارًا تعلو على أسوار البلدة القديمة. كانوا يقطعون أصابع النساء ويسلبونهن الذهب ثم يبقرونهن فلربما أخفين فيها قطع حليٍّ من ماسٍ أو لؤلؤ. كانوا يكوّمون الجثث وهم سعداء، ثم يحرقونها ويفتّشون في رمادها، والخيول تخوض في بركٍ من الدماء، وفرسان الهيكل يصيحون بأنهم أوفوا بالنذر حينما وصلت دماء المسلمين إلى ركبهم.

-11-

هَاصُوْف

هي ليست المنطقة الحمراء في أمستردام بل هو يوم الفسق الأعظم يلوح في مُخيّلة سام، وطقوس الدماء تُعمل في مَسرّةٍ؛ بقدوم نهاية عام موبوء. لم يكن هنالك وباء أشد فتكًا بالبشرية من البشر ذواتهم. لم تعرف الأرض السلام بعد ولا وقت لذرف الدموع على ما مضى من فشل البشرية الذريع، وخصورٌ تتراقص في فرح الأوهام، وسام يحب قضاء رأس السنة على متن سفينته الغرَّاء ذات النهود الفاخرة احتفالا بتحقق أمنيته بالوصول إلى القلادة. إنها العاشرة إلَّا عشر دقائق قبل ساعتين من العام الجديد، بانتظارأن تتحقق أمنيته الثانية بالوصول إلى الكونغرس، ولم يفكر مرة بأنَّه مدين للعالم بالحقيقة، فقد زيَّف التاريخ في الكتب واستوطنها بالأكاذيب. العوام يصدقونه كإله، والساسة يدعمونه كابنٍ إله، والكل في حفلته مدعوٌ للتبْشار والسرور على إيقاع موسيقى تتجلجل. خلع عنه رداء الوقار ليتغطى بالعُري والإسفاف الشديد، فصدح مقدّم الحفل في الميكروفون قائلا:- السيدات والسادة Happy New Year مرحبًا بكم على متن الأميرة الكبرى دعوني أرحِّب بداية بالسيد سام رودريغز ربُّ الأميرة والليلة على شرف سيِّدنا الجمهوري لدينا فواصل رائعة من فقرات لن تمحى من ذاكرتكم أعلم أنكم تنتظرون بشغفٍ فقرة Naughty Israel التي عنها تسمعون نحن نُقدِّم لكم كل ما تشتهون شرائح ضلع جدي لحم غنم قديد مع سلطة جبنة التونة وكبد الحوت المساغة بزيت زيتون بكر ممتاز وهنا لدينا لحوم شهيَّة لسمكة السالمون الجبَّارة والمُقبِّلات؟ شرائح صغيرة مخليَّة من سمك القاروص المُدخَّن قطع الخيار المخلل وأمَّا المَزَّة شرائح ليمون مع فستق إسرائيلي فاخر استمتعوا يا سادة الأرض والسماء إلى حين جرس الدقيقة الأخيرة في ليلتنا المُتْرَفة علَّكم عنَّا ترضون وبفقراتنا الطريفة تسعدون وتبتهجون وتنعمون Ladies and Gentlemen, Enjoy your time .

وفي ظلام حالك فتح ممدوح عينيه ليجد آدم ماثلًا أمامه، وبجفنه جمرةٌ تومض كالشرر. أجهز عليه فأمسك بتلابيب عنقه، صارخًا في وجهه وهو يأمره قائلا :- هيا أنت انهض. كان ممدوح منفزعا وهو يجيبه قائلا :- آدم؟ فردَّ عليه قائلا :- أجل هو هل خطفتك من أحلامكَ الهانئة؟ كان ممسكًا بحبل متين بين يديه ويشدُّه من الأطراف، في حين والده ينظر إليه في انتفاض، ثم دار حول فراشه وهو يقول :- جئت لأقول لك عام جديد سعيد يا معالي الباشا. أمدَّ ممدوح يده المهتزَّة إلى جانبه بحثا عن زر النجدة، انتبه له آدم فصاح به قائلا :- لا داعي حراسك مخدرون. أقام ممدوح ظهره وهو يقول له متضرِّعًا:

- ابني هل جئت لقتلي؟

تضاحك آدم وقال :- هل تحدثك نهايتك؟ فأجابه مترجِّيًا وهو يقول :- آدم لا تفعل يا حبيبي أرجوك. ثم أمسك بيد ابنه لتقبيلها مع ذلك امتنع، فسقطت يده وهو يقول في حسرة :- لقد كنتُ سجينًا في حياتي بما فيه الكفاية سجينَ بني صهيون وراعيًا لمصالح الاحتلال لم أصلح يومًا أن أكون أبًا لأول مرة تزحمني الكلمات لأني من يَسَّر لهم سبل الاستعلاء والنفوذ خائنٌ منبوذ وجهي قبيح ورديء مكسوٌ بكل قذارات العملاء السابقين لم أكن سيِّدًا بينهم أنا عندهم كزر أداةٍ قديم وعسلُهم تبدَّى لي سُمَّه مضى مني الدهر سريعا بعد وهج ليَرتدَّ بوجهي بفتور مهموس وحيدًا استقبل عامًا جديدًا لن يحمل معه غير الموت الذي يلوح أمامي وعن يميني وعن يساري ومن خلفي كشيطانٍ مريد ابني الوحيد أنا ميتٌ بالفعل فلِم أنت مصر على قتل ميت؟

انهال آدم بقبضة يدٍ على صدغه وبكوعه في بطنه مرات متتاليات، ثم عاد إلى الوراء وهو يقول:

- لا تحاول استعطافي قُضيَّ أمرك.

وبالجو استقبل قائد الطائرة الخاصة تنبيهًا بعدم الاقتراب من أجواء فلسطين، وأبلِغت الملاحة الجوية الدولية بتغيير مساراتها المارّة فوق الأراضي المحتلة. اضطرب كوهين وأصابه الذعر، فهرول للمقصورة وأمر قائدها بعدم الامتثال، ووجَّهه بالأمر المباشر للهبوط بمطار بن غوريون. رفض قائدها اندفاع كوهين وعنَّفه، وأخبره بأن الأمور انقلبت رأسًا على عقب في أربع وعشرين ساعة. الرعب يملأ الصدور، الهلع في كل مكان، والسواد يغطي عاصمة إسرائيل. انقطعت الامدادات تمامًا بسبب انهيار شبكات الطرق والقرى، والضواحي الإسرائيلية أمست منعزلة في ظلام دامس، بينما منظومة الردع الصهيونية تنهار بشكلٍ لافت، لدرجة أن الصواريخ الراجمات ما عادت تتوقف أبدًا، في حين أنه قلما تجد صاروخًا واحدًا يتم صدّه بها. تعطّلت القبّة الدفاعية ذات الست فوّهات، وأنهار الحائط الهش وذاب كخيوط عنكبوت. بدأت الزوارق الحربية الإسرائيلية تقصف شاطئ غزة الشمالي بمئات القاذفات الثقيلة، ومرابض الدبابات العسكرية والمدفعيات تمتلئ بعشرات ومئات الجند الصهاينة؛ تمهيدًا لعملية برية شاملة قد تؤدي إلى إبادة شاملة في فلسطين. إسرائيل كلها تحت الخطر، مركز تل أبيب وجوش الكبرى وما فيها من سبعة ملايين إسرائيلي أمسوا تحت رحمة الراجمات.

صاح سام مُعربدًا في نادله، وهو يتنمّربه قائلا :

- ما هذا أيها العبد الأسود اللامع كحذائي؟

أجابه الخادم في تبجيل ورأسه، إلى الأرض مطأطأة وهويقول :

- إنه مشروبنا الخاص لرأس السنة يا سيدي كونياك ونبيذ أبيض وكرفس وكرات وبصل وثوم.

رفع سام كأسه صائحًا في انتشاء إذ يقول :

- بئس الروعة عروضنا ما رأيكم إذًا أيها المبجَّلون بمشروب أميرتي الجديد.

فقرعوا كؤوسهم الغارقة لحوافها وهم يصيحون قائلين :- بصحتنا جميعًا سادة الأرض. أجاب النادل وهو يبتسم بانحناءة بينما قال :- أجل في صحة سادتنا جميعًا إننا لا ندَّخر وقتًا في سبيل راحتكم نحن حراس رفاهتكم تمتَّعوا.

انقضَّ آدم على أبيه وهو يلف الحبل حول عنقه، حتى لمَّا تمكَّن منه جيدًا جعل يشد الخناق بكل طاقته بينما عيناه الجاحظتان لم تنزلا عن أبيه الذي كانت نظراته المختنقة تتوسل إليه بصمت. انقطع الهواء عن صدره وتدلَّى لسانه من فيه، مع ذلك كانت أنفاسه المتبقية في حلقه تستغيث قائلة :

- أختنق لا لا تفعل أرجوك.

لكنه كان يستمر في خناقه صارخا في وجهه ويقول :

- خائن يجب أن تموت لقد عشت كثيرًا وانتهى دورك والآن ستموت مت أيها الخائن .

ثم فجأة وبلمح بصر انقصف باب الغرفة، فاقتحم رجال شرطة مدججون بأسلحتهم وهم يصوبونها نحو آدم ويصيحون به قائلين :

- لقد وقعت سلِّم نفسك الآن.

فهجم أحد رجال الشرطة عليه، وأمسك به قبل أن يُلقي بنفسه من النافذة، لكنه سبقه بأن ألقى بجوفه حبَّة بسرعة خاطفة. صاح رجل شرطة عند باب الغرفة بينما يطلب الإسعاف قائلا :

- انتبه لديه كبسولة سامة حبة سيانيد البوتاسيوم .

لكنه تداعى سريعًا بين أيديهم بينما يسيل لعاب رغوي أزرق من فمه، فصاح أحدهم قائلا :

- ابتلعها لقد مات قبل أن نلمسه .

اقترب منه رجل الشرطة وهو يتفحصه قائلا :

- هذا ليس حادثًا عرضيًا إنها منظمة جيدة التمويل .

انتاب الهلع وسوء التقدير جماعة كوهين؛ إذ إنه قرأ الموقف خطأ ولم يحسن التوقّع. تم اعتقال المئات من الأصليين، وزُجّ بالآلاف في المعتقلات عبر العالم، وتوسعت الاغتيالات، ودُوهِمت منازل عرب الداخل، لمّا هبّ تيار وطني ديمقراطي، وكان كفيلًا بالتغلب على التيار الذي كان يتنفس بمصالحه مع إسرائيل، والذي فرّ سريعًا خارج حاجز قلنديا. احتدمت المسائل إذن، وانتُهكت الحرمات ودور العبادة، فقُطّعت مفاصل الدولة الإسرائيلية بالأطر المشتعلة، لمّا هبّت دورة انتفاضة أخيرة، وتأهبت الجيوش، واحتشدت في العراق، وهرعت السفن الحربية الدولية إلى شرق المتوسط، واشتبكت في مياه الخليج، ولمَّا منع الجيش المصري وصول أي دعم حربي إلى إسرائيل تضعضعت تل أبيب، وأصبحت سماؤها بلا منظومة دفاعية، وأعلنت حكومة الانتفاضة الإضراب الشامل على كامل تراب فلسطين التاريخية، فضعُفت القيادة المركزية لجيش الاحتلال بالضفة الغربية، واختُرقت حواجز بيت إيل وحُوّارة، وفُتّحت معابر الحدود، فمُكّنت مخيمات اللاجئين، وانطلقت الشماريخ والمفرقعات النارية في ربيع فلسطيني عارم.

استولى الأصليون المُستضعفون على كامل البلدة القديمة وخارجها، ومن بيت لحم اقتحم الفلسطينيون نقاط التّماس والسواتر الترابية والمكعبات الإسمنتية إلى ضواحي القدس ودير ياسين، كما عززوا تمركزهم في غزة، ورام الله، وبيت لحم، وجنين، والبيرة، ونابلس، وأريحا، وبيت عنان، والخليل، وأغوار الأردن -والبلدات العربية داخل الخط الأخضر، في :اللّد، والجليل، والرملة، والناصرة، وطبريا، والبياضة، وعكا، وصفد، وحيفا، والطيبة، وأم الفحم، والشيخ دنون، وسخنين، وقيسارية، وطولكرم، ونتانيا، وسهول مجدو التاريخية، وتل الربيع، وأسدود، وعسقلان، وفي عكا شمالًا، واللقية جنوبًا، ويافا الكبرى - وأحبِطت الألغام، واقتُحِمت سُوج حدود لبنان الجنوبية بالمئات، وعبر آلاف الأردنيين إلى ضفة العيّاش الغربية للبحر الميت؛ واللبنانيون زحفوا باتجاه البقاع، وتُسُلِّلت الأنفاق، فأزيلت كل الحواجز الجغرافية داخل فلسطين التاريخية، وسقط التعاون

الأمني الدولي مع إسرائيل، وخرج جيل من الشباب الجدد حول العالم، فانهمرت المظاهرات العالمية؛ رفضا لإرسال السلاح، والذخيرة، إلى الكيان الإسرائيلي، وانهارت اتفاقية أوسلو، وفشلت نظرية دايتون للعيش المشترك، وتم منح اليهود الباقين، في الأراضي العربية المستردة، جنسية فلسطينية، وكانوا قد أمسوا يستولون على كامل تراب فلسطين، وهم في طريقهم الزاحف لتحرير يافا القديمة؛ لرفع العلم الفلسطيني على أرضها، عندها أدرك السكَّان الأصليون أن من حرص على الموت دفاعًا عن أرضه وُهبت له الحياة.

كانت الثلوج بالخارج تقذف الأرض قذْفًا، لكن المحتفلين بالداخل بانتهاء غُصَّة العام يتصببون عرقًا من حميَّة الابتهاج .لقد شُرّد ملايين من الأطفال العرب في سبيل بقائهم الذي نسجوه بحرفيَّة من خيوط الخراب. لا وقت الليلة لمثل تلك الأفكار الساذجة والتي تجلب سوء الحظ كي تدور في رأسه، وهو منغمسٌ بالرقص إلى ثمالته، فالأجواء صاخبة، والرغبات متوهِّجة، والشهوات متَّقدة، وحفل رأس السنة سيبدأ على أهازيج داعرة، وخصورٍ منحولة. العُهر شيطانٌ ينتوي تقمُّص زي إنسان، وكل حماقات البشر الأوائل ستزيح عن البشرية العارية وشاح القيم إلى وعد الآخرة. صاح مُقدِّم الحفل الأبيض مُرتديًا تنُّورة حمراء مطرَّزة وقال :- السيدات والسادة يَحينُ موعدكم مع الفقرة الأكثر إثارة للغرائز والتي انتظرتموها كثيرًا وها نحن نفي بالوعود السيدات المحصَّنات والسادة المُخضرمون رجال الأعمال البارزون من دولة إسرائيل ومن دول العالم يشرفنا حضوركم اليوم فلتتفضلوا معي على المسرح لدينا هنا خمسة متسابقين وسأقدم لكل واحدٍ منكم زجاجة كونياك فاخرة دعونا نشاهد من سيكون مهرّج حفلتنا لهذه الليلة ? Are you steady .

اندفع الأدرينالين بأجساد المتبارين فصدحوا قائلين :- لا نستطيع الانتظار فلنبدأ فورًا. مرَّت دقيقة كاملة ليعلن مُقدِّم الحفل بعدها انتهاء المهلة المحددة، فصاح وصحبه دق على الطبول قائلا :- تصفيق حاد للسيد رودريغز من فضلكم. انهار الحشد الغفير تصفيقًا متتابعًا، ثم علت أصواتهم وهم يهتفون باسمه، فعاد ليهجع بالميكروفون قائلا :- والآن ماذا تطلبون منه؟ الجميع هتف في غير تردد قائلين :- يتجرَّد من ثيابه تعرّ الآن هيَّا هيَّا. ثم صرخ مُحَمِّسًا لهم إذ قال :- نريد تشجيعًا حارًا وساخنًا للسيد سام رودريغز. بدأ سام في بهجة غامرة بخلع رابطة عنقه، وخلفه تماما وقف حارسه القوي، يحمل عنه ما تبقَّى من إنسانيته، حتى استعرض نفسه عاريًا من أعلى، لكن فيما يبدو أن المبتهجين لم يكتفوا بذلك، فهم أرادوا مشاهدة أوراكه الممتلئة؛ فرددوا عاليًا في سخرية قائلين :- البنطال البنطال .

انفجرت مواسير المياه والصرف العموميتان، واندلعت النيران في خزّانات الوقود ومحطات الكهرباء بكل مكان بإسرائيل، فانقطعت إمدادات التموين والشحن، وقُصفت النواطح والصهاريج والحقول، فهَوَت الشاهقات والعنقاوات الفولاذية، وتباينت الأخوات المتحدة الماسونية، لمّا تكاتفت الشعوب العربية، وتقاربت الرؤى والفصائل الفلسطينية، وتضامنت الأمم الدولية، فاستُنفرت القوات الأجنبية في قواعد سوريا والعراق، فحلّقت الزنّانات، وحامَت المقاتلات، وتصاعدت حمم الغضب الغليظة وأعمدة الدُخّان، لمّا استفحلت الخلافات، واستعصت مجالس القمم، فنشبت الأزمات والكوارث الأمنية والاقتصادية. تراخَت الدعامات السياسية، وتُبُودِلت المعلومات؛ فصححت الوعي الجمعي الدوّلي والعالمي، لمّا عُرّفت القضية الفلسطينية من كثير من مسلمي أوروبا وأستراليا والولايات المتحدة؛ فخرجت المظاهرات المنظّمة والاحتجاجات العفويّة في واشنطن، ونيويورك، وأوتوّا، وموسكو، وروما، ولندن، وجوهانسبرغ، وبرلين، وبكين، وطهران، وإسطنبول، ومدريد، وأثينا، وكابول، وكييف، وجاكرتا، وباكو، ودبلن، وساو باولو، ولشبونة، وأنجامينا، وبراغ، وداكار، وستوكهولم، وباريس، وهلسنكي، ومانيلا، وسيئول، وبيونغ يانغ، ونيروبي، وكوالا لابمبور، وتبليسي، وأوسلو، وفيّنا، ونيودلهي، وأمستردام، وطوكيو، وبلغراد، وطشقند، وإسلام أباد، وبروكسل، وبيونيس آيرس - ترفع شعارات Israel Is An Apartheid State فَحُمّلت برامج الأخبار العاجلة على الهواتف المحمولة؛ فقوطعت المنتجات الإسرائيلية، والشركات العالمية الداعمة لإسرائيل، فسِيئت الوجوه، وانكشفت عورات إسرائيل على شاشات التلفزة العالمية.

عُديَت الصهيونية في أنحاء مختلفة من العالم، وارتُديت الشالات الفلسطينية، ورُفعت أعلام دولة فلسطين في الملاعب الإنجليزية ودوريات كرة القدم الإيطالية والإسبانية والألمانية وسط تصفيق وهتافات المشجعين باسم فلسطين، وكُسِرت الصورة الذهنية عن إسرائيل مستقرة؛ فتوقفت عائدات السياحة، وتقلصت الموارد المالية المهمة، وغرّدت شخصيات عالمية بارزة ومشاهير هوليود وكرة القدم على مختلف وسائل التواصل الاجتماعي دفاعًا عن فلسطين. تواصلت الحملات المنددّة بالاحتلال الصهيوني ودخلت إسرائيل في عزلة دولية، وخرجت مشاريع قوانين لوقف بيع السلاح إليها. فيما احتقنت الاشتباكات بين متضامنين مع فلسطين وآخرين مع إسرائيل في الولايات المتحدة، وأصدِرت مذكّرات اعتقال بحق مجرمي حرب إسرائيليين؛ وانفضّت أزْمُن حلّ الدولتين، وأجهِضت خطط ضم الضفّة والأغوار لإسرائيل؛ فتبدَّلت الهجرات، وتأهبت مواقع التمركز، وهتفت الأبواق، وانسحَبت الشركات، وغُلّقت السفارات، وهُشّمت محال ومساكن فلسطيني الداخل، واستعرت الحرب الأهلية، وتمركزت نقاط العبور، ومُشّطت خطوط التّماس، وتمزّقت الحياة الاجتماعية داخل إسرائيل؛ فاندلعت الاشتباكات الدمويّة

المسلّحة مع الفاشيين اليمينيين المتطرفين في شوارع هرتسيليا، ويافا، ونتانيا، وريشون لتسيون، وبات يام، وحولون، ورامات غان، وأشدود، وفي سديروت، وعسقلان، وفي الجليل الأعلى، وأشكول، وبئرالسبع - وأجّجَت مواجهات عنيفة بين إخوان كوهين والمعارضين اليساريين، فتُركت الممتلكات والسيارات في كل جوش الكبرى التي أمست كالقفص، وتُكبدت خسائر فادحة في السيارات والمباني الرئيسية، فأخليت مئات العائلات والبيوت من المستعمرات الإسرائيلية، وحُزّمت الأمتعة، ولجأت الأسر اليهودية إلى أمريكا، وتشتتت في أوروبا الأخريات، وأقيمت مراكز لإيواء الإسرائيليين المشرّدين.

استُدرج الجيش الإسرائيلي إلى عملية برية شاملة في قطاع غزة، فاقتُنصت الدبابات والآليات العسكرية الضخمة من قبل المقاومة، وباتت أغلب مناطق إسرائيل تحت القصف المستمر والمطّرد من قبل حزب الله ومن الشرق والجنوب ومن جهة البحر؛ فأُلغِيت رحلات الطيران إلى إسرائيل، واستعظمت الكروب، واحترقت أحراش والنخيل والكروم في المدن والقرى والبلدات، فدُفِعت الأثمان، واضرمت النيران في مراكز الشرطة، وتوقفت آبار النفط وحقول الغاز، وسُلبت الأسلحة والذخائر والمعدات، وتصدّعت المفارق، وتهالكت المرافق، وفُرضت حالة حظر تجوّل عام، وتسلّحت حركة التحرير الفلسطينية، وحركات الكفاح الفلسطيني المسلّح والكرامة الوطنية؛ ففُخّخَت السيّارات، وجُمّعت مخلفات الحرب الغارقة؛ فتكوّنت رؤوس صواريخ ثقيلة تصل لمدى: 160حيفا، و80تل أبيب، و40أسدود، و20عسقلان، و75بئرالسبع، و220رامون. اشتدّت العمليات الهجومية وعظُمت، وكثرت الفرق الفدائية، وتراجعت العصابات، وانسحبت القوّات من القدس والضفّة الغربية؛ فاستُردت الضواحي والكُفور وكبّرت النوافذ والشقق والشرفات، فاحتدمت معارك القتال الحاسمة على الجبهة السورية، بالقرب من أطلال تلة مجيدو، فطُردت منها القوات الأجنبية، وفرض الجيش السوري سيطرته على هضبة الجولان بدعم إيراني وتنسيق مع روسيا والصين.

سقطت القواعد الجويّة الشمالية في حيفا ورمات ديفيد، وانقسمت الناتو، وتنازع الحلفاء، واقتربت بوارج الترك لدعم ثورة فلسطين، واشتبكت مع غوّاصات الأسطول السادس الأمريكي في عمق شرق المتوسط؛ فغرقت المدمّرات، واختلّت الرادارات، وانهارت الترسانات البحرية، وأربِكَت الدفاعات الجوية الإسرائيلية، وانهزمت زوارق حربية أمريكية وبريطانية وفرنسية، فانسحبت إسرائيل من الشمال، وتحررت قرى رأس الناقورة، وعكا، والجليل، وصفد، والناصرة، وبيسان، وحيفا، واستُدعت القوات في سيناء، وأعلِنت التعبئة العامّة؛ فتقهقرت القوات الإسرائيلية المتمركزة في النقب، وحُوصِرَت دَيْمُونة؛ فأحبِطت المَهمات، ودخلت قوات الجيش الأردني إلى منطقة بئر السبع؛ وانسحبت قوات الاحتلال؛ لمّا سيطرت الجيوش العربية المتّحدة على المواقع العسكرية الجنوبية بعوفدا10، ورامون25، وحتسريم6، ونفاطيم28، وفي كلٍ من النقب وبئر السبع بالجنوب وصولًا إلى قاعدة سِدُوت ميخا الجويّة رقم2 بغرب القدس؛ فسقطت في يد القوات المسلّحة المصرية عشرات من طائرات F35 الشبح وF16 الإسرائيلية، ففكّكت الحصار الخانق على قطاع غزة؛ فانفرجت معابره، وأمدّت حركات المقاومة وكتائب الجهاد بالسلاح، وأغلقت مضيق تيران عند فم خليج العقبة وبوغازي السويس وبورسعيد بالاتجاهين، ومنعت حاملات الطائرات من عبور القناة، وحظرت وصول معدات حربية إلى داخل إسرائيل، فاستعادت مدينة أم الرشراش المصرية، لمّا تقاربت المصالح، ووُقّعت اتفاقيات الدفاع العربي المشترك؛ فتغيّرت موازين القوى، وانهارت التسويّات، وأخفقت محاولات التهدئة على الأرض، وفشلت صفقات القرن كلها، وتقاطعت مصالح الجزيرة مع مصالح التقدّميين الديمقراطيين، وقُلّمت أظافر إسرائيل في واشنطن وموسكو والقرن الأفريقي والساحل، وقُضمت أصابع قوى الاستعمار الغربي؛ فتآكلت منابر ومراكز قوى الجمهوريين، ومُنِيت محاولاتهم بالفشل.

تبرع العرب بما يمتلكون فمَوّلتا قطر والكويت العتادَ وهُدِن الشيعة وسَلَمَتا مصر والسعودية وحُرّر الأسرى والمعتقلون، ووفّرت مصر واليمن وسوريا والعراق الجنود؛ وهدرت الحناجر الثائرة في جميع العواصم المُسلِمة والمدن العربية، وانطلقت المسيرات والفعاليّات في مدن: جاكرتا، والرباط، والإسكندرية، وجدّة، وبغداد، وكابول، وإسلام آباد، والدوحة، وقسطنطينة، وصنعاء، والخرطوم، وعدن، وصَيْدا، ومراكش، والدار البيضاء، ومسْقط، ومِصراتة، ووهران، والقاهرة، وأبوظبي، وبنغازي، والرياض، وصفاقس، وصلالة، ودير الزور، والمنامة، والقيروان، وكولالمبور، وحلب، والكويت، ودرعا، والموصل، والأنبار، ومقديشو، والبصرة، ونواكشوط، وأنقرة، وتونس، وعمّان، ودمشق، وطهران، وكربلاء، والنجف، وبيروت - يهتفون بالحرية لفلسطين، ويطالبون بالشهادة في سبيل القدس؛ فعَلت الصافرات مجددًا، وقُصفت المباني والمنازل والوحدات، ونُسفت أكثرية الأبراج الدفاعية، فانهالت قنابل الصوت والغاز من جديد، وعادت سجالات إطلاق الرصاص الحي والمطّاطي داخل القدس وخارجها، فانبَثّت المُسيّرات مخترقة الأجواء المغلقة ترصد الأهداف وتجمع البيانات، وانطلقت الدرونز وطائرات الاستطلاع تقذف دفعات من القنابل التحذيرية، ودوّت الجوّالات المُجنّحة والصواريخ البالِستية وقذائف الهاون بكل مكان، واضْطَرمت الوهّاجات، وشُحِنت خطوط الدفاع الأمامية بالمدرعات المصفّحة وعشرات المقذوفات.

غارت النفّاثات والمقاتلات من جدي، ثم تعود إلى مهابطها وقد استّوت الأبنية والأحياء والبلدات؛ فاختنقت العاصمة بسحب بارودٍ سوداء وبالغازات السامّة وضباب التفجيرات. تصاعدت الراشقات، ودُمِّرت بنَى تحتية؛ فضُربت مدارس ومساجد

ومعاهد ومشاف، وعَبّأت الأتربة الصدور حتى تكدّست الجثث، وعمّت الفوضى، وانتشرت الحرائق في شوارع يافا وتل أبيب، وتفاقمت الإصابات، وتراكمت البنايات الخُروب بالكامل عن بكرة أبيها، فشُلّت كل مناحي الحياة، وانحسر ثلثُ سكّان إسرائيل إلى البحر. نفدت خزّانات الوقود، وتشظّت فِلَق الصواريخ بعد اعتراضها في أفُقِ السماء؛ فاشتعلت الأحراش المحيطة، وفشلت أجهزة الإطفاء والدفاع المدني بإخماد الحرائق المندلعة في أراضي المواجهات الحدودية المفتوحة والهشيم، ولمّا سقطت على أعمدة إنارة، وأتت على أسلاك كهربائية ذات جهدٍ عالٍ، وتضرّرت شبكات الكهرباء؛ أظلمت الطرق والشوارع، وغاصت كل أرض جوش بليلٍ سخام أسودٍ وبهيم، لحظةَ كانت السماء مضاءة براجمات من سجّيل، تملأ المدى، وتتوهج في أفق الضواحي الشمالية والشرقية والجنوبية لتل أبيب الكبرى؛ وقد فُرض طوقًا غليظًا مشدّدًا وحصارًا كثيفًا حول العاصمة، حتى انقطعت أغلب وسائل الاتصالات وشبكات الإنترنت، ونُهِبت ماكينات الصرّاف الآلية، وتوقفت تقريبًا كل القطارات والباصات ووسائل النقل العام والمواصلات، ودُمِّرت سكك الترام وخطوط مترو الأنفاق وجسور البراق الكهربائية.

انقسمت الأحزاب اليمينية الرئيسية الكبرى وتناحرت، فانقسم الإسرائيليون شعبيًا وتعمّق الصدع الداخلي في المجتمع، حتى حُبسوا واختنقوا تحت الأرض، وأقرّ إسرائيليّون يساريون وحقوقيّون بعدم شرعية دولة إسرائيل، وطالبوا بإعلان الاستسلام والرحيل، وإنهاء الاحتلال حقنًا لمزيد من الدماء، وكانت قد تلاحمت المقاومة؛ وشُفيت صدور العرب، واتّحدت القلوب الشتّى والفصائل، وآتت المقاومة المسلّحة أكلها، والإدانات العربية والدولية وخطابات الشجب والاستنكار، فأوقفت مواقع إسرائيلية كثيرة، وحُذفت إسرائيل من خرائط غوغل، وكُسِرت كل معادلات العدو، وخاب وخَسِر، وأعلِنَت جرائم عصابات الهاغاناه التي ما سقطت بالتقادم؛ وهِيدَتْ كلمةُ فلسطينية واحدة، وصعدت قيادات شابّة جديدة لصد أخر محاولة قبل النفس الأخير لآل كوهين، ودنت المعركة الفاصلة، وبات الإسرائيليون الباقون ليلتهم في الملاجئ والمخابئ، لمّا كانت أشباح الموت السوداء تتشكّل في كل سماء جوش دان.

لم يرَ سام عيبًا في الكشف عن مؤخرته لحظوته المقربين، ولم يجد بُدًّا من هتافات الجماهير الحماسيَّة ليقف أمامهم بلباسٍ أحمرٍ قصير. إن هذا التصرف يثير ضجيجًا من تنمُّرهم وضحكاتهم الهستيرية، في حين يعجبه هذا فجعل يُمايل خِصره كعروس رشيق. الجميع يهتفون باسمه ليخلع ما تبقَّى من حيائه. في البداية تحاشى ثم إنه ضحك مُحرَجًا في بعض خجلٍ رديء، لكن أحد الفتية اقترب منه بينما يقف مُهرِّجًا ثَملًا يهذي ويتأرجح بسخفٍ كذكر إنسان غابٍ يستعرض فحولته المنقرضة في موسم تزاوج حيواني، ثم إنه يُصَب على جسده الخمر صبًّا، فيحتشدن حوله الفتيات المتمايلات اللائي أخذن بفرك جسده ذي الأخاديد، حتى سلّم لهنَّ رايته. امتدت أياديهن ليُثرن ضحِكه هازئات به فإذ به يتداعى بينهن مُتلوّيًا من إثر زغزغتهن، وكفتاة باليه مرنة حاول الانفلات منهن مُصدرًا أصواتًا ناعمة وصارخًا بهن يقول :

- كفى أيتها السافلات لا أكاد أحتمل.

وصل عدد كبير من الشرطة لتأمين الحاخام الأكبر وأعضاء الكنيست وحمايتهم عند الملاجئ؛ فأمر كوهينعبر كابينة القيادة بالالتفاف والعودة إلى قاعدة تل نوف الجويّة، فارتبكت القيادة العليا لعدم قدرتها على توفير التأمين اللازم له، لكنه أصرّوتكابر معتمدًا على قواته الخاصة. اخترق قائد الطائرة الأجواء الإسرائيلية، وبينما تتوقف على المدرج أسرع حارسان بتأبطه تحت أجسادهم، وعجّلوا بإنزاله عنها. دلف درجتين وفي الثالثة صاح من الخلف قائد الحرس قائلا :

- هنالك هدنة رجاءً سيد كوهين أنت قيد الاحتجاز صدر الأمر من قبل القيادة العليا المركزية بعدم السماح لكَ بإطلاق الزرّ النووي أرجوك لا تضطرني لإطلاق الرصاص.

لكن تناثرت شظايا صاروخ فوق الرؤوس كالمطر فأعادوه سريعًا ثم انتظر. انقضّ عليه المدعي الدولي العام وحاول التملّك منه، لكن حرّاسه لاذوا به بعيدًا، فتلاهث وهو يركض مذعورا، ثم نظر في السماء فصرخ بهم أحد حارسيه قائلا :

- أسرعوا أسرعوا صاروخٌ سيسقط على المطار.

عاد مقدِّم حفل التعرّي ليصدح بصوتٍ صارخ من جديد قائلا :

- والآن ماذا تنتظرون؟ الدقيقة الأخيرة تحين تخلَّوا عن قيَمكم فورًا وانزعوا عنكم كل الثياب تشاركوا ذلك أريد أن أرى من هنا ستلعب دور الضحية؟ فيمن سيؤدي دور المغتصب؟ هذه مجرد محاكاة لا تقلقوا.

ثم توجه نحو سام ليقبض على صدره المنتفخ ساخرًا به إذ قال :

- سيد رودريغز أخبرنا ما هي مشاعرك الآن؟

لم يستطع أن ينطق، لكنه حاول أن يجيب مُسخْسِخًا من فرط مداعبة الفتيات له قائلا :

- بالكاد أستطيع الكلام لا يمكنني وصفها.

وفي حركة استعراضيَّة خطف مُقدِّم الفقرات استدارة قصيرة نحو الجمهور، ثم صاح فيهم قائلا :

- إذًا أيها الحضور الكريم تلاحظون أن السيد رودريغز لا يبدو راضيًا عن أدائنا فلنرَ كيف يتسنى له أن يشعر مع فقرتنا القادمة السيدات والسادة رحبُّوا معي بالوحش الإفريقي البديع.

صعد إلى المسرح بطل زنجي مفتول، ثم دُعي للوقوف أمام الحشد شبه عارٍ، وما إن سمعوا الدقات على الصنج حتى شرع بخلع قطعته الأخيرة، ليقف مستعرضًا ذكوريته التي تئنُّ لها نفوس السيدات الراقيات، فشهقن في مجون. غمزت امرأة بكوعها لمدام رودريغز وهي تهمس فيها وتسألها بدهشة قائلة :- هل تنظرين؟ فأجابتها وهي تتنهد كقطعة ثلجٍ تذوب قائلة :- همم لا أعرف كم كنت سأندم إذا ما فاتني العرض لم يسبق لي أن أرى مثله؟ اندهشت السيدة فقالت:- معقول؟ مع أن زوجك يبدو قويًّا ووسيمًا إلهي إنه بحالة مزرية الآن. ثم عاد المقدّم ليصدح قائلا :- مع عرض أكروباتٍ على عمود الرقص دعونا نتابع هذه الخفة المذهلة للبطل الفتَّان.

مُصنعو الذخائر والسلاح ومصدّروه لإسرائيل باتوا محاصرين بوشك الإفلاس بسبب العقوبات السياسية. المجتمع الدوّلي والأممي يكيل بمكيالين، والعاهرون السياسيون يُولّون مبادئهم وأدبارهم إلى من يضع في جيوبهم المال الأكثر، من غير عقيدة أو ضمير. قتلة الأطفال أمسوا ملعونين بكل مكان، لكن كوهين ما يزال يستبعد الفشل؛ لذا أسرع إلى سيارة جيب انتظرت أسفل الطائرة، وانطلق بها هروبًا من المدرج، وما أن هرع مفزوعا نحو مخابئ المطار حتى انفجرت قذيفة صاروخية ذات دوّي شديد رجّ الأرض رجًّا في مكان على بعد مترات يسيرة من السيارة، فاندفعت مقدمتها في ظلام أغبر، لكن عجلاتها على نحو مفاجئ نفثت كامل هوائها خارجها، فانقلبت مرات عدة، ثم انحشرت في كومة من الحطام وركام المطار. أدى الانفجار بالقرب منه إلى تهشّم زجاج متفرق إلى ذرات جارحة، فكان لا يقوى على تحريك فمه بالصراخ لمَّا رشح وجهه بالدماء.

بتراخٍ ثمِل أقام سام ظهره؛ لكن المقدّم يطلب من مخنَّثة الخروج من خلف الستار، لتظهر أمام الجميع بهيئة غريبة، ثم التقط أطراف أصابعها ليقدِّمها للعلن، والحشد لم يتوقف عن الصفير، فلم يعد سام باديًا فقد اختفى وما برز منه سوى طرف من وجهٍ ضخم، بلسانٍ متدلٍ وثغر شاهق. استنجد كوهين بالحارسين المنقلبين معه في السيارة وهو يصرخ؛ لكنه وجدهما صريعين، فزحف إلى أن أطلّ برأسه من النافذة المهشمة، مع ذلك وجد كل سيارات الحراسة والتأمين خاصته قد انقلبت واشتعلت من خلفه ولم ينجُ منها أحد. كانت أمنيته الوحيدة أن تبقى إسرائيل حتى يصبح رئيسا للوزراء، لكنه لحظتها نظر في حسرة إلى نفسه وهو يضحك ضحكًا كالبكاء. كان العام الثقيل قد اكتمل، عندئذ غرق العالم في عتمة طويلة، فصرخ سام في صدمة مدوّية وفزعٍ أسود رهيب قائلا:- ماذا حدث؟ إنني عالق هنا هذا مرعب بئسًا أتمزحون معي؟ من أطفأ هذا النور اللعين؟

***

صباحُ يومٍ جديد يشرق على سماء كهف الملح، فإذ برعوي من بدو فلسطين يعثر على يحيى وكارمن ورضيعها نائمين ولا يحركون ساكنًا بداخله. توجس الرجل منهم خيفة؛ فأسرع بطلب وحدة الإسعاف القريبة لشكّه بأنهم ميتون، وبدورها أبلغت الشرطة الفلسطينية، وتم نقلهم جميعًا إلى مدينة القدس المحررة؛ لتلقي العلاج في المشفى الوطني الفلسطيني، بينما كانوا على حالتهم تمامًا كما هم من دون سوء. لمّا فتحا أعينهما لم يكادا يصدقان ما يريان؛ لقد تبدّلت الأمور بصورة تامة مذ آخر مرة رأيا القدس فيها، أضحت ترفرف خلالها الأعلام الفلسطينية في كل شبر ومكان، في الشوارع، والنواصي، والأحياء، وفوق كل أسطح العمائر والبنايات. انتصرت قوى الخير، وعمّ السلام، بينما أفواج من البشر هائلة تفد من جميع الأقطار لزيارة المدينة المقدسة في أمان. من باب العامود لم تعد الحواجز الإسمنتية والسواتر الحديدية تعيق أفواه البلدة القديمة، بل غدت أسوارها كلها مفتوحة على مصراعيها تستقبل الحجيج يهودًا ومسيحيين ومسلمين يتقاطرون على البلد الذي التئم فيه شمل الأسر الفلسطينية المهجّرة، ليعودوا ويرثوا ما تركه المَجْلوّين المحتلين، في الوقت الذي لم يعد هناك في العالم شعوب مستعمرة. كان أمرًا عجبًا لا يصدقه عقل. انتشرت الأخبار عن العثور على رجل وامرأة وطفليهما وقلادة العزة والمجد المستعاد بكهف من كهوف قمران، فانهالت الجموع الغفيرة إلى المشفى الوطني لتبتهج وتحتفل وتزفّ العائدين. فيما أبلغ الجيش الفلسطيني نظيره المصري بأمر العثور على أسرة مصرية بكهفٍ بأقصى الشرق من جمهورية فلسطين المستقلة يبدو أنهم تاهوا وظلوا ماكثين بداخله منذ بضع سنين. فتلقفت جميع وسائل الإعلام الخبر وتناقلته، وخرجت العناوين الأولى في الصفحات تسرد واقعة غريبة وفريدة من نوعها تبدو كمعجزة، ولمّا نقلوهم في سيارة خاصة إلى مطار يافا الدولي شمال غربي القدس خرجت الأهالي خلفهم، وقد قدموا من كل حدبٍ وصوب بسيارات شتى، وعلى طول الطريق انطلقت منها الزغاريد والأهازيج، وعلت الحناجر بالغناء والأناشيد الوطنية والبشارات، في يومٍ كعُرسٍ لم تشهد فلسطين مثيلًا له منذ عقود، وفي مطار القاهرة الدولي استقبل المصريون العائدين

بسلام إلى أرض الوطن، واحتشدوا بصالاته وخارجه انتظارا لوصولهم، فإذا رأوهم انطلقت تكبيراتهم والتغريدات مع شدْو الأغاني الشعبية والهتافات السعيدة بعودة القلادة والأبطال وبتحرير فلسطين.

النهاية